

اشع على مسرة علوم

1.

منتقيات

اغتيال النبي محمد

لماذا نذهب بتعديل الف

كي لانسى

مناهج التربية الإسلامية

مرشحون فاسدون

الإلحاد في أسماء الله

نهر العقل والتفكير

لماذا خلق الله الإنسان

القرآن والسريانية

القرآن والسريانية

اللباس الشيعي للمرأة

عشقا لخفق النعال

مناهج التربية الإسلامية



الشيخ علي حسن غلوم علي

منتقيات

١٠٠-

خطب الجمعة التي ألقى من على منبر
مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
في الفترة ما بين

١٩ ربيع الثاني ١٤٣٧ هـ - ٢٩ يناير ٢٠١٦ م

إلى

٢٢ ربيع الثاني ١٤٣٨ هـ - ٢٠ يناير ٢٠١٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa@alwalaa.com

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

- المقدمة بقلم د. حسن الصايغ ١١
- ١ - في مواجهة السنين العجاف ١٧
- ٢ - لماذا خلق الله الإنسان ؟ ٢٣
- ٣ - إنا كفيناك المستهزئين ٢٨
- ٤ - بين الأحاديث الصحيحة ومرجعية القرآن ٣٤
- ٥ - عندما تضيق الأوطان ٤٠
- ٦ - لماذا لم يبلغ الإسلام نظام الرق ؟ ٤٥
- ٧ - كي لا ننسى ٥٣
- ٨ - الخصومة في الدين ٥٧
- ٩ - مكر السوء ٦٣
- ١٠ - نور العقل والتفكير ٦٨
- ١١ - الدين والحروب ٧٤
- ١٢ - الإمام علي والبراغماتية ٧٩
- ١٣ - شهيد يتحدث عن شهيد ٨٤
- ١٤ - قصص الأنبياء في الميزان ٨٩
- ١٥ - صبيبة إرهابيون ٩٥
- ١٦ - لماذا حرّم الله الرّبا ؟ ١٠٠
- ١٧ - لماذا ندعو بتعجيل الفرج ؟ ١٠٦
- ١٨ - الفهم المغلوط لانتظار الفرج ١١١
- ١٩ - رحلة مع تشريع الصيام ١١٧
- ٢٠ - التضييل المعلوماتي ١٢٣
- ٢١ - إرهاب أم إقامة حدود ؟ ١٢٨
- ٢٢ - مثلنا علي ومثلهم الحجاج ١٣٤
- ٢٣ - أضعف الإيمان ١٤٠
- ٢٤ - القرآن والتشديد في العذاب ١٤٤

محتويات الكتاب

٢٥ -	الإلحاد في أسماء الله	١٥١
٢٦ -	اللباس الشرعي للمرأة في القرآن	١٥٨
٢٧ -	مَنْ أَوْ فِدَاء	١٦٦
٢٨ -	مناهج التربية الإسلامية .. إعادة قراءة	١٧٢
٢٩ -	المسؤولية تجاه الحق	١٧٧
٣٠ -	الغدير .. شهادة معاصرة	١٨٣
٣١ -	القرآن والسُّريانية	١٨٩
٣٢ -	من قتل الحسين «عليه السلام»	١٩٩
٣٣ -	من عوامل تردي المنبر الحسيني	٢٠٦
٣٤ -	النبي يحيى والإمام الحسين	٢١٥
٣٥ -	نشوز الزوج والزوجة	٢٢٢
٣٦ -	هل في القرآن أساطير ؟	٢٣٠
٣٧ -	الدور المأمول من الفقهاء	٢٣٩
٣٨ -	مرشحون فاسدون بالقوة	٢٤٦
٣٩ -	عشقاً لحقق النعال	٢٥١
٤٠ -	مرشحون وخطوات الشيطان	٢٥٦
٤١ -	إشكالية نصيب المرأة من الإرث	٢٦١
٤٢ -	النبي «صلى الله عليه وآله» .. وفاة طبيعية أم جريمة اغتيال ؟	٢٦٨
٤٣ -	اغتيال النبي «صلى الله عليه وآله» .. مجدداً	٢٧٣
٤٤ -	هل حرم الإسلام الخمر ؟	٢٧٩
٤٥ -	طلاق الضرر	٢٨٥
٤٦ -	مقولة التطور الطبيعي للعقيدة	٢٩٢
٤٧ -	جريمة الرشوة	٢٩٩
٤٨ -	شيخوخة الدول	٣٠٥

المقدمة

المقدمة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «الجمعة: ٩-١٠».

شرف كبير لي أن أندب للتقديم لكتاب «منتقيات - ١٠» وهو عبارة عن باقة عطرة من خطب الجمعة لسماحة الشيخ علي حسن غلوم «حفظه الله» خلال العام ٢٠١٦م. ولما كان الكتاب الذي بين أيدينا يجمع بين دفتيه كنوزاً ثمينة من خطب الجمعة، هداني عقلي المتواضع إلى أن يكون ولوجي للتقديم له من خلال الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الجمعة المباركة والتي تتحدث عن فضل صلاة الجمعة.

فصلاة الجمعة - وما أدراك ما صلاة الجمعة.. وما أدراك ما خطبتها - صلاة خص بها الله عز وجل يوم الجمعة وهو سيد الأيام بلا منازع. وأمر الناس أن يسعوا فيها إلى ذكر الله عز وجل عند ما ينادى لها ويذروا البيع والشراء لأن ما عند الله خيرٌ لهم من اللهو والتجارة وهو خيرُ الرازقين.

ولما كانت صلاة الجمعة وحضورها جامعة لخير الدنيا والآخرة، كان لزاماً على من أخذ على عاتقه مسؤولية الإرشاد والتبليغ أن يكون كفوّاً لها وأميناً عليها.

إن حديثي في مقدمتي هذه عن سماحة الشيخ علي حسن غلوم «حفظه الله» ليس مدحاً مني له، وإنما هو وصف دقيق له.. لماذا؟ لأنني أعتقد بأنه من الذين نذروا أنفسهم ووهبوا حياتهم بكل تفاصيلها لحمل أمانة التبليغ التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها رجالٌ عاهدوا الله على حملها حباً منهم فيه ورغبةً منهم فيما عنده من عظيم الخير والجزاء. والشيخ علي من هذا الطراز من الرجال الزاهدين في مديح مَنْ كان مثلي، لأنهم أدرى بأنفسهم من غيرهم.

وكما أسلفت فإنني أحببت في هذه المقدمة أن أصف أخاً عزيزاً عاشرته على مدى عشرة أعوام أو أكثر، وعرفته عن قرب، فقررت - بعد أن كَلَّ عقلي وقلبي من الطواف بأبواب مدارس عدة - أن أنيخ رَحلي على باب مدرسته في مسجد سيد هاشم بهبهاني، لعلني أقف على معين علم أو حكمة أو هدى، أروي بها ظمأ عطشي للمعرفة الحققة المرتبطة بالدين الحق المنزه من الخزعبلات والخرافات والمزايدات التي أقحمت فيه خلال أربعة عشر قرن من الزمان، صافياً كالماء الزلال، كما جاء به سيدنا محمد ﷺ.

نعم، منذ تلك اللحظة التي شاء الله عز وجل أن أجد عند هذا الشيخ الجليل ضالتي - وهي الحكمة التي تعبر ضالة كل مؤمن - عشقت حضور صلاة الجمعة وخطبتها، ويرجع الفضل لله عز وجل إذ منَّ علينا بسماحة الشيخ. وكما بينت آنفاً في صدر هذه المقدمة بأن من يأخذ على عاتقه مهمة

التبليغ والخطابة يجب أن يكون كفوًّا لهذه المهمة الخطيرة في ذاتها، الجليلة في قدرها، فليس كل من أعتلى منبراً وتكلم عُدَّ خطيباً، كما وأن ليس كل من أمسك مبضعاً صار طبيباً. فالمتكلمون كثُر، وأما الخطباء الرساليون فقليلٌ ما هم.

وأنا أرى - من خلال معرفتي بسماحة الشيخ علي حسن غلوم - أنه رجل رسالي اعتلى صهوة العلم والخطابة، يصول ويجول في ميادينها، فارس مفوّه فصيح اللسان، قوي البيان، سلس العبارة جميلها، عذبُ المقالة يسيرها، لين الحديث، يصوغ من طيب الكلام أوقعه على القلوب، وأسهله على إدراك العقول، ينأى بنفسه عن الابتزاز الرخيص للعواطف .. متينٌ في معانيه دون تعال .. رزين في قصده دون انفعال .. يرتقي بحديثه ولا يعلو بصوته، وذلك لعلمه بأن ما يأتي بالورد والزهر هو المطر، وليس ما يصاحبه من برق ورعد .. ذكي في انتقائه لمواضيع خطبه، قارئ جيد لما يدور حوله من أحداث.

ولما كانت الجغرافية هي التي تصنع الإنسان وتشكله، والإنسان هو الذي يصنع التاريخ ويوثّقه، فقد وجدته يتقن فن الربط بين تاريخ ما حدث بالأمس البعيد وجغرافية ما يحدث لإنسان اليوم .. وهذا فن لا يجيده كل أحد إلا من كان ذا عقل رشيد ورأي سديد وبصر حديد.

الموضوعية في الطرح شعاره، والعقلانية والإقناع في توصيل ما يريد من أفكار قميصه وإزاره.

وسطِيّ في أطروحاته.. متميزٌ في قدرته على التأليف بين المراجع والمدارس المختلفة، حتى في المذهب الواحد .

وأحب قبل أن أختم أن أزينَّ المقدمة المتواضعة هذه بصورة بلاغية جميلة وأقول: إذا كانت صلاة الجمعة هي البستان النَّضِر الذي يَسُرُّ الناظرين إليه، فَإِنَّ أَخِي سماحة الشيخ علي حسن غلوم «حفظه الله» هو القيم على هذا البستان، وخطبه القيمة هي الورود اليانعات والأشجار المثمرات والبلابل الصادحات بأعذب الألحان، والتي يتولاها هو برعايته، ويرفدها بعلمه وفطنته، فتؤتي بذلك أكلها كل حين بإذن ربها.

وختاماً يشهد الله يا شيخخي الجليل بأني ما قلت فيك إلا ما دلني عليه عقلي من خلال معرفتي بك. فإن لم أوفك حقك فبتقصيرٍ من عندي، وإن كنت قد وفقت لذلك فبفضل من الله.

أدعو الله يا شيخخي الجليل أن يجعلك نبراساً يَهْدِي به إلى الحق، ومتراساً يُدافع به عن الحق، وجندياً من جنوده يدفع بك عن دينه الذي ارتضاه لنفسه، أسوةً بإمامك وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. حسن الصايغ

الكويت ١ من يناير ٢٠١٧

الموافق ١٥ من ربيع الثاني ١٤٣٨هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي مَوَاجِهَةِ السَّنِينَ الْعِجَافِ



﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾
 («يوسف: ٤٦-٤٨»).

في الوقت الذي اتجه فيه كثيرٌ من المفسرين إلى اعتبار أن ما جاء على لسان النبي يوسف عليه السلام في الآيات السابقة لم يتعدَّ كونه تأويلاً لرؤيا الملك، اتجه البعض منهم ألا يكون يوسف عليه السلام في موقف تأويل

تلك الرؤيا بقدر كونه الموجّه إلى ما يجب أن يُفعل في السنين السمان والعجاف.. بمعنى أن دلالة الرؤيا كانت عبارة عن وقوع جذب شديد لمدة سبع سنوات، تسبقها سبع سنوات من الوفرة، دون أن تقدّم المخرج من هذه الأزمة.

• بشاعة المجاعة:

وحتى تتبيّن بشاعة ما كان يمكن أن يحدث في تلك الأزمنة، نطالع النص التالي للمقريزي وهو يتحدث عن مجاعة حصلت في مصر في منتصف القرن الخامس الهجري: (وأُكِلت الكلاب والقطط، حتى قُلّت الكلاب.. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً) وقد وقع مثل ذلك في هذا العصر في أوكرانيا أبان عهد ستالين.

ما قام به يوسف عليه السلام بالإضافة إلى تأويل الرؤيا هو المبادرة لوضع خطة لمواجهة هذا الحدث المخيف، ولهذا كان خطابه لهم أن يزرعوا دأباً، وأن يقتصدوا في استهلاك القمح، ويذروا باقي الحصاد في سنبله.

وللبروفيسور عبد المجيد بلعابد بحث علمي قدمه للمؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن الذي أقيم في الكويت عام ٢٠٠٦ جاء فيه أن: (البذور التي تبقى محفوظة في السنابل تحافظ على كمية البروتينات والسكريات العامة فيها، أما البذور التي تُعزل من السنابل فتتقلص كميتها بعد سنتين بنسبة ٣٢٪).

هذه المبادرة لتقديم الحل العملي لمواجهة الظروف الاقتصادية الصعبة بالإضافة إلى تأويل الرؤيا، هي التي دفعت الملك إلى أن يقول: ﴿ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ «يوسف: ٥٤».

• الكويت في مواجهة الأزمة الاقتصادية:

وفي هذا العصر - وبنحو ما - باتت الدراسات الاقتصادية، وسرعة تبادل المعلومة، وغير ذلك من العوامل كرؤيا ذلك الملك، فهي تقدم تصورات مهمة وحساسة حول بعض الأوضاع الاقتصادية المستقبلية للعالم.

اليوم، بالنسبة إلى الكويت - وكما هو واضح - هناك ظرف اقتصادي ضاغط مع التهاوي المتسارع لأسعار النفط.. فكيف ستواجه الحكومة نقص الموارد وعجز الموازنة وغير ذلك؟

الكويت كانت من أوائل الدول النامية التي أسست الصناديق السيادية، وقبل عام تقريباً تم تصنيفها في المرتبة السادسة على العالم، إذ كانت الحصة المعلنة للهيئة العامة للاستثمار ما قيمته ٥٤٨ مليار دولار.

ولولا الهدر والتساهل والتعدي على المال العام من قبل البعض لنجحت في تكوين رصيد أكبر.

وهذه الصناديق السيادية هي التي مكنت الكويت من رعاية مواطنيها عندما توقف الاقتصاد المحلي بسبب الغزو، ومن خلالها دفعت الكويت



تكاليف التحرير من الغزو الصدامي، وهي التي مولت ميزانية الدولة بعد التحرير إلى أن عاد إنتاج النفط إلى وضعه الطبيعي.

ومع الأزمة الاقتصادية القادمة، والتي لا يُعلم مداها الزمني، بات الجميع يتساءل: ما نحن فاعلون؟

• خطوات اقتصادية إصلاحية:

من الطبيعي أن أول إجراء يمكن أن تتخذه الحكومة هو تقليص المصروفات، وتحميل المواطن بعض الأعباء الجديدة، كزيادة أسعار المحروقات والكهرباء والماء وفرض بعض الضرائب وأمثال ذلك.

ولكن هل يقتنع المواطن بتحمل مسؤوليته في هذا الظرف دون تبرم، في

الوقت الذي يرى فيه الهدر والتعدي على الأموال العامة، وعدم الجدية والحزم في استردادها؟

خاصة عندما يجد أن ما سيتم توفيره من خلال تحمّله الأعباء الجديدة تقابله تعاقدات مع شركات استشارية أو تنفيذية تستهلك خلالها مبالغ أضخم، ودون مردود متناسب، هذا إن لم تقع بعض المؤسسات الحكومية في أخطاء قاتلة تتبخر معها تلك الأرقام.

ولذا فعلى الدولة إذا ما أرادت إقناع المواطن بتحمل المسؤولية، وكذلك لضمان استمرارية هذه الصناديق السيادية، القيام بعدة خطوات مهمة من بينها:

١- تقديم خطة تنموية واضحة المعالم بأرقام التكلفة وتواريخ المراحل، بحيث تضمن من خلال ذلك تعدد مصادر الدخل الذي ينادي بها الكل، ولم ينجز منها إلا القليل القليل.

٢- الرقابة الصارمة على تطبيق القانون بكل حزم وسواسية على من يتناول على المال العام أو يكون سبباً في هدره.

٣- الشفافية في تقديم التقارير الاقتصادية والمشاريع، كي يشعر المواطن بالاطمئنان تجاه إدارة هذا الملف، ويتشجع على المساهمة الفعالة في عملية الترشيح وتحمل مسؤولية سياسات التقشف.

فمن النظريات الإدارية أن المؤسسة الناجحة هي التي تستطيع تجزأة هدفها العام إلى أهداف فرعية، بحيث تعمل كل إدارة على تحقيق ما يخصها، وبتجمع الإنجازات يتحقق الهدف العام.. وهكذا عندما يعرف المواطن حجم دوره في تحقيق الهدف العام يتشجع على المساهمة في إنجاز الخطة الاقتصادية الاستثنائية.

• خطوات اقتصادية إصلاحية:

إننا في الوقت الذي ندرك فيه الحساسية البالغة للمرحلة الاقتصادية القادمة في ظل التهاوي المستمر لأسعار البترول، وأهمية مشاركة المواطنين في عملية الترشيح، وتقليص النفقات، وزيادة بعض الرسوم، ورفع أنواع من الدعم، إلا أننا نتطلع قبل ذلك إلى أن نجد الجدية والحزم في تعامل الحكومة مع الملفات الاقتصادية المختلفة ذات العلاقة، وذلك من خلال تقديمها للخطة التنموية الدقيقة والمتضمنة لسياسة تنويع مصادر الدخل، وإيقاف هدر المال العام، ومحاسبة سراقه، واسترجاع ما تم نهبه، وإطلاع المواطنين - بكل شفافية - على أهم الإنجازات والتحديات.. وحينها فقط سيشعر الأفراد أن من واجبهم الوطني المساهمة الفاعلة بالخطة الاقتصادية المتقشفة، والرضا بتبعاتها، حتى لو استدعى ذلك التنازل عن شيء من المميزات التي كانوا ينالونها، وتحملهم لبعض الأعباء المالية الإضافية.. وما ذاك إلا حباً لوطنهم، ورداً لجزء من جميله الذي يغمرهم.

لماذا خلق الله الإنسان؟

قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ «الزلزلة: ٧-٨».

لماذا خلق الله الإنسان، والمفترض أنه يعلم منذ الأزل أن مصير أكثر الناس هو النار؟

هذا الإشكال بات يُطرح بقوة على أبنائنا الشباب من قبل الملحدّين واللا دينيين بغرض التشكيك في عدالة الله وعلمه وحكمته، وبالتالي التشكيك في وجود الخالق عز وجل.

كما أنه تساؤل يطرأ على ذهن البعض تلقائياً عندما يقرأ القرآن الكريم وتواجهه آيات العذاب في الآخرة، وآيات من قبيل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ «هود: ١٧»، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ «الإسراء: ٨٩».

ومن الواضح أن الإشكال ليس متوجهاً إلى أصل الخلق بقدر ما هو متوجه إلى المصير.. ولو التزمنا منذ البداية بأن كل الناس أو أكثرهم في الجنة، لأصبح الإشكال ضعيفاً في وجهة نظر الكثيرين.

• هل الأكثرية في النار؟

يمكن الإجابة على الإشكال السابق بصور مختلفة، ومن بينها:
صحيح أن في القرآن حديث عن ضلال أكثر الناس، إلا أن القرآن لا يقول أن أكثر الناس في النار.

قد تقول: أليس ضلالهم وعدم إيمانهم يستلزم ذلك؟

الجواب: ليس بالضرورة.. فرحمته سبقت غضبه، وفي الحديث النبوي المروي عند السنة والشيعة: (إن لله عز وجل مائة رحمة، وإنه أنزل منها واحدة إلى الأرض، فقسمها بين خلقه، بها يتعاطفون ويتراحمون، وآخر تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إذا كان يوم القيامة، نشر الله تعالى رحمته حتى يطعم إبليس في رحمته).

وقيل للإمام السجاد عليه السلام: (قال الحسن البصري: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟! فقال عليه السلام: أنا أقول: ليس العجب ممن نجا كيف نجا، إنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله؟).

• حساباتنا مختلفة:

ثم لنتلفت أن حساباتنا تختلف عن الحسابات الإلهية: ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ

تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾
«الإسراء: ١٠٠». هذا فيما يخص الدنيا.

وأما الآخرة فلاحظ كيف أن الحسابات الإنسانية قد تؤدي به إلى النظرة السوداوية والضيقة للتقييم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ «البقرة: ١١١».

حتى أن أحد العلماء قال بشأن الشهداء في جيش أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه الثلاثة: (إن كانت بيعتهم على بيعة الغدير، فهم الشهداء السعداء، وإن كانت على بيعة من قبله فالأظهر عندي أنهم ليسوا بناجين)!

• أين العدالة إذا؟

قد تقول: هل هذا يعني أن الله عز وجل سيُدخل أكثر الناس في الجنة، كافرهم ومؤمنهم، الصالح والطالح؟ هذا ليس عدلاً، وأنا الذي تحملت في الدنيا لإيماني وعبادتي وطاعتي لا أرضى أن يشاركني بالجنة لم يكن كذلك.

الجواب: أولاً، للجنة مراتب والاختلاف في النعيم بينها كبير، وقد تحدث القرآن عن بعض صور الاختلاف. وقد تكون بعض هذه المراتب المتدنية معزولة تماماً، ولا علاقة لها بسائر المراتب، وليس بينها تواصل.

تخيل أنك تعيش في أجمل بقعة على الأرض في إحدى الجزر ذات

الهواء العليل، وفي أرقى الفنادق، وتمتلك رصيдаً ضخماً من المال، وحولك من تريد من أحبتك، وتتمتع بكل اللذائذ... وآخر يعيش في قارة بعيدة، في ظروف حياتية عادية، مع إمكانيات بسيطة للحياة.. ولا يدري أحدكما عن حال الآخر.. ما يضرك؟

ثانياً، قد يُعاقب الإنسان في النار على بعض ما قدّم في حياته، ثم يتحوّل إلى الجنة ليخلد فيها ما شاء الله، أو قد يموت وتنتهي حياته.

• كلمة للإمام الخميني:

ثالثاً، للإمام الخميني كلمة تستدعي التأمل، حيث أتى بمقدمتين: الأولى، أن تأثير التعليم والتلقين والبيئة في متبنيات الإنسان تصل به إلى درجة اليقين بصحة دينه أو مذهبه، ولا يحتمل الخطأ... وهذا حال أغلب الناس، ويشمل حتى من هم من طبقة العلماء.

والثانية، أن المتيقن من شيء معذور في اتباعه لهذا القطع، ولا يكون عاصياً، ولا تصح عقوبته في متابعته. ثم قال: (إن الكفار كجّهال المسلمين، منهم قاصر وهم الغالب، ومنهم مقصّر... والكفار معاقبون على الأصول والفروع، لكن مع قيام الحجة عليهم، لا مطلقاً).

قد تقول: ولماذا أتعّب نفسي إذاً بالإيمان والعبادة والطاعة، وأحرم نفسي مما تشتهي وتستلذ به؟

الجواب: قلنا أن مَنْ يعلم وقامت عليه الحجة غير معذور في المخالفة، وسُيُعَاقَب لو خالف. ثم إن المسألة ليست مجرد الفرار من النار، بل التنافس على مستويات النعيم، حتى أن الكثيرين سيتحسرون على ما فاتهم من النعيم الذي كانوا سينالونه لو أنهم بذلوا قليلاً من الجهد، ولو على مستوى الذكر اللساني.

• مصير المجرمين:

وأما المجرمون المعتدون على حق الحياة التي وهبها الله للناس، فقد قال الله تَعَالَى بشأنهم: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فقد جعل الله للحياة حُرمةً كبيرةً وغلظ العقوبة في انتهاكها، فكيف إذا كانت جريمتهم تلك قد ارتكبت في يوم عيد، في بيت الله، حيث يأمن الناس، ويجتمعون للصلاة، ويذكرون الله قياماً وقعوداً؟

هنيئاً لأبطال مسجد الإمام الرضا عليه السلام بالإحساء، الذين فدوا بأنفسهم لمنع الجريمة الكبرى التي عزم على ارتكابها أولئك المجرمون التكفيريون، خدمةً لأربابهم من الصهاينة والمستكبرين وعلماء السوء والمنافقين.. والدعاء من القلب لذويهم وأحبابهم بالصبر والثواب الجزيل، ولسائر الأرواح البريئة بالسلامة ودفع كيد وشر المعتدين عنهم.

إنا كفييناك المستهزئين

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ «الأحزاب: ٢١».

من الضروري ونحن نطالع السيرة النبوية المباركة المدونة في كتب التفسير
والتاريخ والأحاديث، أن نعرض أحداثها ومواقف النبي ﷺ وأقواله على
القرآن الكريم.

صحيح أن القرآن لا يعرض تمام السيرة وتفصيلها، إلا أنه قدّم لنا
المعايير، والأطر العامة، ومجموعة من المواقف والإرشادات الإلهية التي
يمكن من خلالها أن نحاكم الكثير من تلك الروايات.

ولو كان الإطلاع على السيرة النبوية بمثابة قراءة لقصة للتسلية ولإمضاء
الوقت لهان الأمر، إلا أن المسألة أبعد من ذلك وأخطر، فالمسلمون من
خلال هذه السيرة قد:

١- يبنون معالم شخصية النبي ﷺ، ثم يتخذونها النموذج الأمثل
لصياغة شخصياتهم.

٢- يراكمون من خلالها التجارب النبوية، مستهدين بها على مستوى التكليف الشرعي في المواقف المختلفة.

• كيف تعامل النبي مع المسيئين إليه؟

ومن القضايا التي تمس واقعنا اليوم مسألة الإساءة إلى شخص النبي الأكرم ﷺ من قِبَل بعض وسائل الإعلام الغربية، وبعض الملحدين، وأمثالهم.

فكيف كان يتعامل النبي مع مثل هذه الإساءات وفق ما جاء في كتب السيرة والحديث مقارنة بما جاء في القرآن الكريم؟ وهل ما يقوم به البعض من ردود فعل عنيفة تصل إلى حد القتل والتفجير استهزاء بسنته أم لا؟ ولو فرضنا الإيجاب، فهل نتجاهل العناوين الثانوية، من قبيل تأكيدنا للصورة المشوهة التي يقدمونها عن نبي الرحمة بأنه نبي الذبح وأن دينه ما انتصر إلا بالسيف؟ ألن تكون هذه العناوين الثانوية حاكمة عليها حينذاك؟

عندما نعود إلى القرآن سنجد أن الله عز وجل أرشد نبيه إلى التعامل مع مَنْ سبّوه وأسأؤوا إليه بالسخرية والاتهامات الباطلة والأوصاف المهينة من قبيل «السحر، الكذب، الافتراء على الله، الجنون، وغيرها مما نقله عنهم القرآن بذاته» سواء أكانوا من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب كالتالي:

بالنسبة إلى المشركين: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: ١٠). هذا هو ملخص الموقف.. لا أمر بقتل ولا مواجهة بعنف.

• صاحب القلب الكبير:

ولا تتصور أنه كان يتمنى إهلاكهم بعد كل إساءاتهم له، فقلبه الكبير كان يدفعه إلى أن يدعو لهم بالهداية ويبرّر لهم أنهم لا يعلمون! وفي موقف يخبره جبريل عليه السلام أن الملك الموكل بالجبال يقول: (إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين) اسم لجبلين.. فبم أجاب؟ قال: (بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً).

قد يقال أن المشركين كانوا أقوياء في مكة والنبي بينهم، ولذا أمر بذلك، وأن الأمر اختلف لاحقاً.. ولكن هذا الكلام مردود عليه، بموقفه من أساء إليه بالقول من المنافقين وأهل الكتاب وهم تحت سلطانه في المدينة.

بالنسبة إلى المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ (التوبة: ٦١)، أي أن النبي لا يفكر وساذج ويصدق كل ما يقال له.. هذا في السنة التاسعة للهجرة، والنبي في قمة قوته، والمتحدثون تحت سلطانه.. فما الرد؟ ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.. هذا هو الرد، هو رحمة وهدى عندما يستمع إليكم ويجاريكم.

وفي موقف آخر: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ (المنافقون: ٨)، هذا قول ابن سلول حتى تجرأ وقال: (سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ). ويأتي ابنه عبد الله يطلب الإذن بقتله، ويرفض النبي رفضاً قاطعاً. وعندما يحتضر هذا المنافق يبعث في طلب النبي، ويستجيب له، فكلمه النبي ولا ممة قائلاً: (أَهْلَكَكَ حُبُّ الْيَهُودِ)، فقال: (قد فهمتُ ما تقول، فامْنُ عَلَيَّ فكفني في قميصك وصل عليّ، ففعل).

• إساءات أهل الكتاب:

وبالنسبة إلى أهل الكتاب: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦). أي إن بينكم وبين أهل الكتاب عهد، لا تنقضوه لمجرد صدور مثل هذه الإساءات الكلامية في أجواء غزوة أحد التي خسر فيها المسلمون المعركة وشعروا معها بالضعف وكانت الفرصة لليهود كي نفسوا عن شيء من أحقادهم.

ولو نعود إلى الآيات السابقة لها سنجد بعضاً من مضامين إساءاتهم الموجهة إلى الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)، وإلى النبي: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٨٤).

فما هو الموقف منهم؟ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

اصبروا على هذا الأذى، واتقوا الله ولا تنقضوا الميثاق بينكم وبينهم.. اتقوا الله ولا تردوا عليهم بالسيف وأنتم على ذلك قادرين.

في نفس السورة: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ هذا الكلام القبيح والجرح والإثارات المسيئة لن تتجاوز الأذى النفسي والاعتباري بحقكم، فليس المطلوب الرد بالعنف.. نعم: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ (١١٠-١١١)، وهنا اختلفت المسألة.

القاعدة إذاً: لا تنتقم يا رسول الله من هذه الإساءات الكلامية، ولا تواجهها بالعنف، قتلاً كان أم دون ذلك، ودع الأمر لي: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٥). وعليك بالقاعدة الأخلاقية: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

نعم، لو وصل الأمر أن يغزوك ويسعوا إلى القضاء عليك، وعلى أنصارك، ودينك، فهذا شيء آخر، ولا بد من الدفاع عن النفس، ورد كيد المعتدين. ولذا لم يغز النبي أية غزوة ابتداء، بل كانت كلها دفاعية، أو ردّاً لعدوان، أو مواجهةً لنقض عهد، ومواثيق صلح وأمان.

• ضياع صورة الإسلام:

إن الأوضاع المساوية التي يمرّ بها المسلمون، وتعالى صوت التكفيريين،



وتنامي قوتهم، وغلبة صورتهم المتوحشة على الصورة الحقيقية للإسلام، وإن باتت تمثّل تحدياً كبيراً على الصعيد الفكري والأخلاقي والإنساني والأمني، إلا أنها في ذات الوقت أصبحت الفرصة المواتية لفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم لكي يعيدوا التفكير في اجتهاداتهم الخاصة بمثل هذه القضايا التي ما عادت بحوثاً نظريةً، بل ترتعن بها صورة الإسلام التي اهتزّت كثيراً، لا عند غير المسلمين فحسب، بل قَبْلَ ذلك في نفوس أبنائه الذين غدّوا بحاجة إلى مَنْ ينتشلهم من حول الشك والإلحاد واللا دينية، بالدليل والحجة، لا بالخطاب العاطفي الذي يسهّل نقضه.. وأدعي جازماً أن العودة إلى القرآن الكريم وجعله - بحق لا ادعاءً - المصدر الأول للتشريع، ولمعرفة مفردات الإيمان والفكر الإسلامي والأخلاق والسيرة، هو السبيل للوصول إلى النتيجة المطلوبة.

بين الأحاديث الصحيحة ومرجعية القرآن

ذكرت في الأسبوع الماضي أن من الضروري أن نعرض ما وصل إلينا من السيرة النبوية على القرآن الكريم لتقييمها.

والحقيقة أن الأحاديث المتعلقة بالسيرة النبوية ليست الوحيدة التي تحتاج إلى مثل هذا الإجراء المهم، بل ما روي عن النبي ﷺ وعترته عليهم السلام في كل المجالات، بما في ذلك ما يخص تفسير القرآن، فقد نجد أحياناً بعض أحاديث التفسير تحاول أن تحرف معنى الآية وتتلاعب به بشكل واضح، مما يؤكد أنها لم تصدر عنهم عليهم السلام.

وهذا ما دل عليه قول النبي وقول الأئمة من أهل بيته في أكثر من مورد، من قبيل ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: (إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً) أي أن ما يدلك على الحق والصواب موجود، فاسع إليه، وما هو إلا القرآن: (فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه).

وعنه عليه السلام أنه قال: (خطب النبي ﷺ بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم

عني يوافقُ كتابَ الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتابَ الله فلم أقله). وبالتالي فقد أصبح المعيار الأساس في تقييم الأحاديث التي وصلتنا أمراً واضحاً ومحددًا، وهذا جانب حيوي ورئيس من مفهوم مرجعية القرآن الكريم في تكوين فكرنا الإسلامي وثقافتنا الدينية.

• الاكتفاء بالتحقيق السندي:

قد يقال أن صحة أسانيد الأحاديث تُغنينا عن ذلك، فنحن نعلم أن للحديث سند ومَتْن، فالسند عبارة عن رواية الحديث، والمتن هو مضمون الحديث، ولكي نقيّم الحديث فلنفحص السند، فإن كان السند تاماً والرواية ثقة، اعتبرنا أن الحديث صادر عن النبي أو الإمام.

إلا أن هذا الكلام غير تام.. ولكي أختصر الأمر أضع بين أيديكم الحديث التالي الذي يُعتبر صحيحاً من حيث السند بحسب المعايير العلمية المعتمدة، ولننظر هل يمكن تصوّر صدوره عن النبي أو الإمام؟

المثال الأول: في الكافي عن أبان بن تغلب، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت) أي سمكة (قلت: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء. قلت: الماء على أي شيء هو؟ قال: على الصخرة، قلت: فالصخرة على أي شيء هي؟ قال: على قرن ثور أملس. قلت: فعلى أي شيء الثور؟ قال: على الثرى) التراب (قلت: فعلى أي شيء الثرى؟ فقال: هيهات! عند ذلك ضل علم العلماء).



هذا المضمون ورد في عدة من كتب السنة والشيعة من قبيل كتاب العلل لأحمد بن حنبل، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، وعلل الشرائع للشيخ الصدوق. وقد انبرى بعض علمائنا - كالسيد المرتضى والشيخ المفيد - منذ قرابة الألف سنة، وقبل الاكتشافات العلمية الحديثة لرفض مثل هذا الحديث وإن صح سنده.

والطريف عندما تحاول أن تعرف مصدر هذا التصور الطفولي للأرض، تجد أن كل شعب يعكس بيئته في ذلك، فالهنود كانوا يتصورون أن الأرض على صفيحة فضية، محمولة على ظهور مجموعة من الفيلة.. بينما في اليابان تصوروا الأرض على ظهر سمكة كبيرة.. وفي بعض المجتمعات

الشرقية على قرن ثور، وأن الزلازل تحدث نتيجة حركة هذه الحيوانات أو انتقال الأرض من قرن إلى آخر! ومن وضع الحديث السابق على لسان الصادق عليه السلام جمع أكثر من ثقافة وأراح نفسه.

بالطبع البعض يحاول تصحيح المضمون تمسكاً برمزيتة، ولكننا عندما نعود إلى القرآن سنجد أنه يقدم مثل هذه الصورة العلمية الرائعة: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «النحل: ١٥»، وهو يستعمل كلمة الأرض في ٤٤٤ مورداً، خلت من التصاویر الساذجة الواردة في مثل ذلك الحديث.

والمفارقة أن بعض أهل السنة لمز الشيعة لأنهم رَوَوْا هذا الحديث، وبعض الشيعة لمزوا أهل السنة لأن هذا الحديث مدوّن في بعض صحاحهم.. «ورد الخبر ١٣ مرة في مصادر الشيعة و ٩ مرات في مصادر السنة».

• الشيطان شريك النطفة:

المثال الآخر لخبر صحيح السند ولا يمكن قبول مضمونه، بل أمتنع عن قراءة نصه وأكتفي بعرض فكرته، احتراماً للسامعين وإجلالاً للإمام الصادق عليه السلام الذي نسب إليه الخبر زوراً، ما جاء في الكافي أن الرجل إذا قارب زوجته ولم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في العملية، ولو حملت كان الطفل نتاج ذلك!

وفي تفسير القرطبي عند أهل السنة أن تفسير قوله عز وجل مخاطباً إبليس

اللعين: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ «الإسراء: ٦٤» هو المعنى الذي ذكرناه في الخبر المنسوب للإمام الصادق عليه السلام!

وأمثال هذه الروايات الصحيحة من حيث السند والمرفوضة من حيث المضمون كثيرة، فكيف تكون كذلك؟

• ما وراء وضع الحديث:

الأسباب متعددة، ومنها ما جاء في قول يونس بن عبد الرحمن إذ سئل: (يا أبا محمد، ما أشدك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على رد الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد ﷺ، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله عز وجل، وقال رسول الله ﷺ. قال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام، وقال لي: إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام. لعن الله أبا الخطاب. وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث

إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإنّا إن تحدّثنا حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة).

• التحدي الثقافي الكبير:

إننا اليوم أمام تحدّ ثقافي كبير يمسّ إيمان شبابنا بحقّانية الإسلام وارتباطه بالسماء، ويتعرّض بالتشكيك والتوهين لمنابع الفكر الإسلامي والثقافة الدينية، الأمر الذي يُحمّل العلماء والمفكرين المسلمين المزيد من المسؤولية تجاه هذا التحدي القديم، المنطلق من جديد بزخم كبير اعتماداً على الانفتاح المعلوماتي الهائل الذي يشهده عصرنا، ويلزمهم التعامل معه تعاملًا جدياً وب عقلية معاصرة، تمزج الثقافة الإسلامية بالعلم الحديث، لأننا نؤمن إيماناً عميقاً أن الدين الخالص من التأثير البشري لا يمكن أن يتعارض وما ثبّت بالعلم القاطع.. فالدين من عند الله، والوجود بكل تفاصيله وقوانينه هو من خلق الله.

ومع اعتماد القرآن الكريم مرجعاً أصيلاً في تنقية التراث الحديثي - دون الاكتفاء بتصحيح أسانيده - نكون قد خطونا خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح نحو تقديم الإسلام - لأبنائنا وللآخرين - نقياً مما علّق به من الشوائب التي مزجت فيه الخرافة بالحقيقة، والباطل بالحق. (إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه).. النبي الأكرم ﷺ.

عندما تضيي الأوطان

٥

جاء في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين عليه السلام: (واحدروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم..... فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين؟ فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غصارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين).

قيل: (تعرف الأشياء بأضدادها)، فالإنسان لا يعرف معنى النور لولا الظلام، ولا يعرف معنى الطمأنينة والأمن لولا الخوف. إلا أن إدراك قيمة الشيء ليس بالضرورة أن يتحقق من خلال فقدانه وضياعه، وهذا ما وجه إليه الإمام علي عليه السلام في المقطع السابق، حيث أن دراسة التاريخ بوعي كفيلة بأن توصل الإنسان إلى نتائج ملموسة تحاكي واقعه المعاصر.



ومن خلال هذه النتائج يُفترض به أن يتخذ التدابير الكفيلة بتجنب تكرار ذات السيناريو لضياع الأوطان.

• كابوس الغزو الصّدّامي :

ولكن على كل حال فإن لأبناء الكويت نوعاً من الامتياز في هذا الشأن، فهم قد عاشوا فعلاً تجربة مريرة تمثلت في ضياع وفقدان الوطن بدخول الغزاة الصّدّامين واحتلالهم الكويت في الثاني من أغسطس من عام ١٩٩٠، وادعاء عودة الفرع إلى الأصل، وإطلاق عنوان المحافظة التاسعة عشرة على الكويت، وسائر الإجراءات الأمنية والسياسية والإدارية التي اتخذت على هذا الصعيد. والحمد لله وله المنّة أن هذه التجربة لم تستمر كثيراً، وزال كابوسها في غضون أشهر.

وبالتالي فإنه إضافة إلى الجانب النظري في دراسة التاريخ وعوامل نهوض ودمار المجتمعات، نمتلك نحن تجربة عملية فريدة من نوعها، وأدرك من خلالها كثير من أبناء الكويت - في حينها - قيمة الوطن وأهميته. وفقدان الوطن من أكبر المآسي التي يتعرض لها الإنسان، لأن الوطن في ضمير الفرد هو الأمن والأمان.

• قد يضيق الوطن :

في القرآن الكريم حديث ثناء ومدح لـ «الذين هاجروا» متكرر ٩ مرات، كقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «النحل: ١١٠».

أي أن الهجرة المبررة لها هذه القيمة العظمى عند الله، لما للكون في الوطن من قيمة كبرى في نفس الإنسان. فليس من البساطة أن يخلع الإنسان نفسه من وطنه فيهاجر، إذ أن للوطن من حضور قوي في مشاعر الإنسان وعقله وأمنه ورزقه وعلاقاته وذاكراته وغير ذلك. وليس بالضرورة أن يكون فقدان الوطن بوقوع احتلال وزوال هويته بذلك.. أو بأن يهاجر الإنسان أو يهجر من وطنه مرغماً.. فقد يضيق الوطن دون ذلك...

قد يضيق الوطن حين لا يبقى من أسس كينونته إلا القليل.. الأسس التي تشكّل من خلالها ليكون وطناً للجميع، دون تمييز في الانتماءات الأسرية والقبلية والطائفية.

قد يضيع الوطن حين يستحكم التباغض، وتكون الإحن والصراعات التي تخدم مصالح المتنفيين والمتحزبين هي العنوان الأبرز في العلاقات بين أبنائه، بدلاً من التراحم والتعاقد والتكامل.

قد يضيع الوطن حين تُدار أموره على البركة وردود الأفعال واتكاء على الوفرة المالية، وليس من خلال خطط ورؤى مستقبلية وعلمية مدروسة.

قد يضيع الوطن حين يغيب النقد الحقيقي البناء، لينحصر في النقد الصوري الهزيل الذي لا يعالج جذور الخلل، بقدر ما يسطح المشاكل الخطيرة التي تنخر في البناء الذي سعى الآباء لإقامته مستحكماً وقوياً.

قد يضيع الوطن حين يُسمح لذوي الأطماع الدنيئة ولصوص المال العام أن ينهبوا ثرواته، ولا همّ لهم سوى مراكمة المال الحرام، دون أن يجدوا رادعاً حقيقياً وحازماً، يعيد تلك الأموال المنهوبة إلى مواضعها، ويحاسبوا على جرائمهم الكبرى بحق الوطن والمواطن.

قد يضيع الوطن حين تكون الترضيات والمساومات وشراء الضمائر ومالأة السياسيين هي العنوان الأبرز في توزيع المناصب المهمة التي يعتمد عليها الوطن في ازدهاره.

قد يضيع الوطن حين يغلب الفردُ مصلحته الشخصية على المصلحة العامة، ويعيش كامل الأنانية طلباً للراحة وسعيّاً وراء الوظائف الوهمية، وبحثاً عن كل وسيلة ممكنة للهروب من مسؤوليات موقعه الوظيفي



ومفضلاً الاسترخاء على العطاء، والتنزه على العمل، ثم يكافأ بعدها،
ويُحرم منها المجدّ.

• أعيادنا ليست لمجرد الترفيه:

فلتكن أعيادنا الوطنية - في أجنداث المسؤولين والمواطنين على حد
سواء - أكبر من مجرد إجازة ترفيهية يقضونها في هذا البلد أو ذاك.. وأبعدَ
غوراً من مظاهر التزيين وإقامة الاحتفالات.. وأعمق قراءةً من الخطابات
العاطفية والكلمات الحماسية.. ولسنا ضد ذلك.. ولكننا نريد أيضاً أن
تكون هذه الأعياد محطاتٍ لتقييم الواقع ضمن مخاضات الظروف المحلية
والإقليمية والدولية التي تزداد تعقيداً، وتشتد معها التحذيرات من انهيار
الاقتصاد العالمي، وترتفع معها صور المعاناة الإنسانية، وتقوى من خلالها
احتمالات اتساع رقعة الحروب وتطايّر شرّرها إلى مديات أكبر.

لماذا لم يبلغ الإسلام نظام الرق؟

٦

جاء في وصية علي عليه السلام وهو على فراش الموت: (الله الله في النساء وما ملكت أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: أوصيكم بالضعيفين، نسائكم وما ملكت أيمانكم).

من الإشكالات التي باتت تُطرح مجدداً - وبقوة - من قبل الملاحدة الجدد: موقف الإسلام من الرق.. لا سيما بلحاظ الممارسات الوحشية واللاإنسانية التي يقوم بها التكفيريون في هذا الإطار.

وباختصار يقولون: إذا كان الإسلام قد كرم الإنسان - فعلاً - فلماذا لم يبلغ نظام الرق؟ والجواب في نقاط:

١. لم يؤسس الإسلام لنظام الرق والعبودية، بل نزلت الرسالة الإسلامية ونظام الرق معمول به قبل ذلك بآلاف السنين، وهو نظام كانت تعتمد عليه المجتمعات البشرية، وله أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والأمنية.

«وول ديورانت» في موسوعته «قصة الحضارة» اعتبر أن ظهور نظام الرق

كان بمثابة «تقدم أخلاقي عظيم» للبشرية، ففي حين اتجه الإنسان إلى الزراعة واحتاج إلى اليد العاملة الرخيصة أو المجانية، استعاض عن قتل العدو المحارب، بالإبقاء على حياته أسيراً ليصبح يداً عاملة شبه مجانية، مع الحفاظ على شيء من كرامته.

وبمرور الزمان غدا العبد كالألة أو الحيوان مسلوب الإرادة، حتى كان مقبولاً أن يُلقى العبد في حلبة المصارعة مع مجموعة من الأسود ليقاتلها وتنهشه، كنوع من أنواع الترفيه والترويح على النفس!

وكان يُنظر إلى نظام العبودية على أنه نظام فطري طبيعي لا غنى عنه، حتى في التصور الإفلاطوني للمدينة الفاضلة، حيث قضى بحرمان الرقيق حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة، وإلا فالعقوبة.

واعتبر أرسطو أن فريقاً من الناس مخلوقين للعبودية؛ فهم كالألات التي يتصرف فيها ذوو الفكر والمشئمة.

وتوسّع في موارد العبودية، فلم تتوقف المجتمعات عند حد أسرى الحروب، بل صار اختطاف الأحرار مورداً آخر، وهكذا سُمح للحر أن يحوّل نفسه أو بعض أهله إلى عبيد في المقامرات الخاسرة، أو أن يبيعهم في حالات الفقر الشديد، أو في مقابل ديونه، أو تُفرض كنوع من العقوبة في حالة السرقة أو القتل.. وغير ذلك.

ضمن هذا الوضع أصبح نظام الرقيق عاملاً اقتصادياً واجتماعياً

حيوياً، حتى أن إحصائية أجريت عام ٣١٧ ق.م. لمنطقة «أتيكا» التي كانت تشمل أثينا الحالية في اليونان، قَدَّرت أن تعداد سكانها «٢١,٠٠٠» والغرباء «١٠,٠٠٠»، والعبيد «٤٠٠,٠٠٠».

• إجراءات ونقله نوعية:

٢- وبعثة النبي ﷺ، جاء الإسلام بمجموعة من التعاليم التشريعية والأخلاقية التي حققت نقلة نوعية على مستوى التعامل مع هذا النظام... وهي كالتالي:

أ. ألغى الإسلام أكثر صورة الاسترقاق، وأبقى على صورة الاسترقاق في الحروب. فلا يجوز بيع النفس ولا الأبناء ولا الزوجة ولا المراهنة عليهم، وألغاهما كنوع من القصاص وعقوبات الجرائم .. إلخ. ولذا في مجال الديون مثلاً: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ «البقرة: ٢٨٠» فلا استرقاق ناتج عن العجز.

ب - ارتقى بأسلوب التعامل مع الرقيق واعتبر الإحسان إليهم فرع التزامنا بالتوحيد: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿... وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ «النساء: ٣٦».

وفي الآية ٢٥ من سورة النساء جواز الزواج بالأمة المسلمة، ووجوب إعطائها المهر، وهو ما كان غير ممكن أو كان معيباً، بل عاب عبد الملك ابن مروان الإمام زين العابدين عليه السلام حين تزوج أمته المحررة، ففي الكافي:

(كتب عبد الملك إلى علي بن الحسين عليه السلام أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك وقد علمت أنه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر وتستنجبه في الولد فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك أبقيت والسلام فكتب إليه علي بن الحسين عليه السلام: أما بعد فقد بلغني كتابك تعنفني بتزويجي مولاتي وترغم أنه كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر واستنجبه في الولد وأنه ليس فوق رسول الله صلّى الله عليه مرتقياً في مجد ولا مستزاد في كرم وإنما كانت ملك يميني خرجت مني، أراد الله عز وجل مني بأمر ألتمس به ثوابه، ثم ارتجعتها على سنته. ومن كان زكياً في دين الله فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسية، وتم به النقيصة، وأذهب اللؤم، فلا لؤم على امرء مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية والسلام. فلما قرأ الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان فقرأه فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين! فقال: يا بني لا تقل ذلك، فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتعرف من بحر. إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس).

وعملت الآية جواز ذلك بقوله: **﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**. أي أن الإيمان يتحول إلى رابطة تتساوى فيها الإنسانية، وإذا كانت للرق أحكام خاصة، فهي ناشئة عن الجانب الخارجي القانوني لا الإنساني.

وفي عدة أحاديث نبوية توصيات في هذا الإطار من قبيل: (أرقاؤكم إخوانكم).. (عن جابر: كان النبي صلّى الله عليه يوصي بالمملوكين خيراً ويقول:



أطعموهم مما تاكلون).. (أطعموهم مما تَظعمون، وألبسوهم مما تلبسون)..
وحتى على مستوى التسمية: (لا يُقْل أحدكم: هذا عبدي، وهذه أمتي،
وليقل فتاي وفتاتي). وسئل الإمام علي الرضا عليه السلام: (في مملوك يعصي
صاحبه، أيحل ضربه أم لا؟ فقال: لا يحل، إن وافقك فأمسكه، وإلا فخل
عنه).

وقد نتج عن هذا ظهور قامات علمية من بينهم، وقيادات سياسية
وعسكرية وأطباء ووزراء ورجال أعمال كبار، بل وتأسست دولة كدولة
الماليك حكامها منهم، وهذا ما لا يمكن تصوره لولا هذه التعاليم الراقية.

ج - الأمر بالتحريم وجوباً تعينياً أو تخييرياً، ومن صور ذلك ما جاء في
قوله عز وجل: ﴿مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢) بعد أن
كان القاتل يتحول إلى عبد أحياناً، أصبح الفكاك من هذا الخطأ حرية

أحد العبيد، وهكذا في الظهار وكفارة اليمين والإفطار العمدي .. إلخ .

د - التشجيع على التحرير استحباً، ومن صور ذلك ما جاء في قول الله عز وجل في سورة البلد المكية: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ) «البلد: ١١-١٣»، وعن الباقر عليه السلام: (من ضرب مملوكاً حداً من الحدود من غير حدٍّ أوجبه المملوك على نفسه، لم يكن لضاربه كفارة إلا عتقه) والنصوص كثيرة جداً.

هـ - وضع تشريعات مساعدة على التحرير من قبيل «المكاتبة»: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ «النور: ٣٣»، وهذا النظام يقتضي التوافق على التحرر من خلال دفع الرقيق ثمن حريتهم، ثم مساعدتهم مالياً من خلال مال الزكاة مثلاً ليستعينوا به في المكاتبة وبناء حياته بعد التحرر ومن قبيل تشريع «أم الولد» حيث لا يجوز بيعها ولا هبتها وتتححر بعد موته.

و - الاسترقاق لم يكن هدفاً في حروب النبي، ولذا نجده ﷺ في غزوة حنين يقول - وقد أصبح تحت يديه ستة آلاف من سبي النساء والأطفال - حين جاءه وفد هوازن مسلمين تائبين من عدوانهم: (أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإنني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبتنا ذلك لرسول الله ﷺ

لهم، فقال رسول الله ﷺ: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا).

• السؤال الأصعب:

٣- ويبقى السؤال: لماذا لم يتم إلغاء هذا النظام في الإسلام نهائياً؟

لم يكن من صلاح المجتمع في عهد نزول الشريعة الإسلامية أن يتم إلغاء نظام العبودية، لأن النظام الاقتصادي كان سينهار مع اتخاذ مثل هذا التدبير دفعة واحدة، ويضرب على ذلك مثال معاصر بأن نتخيل صدور قرار بترحيل ومنع كافة العمالة الوافدة في البلد.. فهل لك أن تتخيل تبعات ذلك؟ والمجتمع الأمريكي لم يستطع إلغاءه إلا بعد التحول من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي الحديث.

٤- ولكن البعض يطرح إشكالية عدم وضع سقف زمني في الإسلام لإلغاء العبودية، بحيث تكون الإجراءات والتشريعات قد قضت على ظاهرة الرق خلال تلك المدة.. وهذا ما لم يحصل.. أي أن الإسلام يريد العبودية.

لا، الإسلام لا يريد العبودية ولا يحبذها، ولكنه - في نفس الوقت - يتعامل مع هذا الموضوع بواقعية، فالمجتمع المسلم آنذاك لم يكن المجتمع الوحيد على الكرة الأرضية، وهو مجتمع متفاعل اقتصادياً واجتماعياً وأمنياً وثقافياً مع سائر المجتمعات الإنسانية، واتخاذ خطوة من هذا القبيل ليس بالتصرف

الواقعي ما لم تنضج البشرية لترفض العبودية حيثما كانت.

ولذا ترك الإسلام هذا الأمر لتطور الرؤية البشرية في هذا الإطار، ومتى ما استقرت على رفض العبودية، ساهم في إنجاح ذلك، وأغلق موارد الاستعباد، بعد أن عمل من قبل التخفيف منها وارتقى في التعامل معها. ومن هنا، فإنه مع توقف المجتمعات البشرية غير المسلمة في هذا العصر عن الاسترقاق في أجواء الحروب، فلا محل لقيام المسلمين باسترقاق نساء وذرية المحاربين غير المسلمين.

• همجية التكفيريين:

وأما ما يقوم به التكفيريون في هذا الزمان من عمليات استرقاق وفتح أسواق النخاسة، فهو عمل باطل ومرفوض ومعيّب بحق الإسلام، ولو كان هؤلاء الجهلة يملكون قليلاً من العلم الشرعي، لأدركوا أن ما يقومون به باسم الإسلام وتطبيق شريعته ليس سوى همجية نابعة من لهائهم وراء شهواتهم ومفاسدهم، حتى فاقوا بأفعالهم المغول الذين تُضرب بوحشيتهم الأمثال، هذا فضلاً عن كون جرائمهم تلك مقصودة من قبل بعضهم للإساءة إلى الإسلام خدمةً لأسيادهم في الجهات الاستكبارية والمخابراتية الدولية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

كل الزمن لله، بل كل الوجود لله، إلا أن نسبة الأيام إلى الله في الآية السابقة ذات دلالة خاصة... فعندما تكون معلماً وتؤشّر إلى طالب محدد وتقول: «هذا تلميذي» فأنت تريد أن تبيّن تميّز هذا الطالب لخصوصية ما فيه، على الرغم من أن زملاءه تلاميذك أيضاً، وما ذاك إلا لتجليّ تربيتك وتعليمك من خلاله.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى كلمة «أيّام الله»، فهي الأزمنة التي تتميّز بتدبير إلهي خاص وجليّ، له علاقة بالنعم، أو بالنقم، أو بغير ذلك. فهي مظاهر قدرته وسطوته ورحمته وعذابه في تاريخ الأزمنة السابقة.

ونسبة «الأيام» إلى «الله» في الآية لحث الناس على التفكير بالارتباط بالله من أقرب طريق، بنشدان رضاه ورحمته، والخوف من سخطه وعقابه، والالتزام بالمنهج الذي يريدون أن يسيروا عليه.

• لماذا التذكير؟

وهدف التذكير هنا لا يقتصر على الجانب الاحتفالي كما هو مشهود بالنسبة إلى بعض المجتمعات، حتى الإسلامية منها، حيث لا تعود المناسبة أكثر من فرصة للترفيه وإقامة المعارض وأمثال ذلك، وتغيب معها القضية الحقيقية والدروس والعبر والبحث في طرق الوقاية ومعالجة الأخطاء.

كما لا يقتصر هدف التذكير في الأحداث ذات البعد المساوي على إثارة الأحران والاستغراق فيها، والبكاء على الماضي وآلامه، ليغيب الوعي في أعماق العاطفة المجردة.

ولذا اختتمت الآية بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالات وعبر ودروس ومواعظ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فالبلاء يحتاج إلى صبر، لا على مستوى ترديد «إنا لله وإنا إليه راجعون» وكفى، أو بالاستسلام للأوضاع السلبية الناتجة عن ذلك البلاء.

كما أن النعمة تحتاج إلى الشكر الذي لا يقتصر على مقولة «الحمد لله» بينما لا يثُل سلوك قائلها أي تعبير عن الشكر الحقيقي.

ومن هنا نفهم الطاقة الكبيرة التي يبثها التذكير الواعي بتلك الأحداث، كما في حرصنا على إقامة مراسم عاشوراء في كل عام، حين يكون

استحضاراً واعياً للمناسبة، نُطلق من خلالها مفاهيم العزة، والكرامة، والإخلاص لله، والتضحية من أجل القضية التي نؤمن بها.

ومن لا يريد لك الخير، فإنه يسعى دائماً إلى تغييب تلك الأحداث عن ذاكرتك، أو إلى تميمها بتغييب وعيها، وحصرها في الجوانب الاحتفالية والعزائية والشكلية.

• هل التطبيع مسألة وقت؟

ومن هنا ندرك كيف يسعى المخلصون للإسلام - من جهة - للإبقاء على القضية الفلسطينية حاضرة في ذاكرتنا، وكيف يعمل الآخرون من أجل أن ننسى، حتى بات بعض المسؤولين الإسرائيليين يتحدثون مؤخراً عن أن مسألة التطبيع مع الدول العربية باتت مسألة وقت.

نعم، إنهم يراهنون على محو ذاكرتنا، أو تميمها، وهذا يجعل من مسؤوليتنا في مواجهة العدوان الصهيوني المستمر باغتصاب الأرض، وتشريد أهلها، وقتل الأبرياء، والتآمر الدائم على أمتنا الإسلامية، أن نبقي القضية الفلسطينية والعدوان الصهيوني أمراً حياً وحاضراً في الذاكرة وعن وعي.

• ذاكرة اليهود حية:

اليهود على مر آلاف السنين ما زالوا يعيشون ويحيون ذكرياتهم،

والأحداث المفرحة والمحزنة التي مرّت عليهم، فهذا عيدٌ يستمر أسبوعاً يحيون فيه ذكرى الخروج من مصر، وعيد آخر لذكرى سفرهم في الصحراء، ويومٌ صيام حزنًا على حصارهم في القدس، ويوم آخر حداداً على خراب الهيكل، وغير ذلك.

كل هذا كي لا ينسوا.. كي تبقى قضاياهم التي يؤمنون بها ومرت عليها آلاف السنوات حيةً في ذاكرة الأجيال، فاعلةً في مشاريعهم، دافعةً لإنجازاتهم.. وأما نحن، فيريدون لنا أن ننسى ما جرى قبل ستين سنة!

• لا تملّوا:

إنَّ الحفاظَ على قضيةٍ ما - كالقضية الفلسطينية - حاضرةٌ في الوعي، مسؤوليةٌ كبرى، وتحدُّ صعب، لأنَّ مَعول الزمن كفيلٌ بأنَّ يحو ذاكرة الشعوب.. كما أنَّ أعداء أمتنا، ومَن تتعارض مصالحهم الشخصية والسياسية والاستبدادية مع مصالحها، لن يتوانوا في أن يتحالفوا مع الزمن ليُمعنوا في محو ذاكرة الأمة، وفي تضييع حقوقها، وإخفاء الحقائق ولتميع القضايا. فلا تملّوا، ولا تستسلموا، ولا تركنوا إلى الباطل، ولا تتأقلوا استحضار الأحداث مهما كانت مؤلمة، لأننا نريد ألاّ منا أن تكون ألاماً دافعة إلى التفكير والتخطيط والعمل لخلاص المظلومين، والمضطهدين، والمستضعفين، لا الألام التي نجتُر فيها أحزاننا لتأخذنا إلى هاوية العذابات وجلد الذات.

الخصومة في الدين

٨



عن علي بن يقطين قال : (قال أبو الحسن عليه السلام: مُرْ أَصْحَابَكَ أَنْ يَكْفُوا مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ، وَيَدْعُوا الْخُصُومَةَ فِي الدِّينِ، وَيَجْتَهِدُوا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ).

الخصومة: تعني الجدل والنزاع الكلامي.. وهو سلوك بشري طبيعي ومتوقع في ظل تعارض المصالح بين الناس، وتباين آرائهم، وحب الذات، والرغبة في الانتصار لها، وغير ذلك.

ولكنه عندما يتحول إلى سلوك متكرر، أو يتحول إلى عنف جسدي مثلاً، أو عندما يتعلق بخصوصية معينة فإنه يغدو سلوكاً منهياً عنه بشدة. ولذا روي: (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمَ) أي شديد الخصومة.

• نهى شديد:

ومن الموارد التي ورد فيها النهي الشديد والمتكرر فيما له علاقة بالخصومة، هو الخصومة في الدين، كما جاء في حديث ابن يقطين عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام والصادر بصيغة الأمر مع التعميم: (مُرَّ أَصْحَابَكَ).

فما خصوصية الخصومة في الدين - في الداخل المذهبي أو في ما بين المذاهب - لينهى عنه بهذه الصورة؟

• قداسة الخصومة وخطر العنف:

١- الدين في جانبه الفكري والإيماني والتشريعي والأخلاقي والسلوكي يهدف - فيما يهدف إليه - لتوحيد الصف وتحقيق القوة والتماسك المجتمعي.. وغير خاف أن النزاع الكلامي في حد ذاته من أسباب احتقان المشاعر السلبية في النفوس، والذي يؤدي بالتالي إلى إضعاف العلاقات البينية.. وهذا يعارض الغاية السابقة.

فما بالك لو تطوّر النزاع اللفظي إلى مواقف عدائية، أو عنف جسدي أو خلق كيانات متصارعة وأمثال ذلك؟ مع ملاحظة أن للدين قداسة في

نفوس المتدينين، وبالتالي فإن الخصومة فيه تُكسب النزاع - عند كل طرف - صبغة القداسة، والتكليف الشرعي، وما إلى ذلك من تصورات وعناوين وشعارات قد يكون بعضها حسناً في ذاته، ولكنه في واقعه من تسويلات الشيطان، وبتعبير أمير المؤمنين عليه السلام: (كلمة حق يُراد بها باطل).

وعندما يكتسب النزاع صفة القداسة والتكليف الشرعي، فإن الخصومة تغدو في أشد صورها، ومن أوسع الأبواب التي ينفذ منها الشيطان... شيطان الجن، وشيطان الإنس، كالمستكبرين، ليدمروا أوضاع المؤمنين، وليُفرغوا المجتمع الإسلامي من أهم عناصر قوته. قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

• استنساخ العقول:

٢- ثم لاحظ أن طبيعة الإنسان التفكير والاجتهاد في الرأي، ولا يمكن استنساخ العقول.. مهما تقاربت الرؤى، ومهما تماثلنا في تفسير الأمور، لا بد من حدوث اختلاف في الفهم والتطبيق والأذواق والعمق، حتى في تفاصيل فهمنا للدين وتفسير نصوصه، وإلا لما كان هناك اجتهاد في تفسير القرآن وفي الفقه والمفاهيم.. إلخ.

وبالتالي فالتباين بيننا - كمتدينين - في دائرة ما نقبله وما لا نقبله، في ما نتبناه وفي ما لا نتبناه، ضمن ما نفتنح به من حجج وأدلة، أمر طبيعي يجب أن نتقبله، ولا نحوله إلى مادة للنزاع والصراع. ولم يعين الله أحداً منا

ليكون ناطقاً باسمه، أو لتكون له السيادة من قبله في إجبار الناس على ما يقبلون أو يرفضون من أفكار ومفاهيم وتفسير ذات علاقة بالدين.. كل ما هنالك أن علينا التبليغ وفق قاعدة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ «الغاشية: ٢١-٢٢».

ثم من يقول أنك على صواب وهو على خطأ في تفسير هذا النص، أو في فهم هذه الفكرة، أو في تطبيق ذلك الأمر العملي؟ ومن الأمثلة الشائعة المقولات والتساؤلات التالية:

لماذا تعتبر أن تفسير الآية بهذا الشكل؟ لماذا ترفض هذا الحديث؟ لماذا تفهم العصمة بهذه الصورة؟ لماذا أنت غير مقتنع بالرجعة؟ لماذا تنكر وقوع الحادثة الفلانية؟ لماذا تقلد هذا المرجع؟ وتدخل معه في نزاع كلامي طويل عريض وعصبية وصراع وكلمات جارحة وغيبة ووووو...

ومن يقول أن تقليدك أنت هو الصحيح؟ ومن يقول أن هذه الطريقة الدارجة في التقليد هي الصحيحة؟ بل ما شأنك أنت بهذا الأمر؟ كل ما عليك - لو كنت ترى مسؤولية شرعية وخللاً في الأمر - أن تبين له مثلاً شروط مرجع التقليد، وكيفية اختياره، وانتهى.. أما الخصومة والمنازعة والتحقير والمحاسبة وأمثال ذلك فلا تجوز، وليست في سبيل الله، بل هي اتباع لخطوات الشيطان وإن تلبّست بلباس الدين..

لو كان الأمر في إطار البحث العلمي فلا بأس، شريطة أن لا يكون هذا

البحث مدخلاً للخصومة والتنازع والتشاحن، بل تبقى النفوس طيبة، والعلاقات قائمة.. ومتى ما ظهرت بوادر مخالفة لذلك فهذا يعني أننا حولنا البحث العلمي إلى ما نهينا عنه، وهو الخصومة في الدين، وهذا يستدعي منا ترك الأمر وتجاوزه.

• سلبيات عديدة:

٣- بعض الأحاديث تعرضت لشيء من أسباب النهي عن الخصومة في الدين، كالمروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (إياكم والخصومة في الدين، فإنها تُشغل القلب عن ذكر الله) غاية الدين أن يوصلك إلى الله، وأنت بهذه الخصومة تصورت أنك تسير إلى الله، والواقع أنها أبعدتك عنه!

كما أنها شغلت تفكيرك - ولربما تُشله عندما تستغرق فيه كثيراً وتعطيه بعداً شخصياً - عن الأمور البناءة فكرياً أو عبادياً أو أعمال الخير أو ما يغيّر أوضاعك الخاصة أو الأوضاع العامة إلى الأفضل. وعندما ينشغل القلب تتراكم الهموم، مما قد يؤثر على الصحة النفسية والجسدية (وتورث النفاق) ففي أحيان كثيرة تتحول المسألة إلى قضية شخصية.. لماذا لا تتوافق معي أنا في الرأي؟ أنا المقياس.. أنا المعيار.. أنا الذي أملك الحقيقة.. فخصومتني معك في الواقع محاولة انتصار لذاتي، لا لله ولا لدينه، وهذا يفتح على الإنسان باب النفاق.. فظاهر الأمر لله وللدين، وواقعه خلاف

ذلك (وتُكسب الضغائن، وتستجيز الكذب) لأنه إذا حضرت الأنا فتحنا أبواب الصراع غير المقدس على مصراعيه، فنسمح لأنفسنا بأن نفجر في الخصومة، وأن نسخر من الخصم، ونحقّره، ونسيء الظن فيه، ونبهته، ونتقاتل معه، ونكذب عليه، ونكذب بشأنه.

• اختلافاتنا حول اجتهادات ظنية:

لقد أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين.. وما جعل لأحد منهم القوة القاهرة لإجبار الناس على أن يؤمنوا بهذه الفكرة أو تلك، بل كانت مسؤوليتهم أن يبلغوا، وأن يقيموا الحجج ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠).

ولنعلم أن كثيراً من التفاصيل الفرعية ذات العلاقة بالدين على المستوى الفكري والشرعي والتاريخي إنما هي اجتهادات قد نلتقي عليها أو نختلف فيها، وأن الله لن يسألنا عنها إن كنا قد جهلناها، أو أخذنا بها وفق ما بلغنا من حجج وأدلة، فلنُعذر بعضنا بعضاً، ولا نحولها إلى مادة للتنازع وخلق التحزبات الشيطانية، والتمحورات الشخصية، وتدمير ما تبقى من أسس وأسباب وحدتنا، وما الخصومة في الدين إلا باب من أبواب الشيطان ومغصبة للرحمن.

مكر السيء

﴿اسْتَكْبَرًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا، أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ «فاطر: ٤٣-٤٤».

السُّنَّةُ التي أودعها الله في الحركة الاجتماعية للبشرية تؤكد عبر التاريخ، وعبر الأمثلة المتكررة، أن النموذج الكاذب والمخادع لا ينجح.. وسيأتي اليوم الذي تنكشف فيه حقيقته، وينقلب فيه السحر على الساحر! ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

لماذا؟ لأن الله خلق هذا الوجود على أساس الحق، وبالتالي فكل ما يخالف ذلك - وإن استطاع أن يتعاضم ويمتد لفترة زمنية - إلا أنه لا يمكن له أن يدوم، لأنه يتعارض مع طبيعة هذا الوجود. ولهذا تطبيقاته على مستوى القضايا الفردية الخاصة.. وعلى مستوى القضايا الكبرى.

• مع النبي يوسف :

في قصة النبي يوسف عليه السلام نجد إخوته، ثم امرأة العزيز، يتآمرون - كل على حدة - ويُعملون مكرهم من أجل الوصول إلى غاياتهم.. ونجحوا في تحقيق شيء منها.. ولكن أين أصبح يوسف في نهاية المطاف، وماذا حل بهم في نهاية الأمر؟ أما الإخوة فجاءوا أذلاء ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ «يوسف: ١٠٠».. وأما امرأة العزيز فوقفت موقف الذليل أمام الملك لتقول: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ «يوسف: ٥١».

وما أكثر الذين يمكرون السوء بين الأرحام، وبين الأزواج، وفي أجواء العمل، وفي أروقة المحاكم.. وقد يحققون أنيأ شيئاً من غاياتهم.. ولكن ليعلم كل هؤلاء أن سنة الله عز وجل أنه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. هذا لا يعني بالضرورة أن يحل الحق - فوراً - محل هذا الباطل الزائل، بل المقصود أن هذا الباطل بخصوصه لن يستمر.. ولربما جاء باطل آخر محله، ليدخل في ذات التجربة، ثم يكون مصيره ذات المصير.

• صدام والقذافي :

في يوم ما امتلك صدام القوة العسكرية والبشرية، والمالية، والإعلامية، والدعم الدولي، وملأ الدنيا بالادعاءات وبالشعارات القومية والإسلامية وبتحرير فلسطين.. فامتلك بذلك الزخم الشعبي الذي استُغفل حتى النخاع.

كل تلك العوامل جعلته يعيش حالة من الزهو والاستكبار الممزوجة بالنوايا الشيطانية، دفعته لعدوان مجنون ضد جارته إيران، لم يخرج في نهاية المطاف إلا بالخسائر الثقيلة على كل المستويات.

وأراد أن يعوّض تلك الهزيمة المنكرة بغزو الكويت ﴿اِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾.. ونتيجة استكباره ما استطاع أن يرى الحقيقة، وأن هناك من يستدرجه ليقع في الفخ. إلى أن ابتلع الطعم، وكانت الكويت هي الضحية.. حينها حاق وأحاط به المكر السيء، حتى انتهى به الأمر ذليلاً قابلاً في حفرة لئلاقي بعدها مصيره المحتوم.

وهكذا كان حال القذافي وسنوات مديدة من الاستكبار والتلاعب في أموال الناس ومصائرهم، ووقف يوماً كالطاووس، يهدد بملاحقة معارضيه في كل حي وفي كل بيت، ومتوعداً شعبه بقصف الطائرات وبالمدافع.

ثم انتهى به الأمر أن يختبيء في أنبوب للصرف الصحي! ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.. سنّة الله.

المستكبرون الطغاة يفقدون وضوح الرؤية... وهل يمكن لمن يرى الأمور كما يريد هو، ومن عل، أن يدرك حقيقة ما يجري على الأرض؟

ولذا فإنه مهما اعتمد المستكبر على عناصر القوة والبطش، سيأتي اليوم الذي يتعثر فيه، ويقع في نفس الحفرة التي حفرها، ليزوق شر أعماله.



• عمى البصيرة:

وتتساءل: لماذا لا يتعظ المستكبرون من العبر حولهم؟
والجواب: أكثر الناس لا يتعظون من العبر حولهم، وكثير من الأخطاء التي نرتكبها قد رأينا الآخرين وقعوا فيها وذاقوا وبالها، ونعود نحن لنقع في مثيلاتها.

بل لربما وقعنا فيها نحن بالذات من قبل، ونعود لنكرر ذات الخطأ من جديد.. فالكل يقول هذا الحدث لا يعنيني.. وإن حصدت نتيجة خطأي من قبل، فسأنجو في المرة الثانية!

• جريمة بروكسل:

عندما صنع المستكبرون والطغاة طالبان والقاعدة وأخواتهما ومولّوهم وضخّموهم بحجة محاربة السوفييت، أطلقوا وحشاً مسعوراً التفّ عليهم لاحقاً، معتبراً إياهم هدفاً من أهدافه، ففجّر ودمّر وقتل وعاث في الأرض فساداً. ولم تمضِ سوى سنوات قلائل حتى عادوا هم، علاوة على غيرهم من دول وأجهزة مخبرانية ليرتكبوا ذات الحماقة وبأسماء وعناوين جديدة، كلٌ لخدمة أهدافه في العراق وسورية وليبيا واليمن ولبنان ومصر وغيرها من بلاد العرب والمسلمين، ودخلت على الخط بعض الدول والأحزاب الإسلامية أيضاً التي ارتأت - وللأسف - أن تتحالف مع الإرهابيين التكفيريين للانتقام أو للضغط أو لتحقيق بعض الأهداف الآنية.

والنتيجة التي لا مفر منها، أن يلتف ذلك المسخ من جديد ليُذيقهم بعضَ الذي عملوا.

ولسنا في موضع شماتة حيث رأينا الأبرياء يتساقطون - قبل أيام - في بروكسل كما يتساقطون كل يوم في سورية والعراق وغيرهما، بل نحن نتعاطف مع كل الضحايا الأبرياء، وندين الإرهاب أينما ضرب، ولكنها سنة الله التي تقضي أن المكر السيء الذي صنع في تلك الدهاليز، لا بد وأن يحقق بأهله، وإن طال الزمن.

نور العقل والتفكير

عن الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَشَّرَ أَهْلَ الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾... يا هشام: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني العقل، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، قال: الفهم والعقل[.]

ورد في القرآن الكريم الأمر بالتعقل والتدبر والتفكير - على ما أحصاه البعض - في أكثر من ٧٥٠ آية. وقد استعمل القرآن الكريم كلمة «العقل»، لا بصيغة الاسم، بل بمشتقاته الفعلية: «تَعْقِلُونَ» ٢٣ مرة، «يَعْقِلُونَ» ٢٢ مرة، «عَقْلُوهُ» مرة واحدة، «يَعْقِلُهَا» مرة واحدة، «نَعْقِلُ» مرة واحدة.

• العقل في نظر القرآن:

وجاءت هذه الآيات في سياق الإشادة بفاعلية العقل البشري في النظر والتدبر، والتمييز بين الأضداد؛ كالحق والباطل، والحقيقي والزائف، والخير والشر، واعتبره الإسلام حَكَمًا عدلاً، ومرجعاً لا يُخْتَلَفُ في حجته. ولم يأمر الله عباده في كتابه - ولا في آية واحدة - أن يؤمنوا به، أو بشيء مما هو عنده، أو يسلكوا سبيلاً دون حجة وعلى العمياء... بل حتى في موارد الشرائع



والأحكام قدّم العلل والفوائد المرجوة، أو السلبيات المترتبة على المخالفة.

• العقل حجة الله:

وهكذا نجد أن الأحاديث المروية عن النبي وآله عليهم السلام والتي تناولت مكانة وقيمة العقل، تركز على حقيقة أن الله تعالى جعل العقل حجة بينه وبين عباده، كما عن الصادق عليه السلام: (حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل).

هذا هو منهج القرآن ومنهج النبي وآله عليهم السلام. ومن هنا فإن قيمة الوعي والتدبر أعلى من مجرد الحفظ أو التدوين، وإن كان لكل فضل.

• الأذن الواعية:

وفي الخبر عن الأصبغ بن نباتة قال: (لما قدّم أمير المؤمنين الكوفة، صلى

بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. قال: فقال المنافقون: لا والله ما يحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة. قال: فبلغه ذلك، فقال: ويلٌ لهم، إنني لأعرف ناسخه من منسوخه، ومُحكّمه من متشابهه، وفصله من وصله، وحروفه من معانيه. والله ما من حرف نزل على محمد إلا أني أعرف فيمن أنزل، وفي أي يوم، وفي أي موضع. ويلٌ لهم! والله أنا الذي أنزل الله في: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، فإِنَّمَا كُنَّا عند رسول الله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال أنفأ؟).

• مدرسة الحفظ بلا تعقل:

بالطبع، لا نريد التقليل من قيمة الحفظ والتدوين، وهو جهد له تقديره، ولكن الاقتصار على ذلك، وتجميد أو إلغاء دور التعقل والتدبر والتمحيص يفتح باباً خطيراً.

والمدرسة التي اكتفت بحفظ النصوص دون وعي وتدبر ومقارنة وتمحيص، هي المدرسة التي قدّمت لنا في نهاية المطاف أمثال الخوارج... وبتعبير الحديث النبوي: (يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ) والنتيجة: (يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ).

هؤلاء سيتخبطون، سواء على المستوى الفكري أو الشرعي أو الأخلاقي أو العملي، وسيتخذون موقفاً باطلاً ومُهْلِكاً.. ولعلمهم يبررون موقفهم هذا

من خلال نص هنا أو نص هناك، وما ذاك إلا بسبب السطحية في التعامل مع النصوص، وعدم إعمال العقل والتدبر فيها.

• الشيخ المفيد يستنفر:

وهذا ما دفع المفيد إلى الاستنفار حين اطلع على مؤلف عقدي للصدوق - ولم يكن يلتزم هذا المنهج العقلي التحقيقي - فقال مبيناً موطن الخلل في النتائج التي توصل إليها: (السبب في ذلك أنه عمل على ظواهر الأحاديث المختلفة، ولم يكن ممن يرى النظر، فيميز بين الحق منها والباطل، ويعمل على ما يوجب الحجة، ومَنْ عَوَّل في مذهبه على الأقاويل المختلفة، وتقليد الرواة، كانت حاله في الضعف ما وصفناه).

وعلاوة على دور العقل والتدبر في تحقيق سلامة الخط، هناك نتيجة أخرى مترتبة تتمثل في تفجير الطاقات الفكرية، والإبداع، والحكمة، والبصيرة، والوعي، وفتح الآفاق المختلفة والجديدة من خلال تلك النصوص.

ولذا عندما نقارن بين أهل البيت وبين الآخرين، نجد لديهم ذلك التراث الفكري والحكمي الضخم دون سواهم.

وما زال نهج البلاغة من جهة، والصحيفة السجادية من جهة أخرى، كنموذجين مختلفين من عطاءات أهل البيت عليه السلام، بكل ما فيهما من حكمة، وفكر، وقيم، وأخلاق رائعة، ماثلين أمام الجميع تأكيداً على هذه الحقيقة التي لا يرتاب فيها إلا مكابر معاند... هذا هو العلم.



• الزهراء ورحابة القرآن:

والسيدة الزهراء عليها السلام على الرغم من خصوصية وضع الأنثى في المجتمع الذي عاشت فيه، إلا أنها عاشت رحابة القرآن في نصّه، ومفاهيمه، وأحكامه، وأخلاقه.

ويكفي أن نطالع الخطبة التي ألقتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه في مسجده، ولخصت فيها معاني الإسلام ومفاهيمه وحاجت القوم في حق زوجها في الحكم بقوة فكرية وبلاغية تعكس وعيها العميق للقرآن ولسنة رسول الله.

ولنتوقف عند الفقرة التالية لندرك هذه الحقيقة حيث قالت: (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأثار في الفكر معقولها) فهي ليست مسألة كلمات تنطلق من اللسان، بل لا بد من أمور:

١- مزاججة ذلك بالعمل والتطبيق الذي يعكس عمق الإيمان بهذه الحقيقة... وما يكشف عن عمق الإيمان بها سوى الإخلاص لله في كل شيء وفي كل خطوة.

٢- ارتباط ذلك بالحالة الشعورية الوجدانية للقلب، ليكون الاعتراف بالتوحيد نابضاً بالحياة، بعيداً عن الجمود الذي قد يكتنف الفكرة.

٣- اعتماد ذلك على القناعة، والحجة العقلية، والعمق الفكري، لكي لا يكون الإيمان حالة سطحية مهزوزة قابلة للزوال عند تشكيك المشككين، وتلبس المُلبسين.

• لئلا نكون كالخوارج:

هكذا كانت الزهراء عليها السلام وهكذا كان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام في إعطاء المكانة الكبيرة لدور العقل في الإيمان، وفي فهم الدين، وفي الحياة.. وهكذا ينبغي أن نكون، لئلا نسلك ذات الطريق التي سلكها الخوارج ومن هم على شاكلتهم ممن أغلقوا عقولهم، وعطلوا تفكيرهم، فينتهي بنا المطاف بعيداً عن الغاية التي خططنا للوصول إليها، ونرفض الحق الذي طالما حلمنا ووعدنا الله وأنفسنا والآخرين أن نكون من أنصاره.

الدين والحروب

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ «الروم: ٣٦»، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ «الروم: ٤١».

من الإشكالات التي يطرحها الملحدون على شبابنا قولهم أن الدين أصل كل الشرور في الحياة.

ويضربون لذلك مثل الحروب التي عانت وتعاني منها البشرية، فيقولون: لقد أثبت التاريخ القديم والمعاصر أنك كلما التفت إلى حرب ودمار وقتل واستباحة، وجدت أن الدين يقف وراءه.

وقد تركت هذه الحروب آثارها المدمرة لأزمان طويلة على البشر وعلى المادة، وخلقت أجواء من الكراهية الدفينة، وغرست بذور حروب مستقبلية لا تقل عنفاً ولا امتداداً عن سابقاتها.

ويقول هؤلاء أن الإيمان بقداسة المتبنيات الدينية والتعصب لها، هي التي تدفع المتدينين إلى السعي لإلغاء الآخر، وأن هذا الإلغاء يأخذ

صوراً متعددة من بينها محوه من الوجود، وبذلك يتحول المؤمن بالدين إلى شخصية عدوانية ضد الإنسان الآخر «الكافر»، ويترجم ذلك من خلال صور متعددة من بينها الحروب.. وما يجري في العالم الإسلامي ومن قبل الجماعات التكفيرية اليوم خير دليل.

وحتى لو كان الأمر مجرد استغلال للشعار الديني، وأن منطلق الحرب في واقع ليس هو الدين، ولكنه على كل حال أعطى ثمرته في إذكاء الحرب وتحجيش الناس.. ولهذا يقولون: لا بد من إلغاء الدين من حياة الإنسان لتستطيع الإنسانية أن تحصل على السلام... والجواب عن هذا في نقاط:

• أولاً، الواقع التاريخي لخلفيات الحروب:

فهذا التعميم في كون منطلق كل الحروب أو أغلبها هو الدين كلام لا يمت إلى الواقع بصلة.. فكثير من الحروب التاريخية القديمة كانت حروباً على السلطة والتوسع من قبل الملوك والأباطرة والدول المختلفة، وحروباً ذات خلفيات عرقية وقومية، ومثلها الحروب في عصر ما يسمى بالتنوير، والحروب الاستعمارية الحديثة، والحربان العالميتان، وغير ذلك.

وقد نتج من دمار وآثار الحربين العالميتين فقط ما يساوي كل نتائج حروب العهود التاريخية المتقدمة.

نعم، لا ننكر وجود الحروب ذات الخلفية الدينية، والحروب التي يتم فيها توظيف الدين، كما قد يكون الدين حاضراً لما فيه من أبعاد غيبية

يؤمن بها المحاربون، فيستعينون بها طلباً للنصرة أو الحفظ من الموت وأمثال ذلك.. فهل هذا يستدعي إلغاء الدين؟ إذا كان الجواب بنعم فهذا سيدفعنا للمطالبة بإلغاء كل مسببات الحروب، ومن بينها التملك والحدود السياسية بين الدول، وأنظمة الحكم، والوطنية، وغير ذلك من عناوين دفعت - وما زالت تدفع - نحو الكثير من الحروب.

• ثانياً، الواقع التاريخي لخلفيات الحروب:

إذا افترضنا أن الدين كان وراء كل أو أغلب الحروب، فهل هذا يعني أنه شيء فاسد؟ أليس الرغبة في تحقيق العدالة، والحرية، والقضاء على الفساد، والمساواة بين الناس، ورد العدوان، ورفع الظلمات، وأمثال ذلك كانت سبباً لوقوع الإنسانية في الكثير من المآسي من خلال مجريات أحداث الانتفاضات، والاحتجاجات، والثورات، وما يستتبعها من قتل، واعتقالات، وتعذيب، وهجرة، وتهجير قسري، واستباحة للحرمات، ونهب الممتلكات؟ فهل يقول أحد بأن تلك العناوين أشياء فاسدة؟

• ثالثاً، نزعة التملك والصراع:

هل يزعم هؤلاء أن إلغاء الدين سيحقق السلم العالمي؟ إذا كان الجواب مثبتاً، فإننا نقول لهم إنكم: إما أن تكونوا واهمين، أو معاندين، أو لا تفقهون في شؤون الحياة والإنسان شيئاً.

فالتبيعة الإنسانية تنزع إلى التملك والسيطرة وحب الذات والتعصب

للمتبنيات، ومادامت هذه العناصر حاضرة، وما دام هناك تراحم بين الناس، فلا بد وأن يحضر الصراع، ومن صوره الحروب.

• رابعاً، إلغاء الفروقات:

الدين - لاسيما الإسلام - ألغى الفروق العرقية والقومية والجغرافية، وجرم التفاضل على أساسها، ونبذ التعصب الجاهلي، واعتبر أن الأساس الذي يجب أن يحكم العلاقات الإنسانية هو التعارف والتكامل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، فهو على هذا يمثل عاملاً مهماً في تخفيف منابع الحرب وإلغاء أسبابها.

ووجود الظواهر السلبية عند المتدينين وفي فهم وتطبيق الدين لا تعني بالضرورة فساد الدين، فالإنصاف والتجرد العلمي يستدعي دراسة هذه الأمور من واقع الدين، لا من خلال الاجتهادات البشرية في فهم الدين وتطبيقه. وعلى العلماء والمفكرين المؤمنين بالدين العمل على إعادة قراءة النصوص وتجديد الاجتهاد في الموارد التي تبين وجود خلل فيها، وأنها تدفع - فعلاً - إلى خلق الصراعات والحروب والعدوان، لأن الله ﷻ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) وهي بمثابة القاعدة التي تحدد معالم حركة المؤمنين في اتجاه الحرب والسلام.

• خامساً، الحروب الوقائية:

الحروب قد تنشأ من اعتداء الآخر الذي يعمل على العدوان لغرض التمدد والتوسع مثلاً، مما يجعل الحرب - عند الطرف المؤمن - أمراً وقائياً أو دفاعياً، ولا يمثل عنده تنفيساً لعقد، بل هي علاجٌ للواقع الصعب.

• سادساً، بطلان نظرية العامل الواحد:

ما عادت نظرية العامل الواحد والتي تجعل وراء كل شيء سبباً محدداً، وتفسّر من خلاله الظواهر الإنسانية الكبرى، كالحروب عبر التاريخ، أمراً مقبولاً علمياً، فالعلوم الإنسانية المختلفة كعلم النفس، والاجتماع والتاريخ، والاقتصاد، والسياسة، وغيرها تنحو اليوم منحى تعددية الأسباب في تفسير هذه الظواهر، فلماذا يُرجع هؤلاء سبب الحروب إلى الدين؟

إن الروح الدينية الإسلامية لا تنطلق من فكرة إلغاء الآخر، ولا تحبذ الحروب، ولا تتشوّق إلى إراقة الدماء بل هي تدعو إلى الانفتاح عليه، ومحاورته، واستخدام الحكمة، والمنطق، كوسيلة للإقناع.

ومن يحمل الدين علماً وعملاً ووعياً ومسؤوليةً لن تكون الحرب خياره الأول في التعامل مع الآخر المختلف، بل هي خياره الأخير فيما لو اعتدى عليه، أو سعى الآخرون لإلغائه، أو استضعافه.

الإمام علي والبراغماتية

١٢



«البراغماتية» أو «المذهب العملي» أو «العملانية» من المصطلحات التي شاع استعمالها في عالم السياسة، وهو مذهب فلسفي سياسي ظهر في الولايات المتحدة أواخر القرن التاسع عشر.

البراغماتية تعتبر أن نجاح العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة والقيمة.. وبالتالي فالصالح اليوم قد يصبح خطأً في الغد، إذ لا توجد قيم وحقائق ثابتة.. الاهتمام يجب أن يكون منصّباً على النتيجة، ولا تهتمنا المقدمات.

قد تبدو هذه الفلسفة جميلة من ناحية، وقبيحة من ناحية أخرى.. هي

جميلة على اعتبار أن الإنسان يطمح إلى النجاح في مشاريعه.. وقبيحة على اعتبار أنها لا تعترف بقيم وحقائق وثوابت ومبادئ.. لا تعترف بخير وشر.. المهم النتيجة.. وهي بهذا اللحاظ تقترب من الميكافيلية المتمثلة في كون الغاية تبرر الوسيلة.

ولكن يبدو أن كثيراً ممن يستعملون هذا المصطلح لا يلاحظون هذا البعد القبيح في مضمونه، بل يركزون على مسألة المرونة في التعاطي مع المشكلة وتحقيق النتائج والنجاح المرتكز على ذلك، وسنجاهريهم في ذلك.

• براغماتية النبي وتصلب الإمام علي :

قال البعض ببراهماتية رسول الله ﷺ، وفق المعنى الشائع للمصطلح، وبافتقاد الإمام علي عليه السلام لهذه الصفة، واستشهدوا على ذلك بأمور ومواقف، من بينها ما جرى بعد غزوة حنين، حيث أعطى المؤلف قلوبهم نصيباً إضافياً - وذلك من حصة الخمس - فمثلاً عندما نال أبو سفيان مائة بعير وأربعين أوقية فضة، قال للنبي ﷺ: (حظ ابني يزيد!) فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية، فقال: (فأين حظ ابني معاوية؟) فأمر له بمائة من الإبل وأربعين أوقية، حتى أخذ أبو سفيان يومئذ ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة. فقال عند ذلك: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لأنك كريم في الحرب والسلم. هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً).

قالوا: هذه البراهماتية عند النبي ﷺ هي التي جعلته ينجح في استمالة

الناس من حوله، وبذا أَمِنَ شَرَّهُم، ووَطَّدَ أركان دولته.. وفي المقابل، افتقد الإمام علي عليه السلام هذه الميزة، واستشهدوا بشواهد من بينها:

الشاهد الأول: (أنه وَلَّى طَلْحَةَ الْيَمَنَ وَالزُّبَيْرَ الْيَمَامَةَ وَالْبَحْرَيْنِ، فَلَمَّا دَفَعَ إِلَيْهِمَا عَهْدِيَهُمَا، قَالَا لَهُ: وَصَلَّتْكَ رَحِمٌ. قَالَ: وَإِنَّمَا وَصَلْتُكُمَا بَوَلَايَةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ) أَي لَمْ أَلْخِظِ الْقَرَابَةَ فِي تَعْيِينِي لَكُمَا (وَاسْتَرَدَّ الْعَهْدَيْنِ مِنْهُمَا، فَعَتَبَا مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَا: أَنْثَرْتَ عَلَيْنَا. فَقَالَ: وَلَوْ لَا مَا ظَهَرَ مِنْ حِرْصِكُمَا فَقَدْ كَانَ لِي فِيكُمَا رَأْيٌ).

الشاهد الثاني: قِيلَ لَهُ: (اعْطِ هَذَا الْمَالَ، وَفَضَّلِ الْأَشْرَافَ وَمَنْ تَخَافُ خِلَافَهُ وَفِرَاقَهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَتَبَ لَكَ مَا تَرِيدُ، عُذْتَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ وَالْقِسْمِ بِالسُّوْيَةِ)، فَرَفُضَ الْاِقْتِرَاحَ وَرَدَّهُ رَدًّا عَنِيفًا وَقَالَ: (أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النِّصْرَ بِالْجُورِ فَيَمْنُ وَكُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؟ وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ بِهِ سَمِيرٌ، وَمَا أَمْ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا) أَي لَا أَقَارِبُهُ أَبَدًا (وَلَوْ كَانَ مَالُهُمْ مَالِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ أُمُورُهُمْ؟ ثُمَّ أَزَمَ طَوِيلًا سَاكِتًا) وَكَأَنَّهُ أَمْسَكَ غِيْظَهُ أَلَّا يَكُونُوا قَدْ أَدْرَكُوا إِلَى الْآنَ مَبَادِي الْإِسْلَامِ وَمَنْ هُوَ عَلِيٌّ.

• رد الشبهة:

والقول السابق قد يبدو قوياً من خلال المقارنة بين الشواهد، إلا أننا ن
سجل عليه عدة ملاحظات:

١- نحن ننزه النبي كما ننزه أمير المؤمنين عن البراغماتية بمفهومها الفلسفي الذي عرضناه، لأن المبادئ والقيم والحقائق لم تكن نسبة عندهما، ولا تدور مدار النتائج، بل كانت ثابتة راسخة، وقد قال الله عز وجل في شأن النبي: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ «القلم: ٩».

٢- ما صدر عن النبي ﷺ في زيادة المؤلفة قلوبهم ما كان تجاوزاً على مبدأ العدالة، بل كان استعمالاً لصلاحياته كحاكم ارتأى أن يستعمل خمس الغنيمة - التي يعود أمر التصرف فيها إليه بحسب آية الخمس - في استمالة هؤلاء، دون أن يؤدي ذلك إلى خلق حالة فساد إداري، أو تشجيع على فساد مالي.

٣- امتناع الإمام عن تعيين طلحة والزبير كان متناغماً مع سنة النبي، وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: (دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي فقال أحد الرجلين: أمّرنا يا رسول الله. وقال الآخر مثله، فقال: إنا لا نولي هذا من سأل، ولا من حرص عليه).

٤- لا بد أن نقرأ تصرف الإمام علي عليه السلام ضمن ظرفه التاريخي، فما كان ممكناً أن يستعمل الإمام بعض الموارد كنخمس الغنائم مثلاً في استمالة المنحرفين عنه، إذ جاء الإمام إلى الحكم بعد أسبوع من ثورة قامت على الفساد الإداري والمالي الذي ضجّ منه الناس وذاقوا منه الأمرين، وأدى في النهاية إلى قتل الخليفة السابق.

فكيف يمكن للإمام عليه السلام أن يتصرّف بالخمس مثلاً ويفضّل البعض، أو يعيّن بعض أقربائه كالزبير، لا من باب الاستحقاق بل بلحاظ القرابة، وبما يمكن أن يُفسّر على أنه استمرار للفساد السابق؟

• التركيز على المباديء:

لقد كان من المهم بالنسبة إلى الإمام علي عليه السلام في ذلك الظرف الحرج المليء بصور الانحراف عن مبادئ الإسلام في شؤون السياسة والحكم والإدارة والتقاضي وتوزيع الثروة، أن يركّز على المباديء والقيم والعناوين الأولية للأحكام، وأن يتجنّب أي تصرف يمكن أن يُفسّر خلاف ذلك، لأنه حينها سيكون قد وجّه ضربة قاصمة لمشروعه القيمي التقويمي، وهو القائل: (ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حُسن الحيلة. ما لهم قاتلهم الله؟ قد يرى الحَوْلُ القَلْبَ وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين). لقد كان المطلوب من الإمام علي عليه السلام - من واقع مسؤوليته كإمام وحاكم على المسلمين - أن يعيد إلى تلك القيم والمباديء رونقها وبريقها، وأن يعيد ثقة الناس بحكم الإسلام، وأن يرسم معالم الطريق للحاكم المسلم الذي يريد أن يتعامل مع مثل هذا الظرف، وذلك حين ينخر الفساد في مفاصل الدولة، وتضج الجماهير من آثاره المدمّرة، فما قيمة أن يبقى الحاكم حاكماً فوق تلة من فساد؟

١٣

شهيد يتحدث عن شهيد

تحدثت في المقال السابق عن مفهوم البراغماتية، والإشكال الذي طُرح بخصوص عدم تحلي الإمام علي عليه السلام بالبراغماتية التي تمكنه من توظيف الظروف التي عاشها لتوطيد حكمه، على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ.

خاصة وأنا لو عدنا إلى القواعد الفقهية لوجدنا فيها ما يساعد على التعاطي بمرونة مع مقترحات الذين أرادوا من الإمام الإغداق على كبار الشخصيات وإيكال الوظائف الكبرى إليهم أو إقرارهم عليها مع التغاضي عن تجاوزاتهم الإدارية والمالية مرحلياً إلى أن تستتب الأمور، حتى إذا استمكن قام بإصلاح المعوج وعمل بمقتضى العدل.

ففي موضوع التزامهم، الفقه يقول: بأنه إذا توقف واجب أهم على مقدمة محرمة، فلا بد من الحفاظ على ذلك الواجب الأهم، ومثال ذلك ما إذا توقف إنقاذ نفس محترمة من الغرق على اجتياز أرض لم يرض صاحبها باجتيازها، فلا بد من اجتيازها، لأن النتيجة أهم من هذه المقدمة.

كما فعل النبي حين اجتياز وأصحابه بستان مربع بن قيطى - وكان من المنافقين - في طريقهم إلى أُحُد لمواجهة جيش المشركين، حيث امتنع مربع

عن السماح لهم بالاجتياز، وما كان من سبيل سوى ذلك، فأقر النبي الاجتياز عبر البستان على الرغم من رفض مربع الذي غضب إلى درجة أنه حثا التراب في وجه النبي ﷺ !

فلماذا إذاً لم يطبق الإمام علي عليه السلام هذه القاعدة، ليساعده ذلك في إقامة حكومة الله على الأرض؟

• تعدد أدوار ووحدة هدف:

وقد رددت في ذلك المقال على هذا الإشكال بإيجاز، واقترح علي بعض الأحبة أن تكون لي وقفة مجددة مع هذا الموضوع من خلال ما عرضه الشهيد السيد محمد باقر الصدر في كتابه «أهل البيت تعدد أدوار ووحدة هدف» حيث تعرّض لمناقشة ذات الإشكال، ورد عليه في أربعة نقاط ألخصها كالتالي:

• النقطة الأولى:

أراد الإمام علي عليه السلام أن يرسخ قاعدة سلطانه في العراق، وكان شعب العراق مرتبطاً روحياً وعاطفياً مع الإمام ولكنه ما كان يعي رسالته وعياً حقيقياً كاملاً ولهذا كان الإمام بحاجة إلى أن يبني تلك الطليعة العقائدية ليكونوا الأمناء على الرسالة... ولكن هل يمكن تحقيق ذلك في جو من المساومات وأنصاف الحلول؟

تلك المساومات وأنصاف الحلول ما كانت لتخلق أشخاصاً مثل أبي ذر وعمار ولن تبني روحية الجيش العقائدي الواعي والرسالي الذي يؤمن بأن المعركة للأهداف الكبيرة التي هي أكبر من الذات. ولو أقدم الإمام على تلك المساومات لشكّلت نكسة بالنسبة إلى عملية التربية لهذا الجيش العقائدي.

• النقطة الثانية:

لم يأت الإمام إلى الحكم في ظروف اعتيادية، بل في أعقاب ثورة، وفي لحظة انفجار عاطفي هائل... وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع عاطفي في حياة أمة، لكي يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي؟

المزاج النفسي والروحي وقتئذ للمسلمين لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي الهادئ لكي يمشي حسب مخطط تدريجي، وإنما كان هو المزاج الثوري الذي ارتفع إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به، ولا بد لمن يستلم زمام المسؤولية في مثل هذه اللحظة أن يرسخ المضمون العاطفي النفسي عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها الإمام عليه السلام.

ولو أبقى الإمام علي عليه السلام الباطل مؤقتاً وسكت عن الفساد، إذاً لهدأت العاصفة ولانكمش هذا التيار العاطفي النفسي، وحينها لن يكون بمقدوره أن يقوم بمثل هذه الإجراءات.

• النقطة الثالثة :

كان الإمام علي عليه السلام حريصاً على أن تدرك الأمة أن واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة بين شخصين .. بين قائدين .. بين قبيلتين .. وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية .. كان حريصاً على أن يفهم الناس أن واقع المعركة الآن كواقع المعركة أيام النبي ضد الجاهلية التي حاربه في بدر وأحد وغيرهما من الغزوات .

وهذا ما دل عليه الحديث النبوي الذي رواه المسلمون بأن علياً سيقاتل على التأويل بعد أن قاتل على التنزيل . ولو أن الإمام أقر رؤوس الفساد والمخالفات المالية والإدارية والسياسية - ولو إلى برهة من الزمن - لما كان بإمكانه أن يُقنع الناس برسالية المعركة .

بل إنه مع حرصه هذا عانى من شك الناس لاحقاً في تلك الرسالية إلى أن استشهد، فما بالنا لو لم يراعها؟

• النقطة الرابعة :

ما كان الإمام يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، فقد كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه، وحيث لا ينفع العلاج، ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة .

الإسلام كان بحاجة إلى أن تُقدّم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة

أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق.. ليقال للأجيال: هذا هو خط الإسلام.

• صمود الإمام علي:

لقد بقي الإمام علي عليه السلام صامداً حتى خرّ صريعاً على يد شخص من هذه الأمة التي ضحى في سبيلها.. خرّ صريعاً في المسجد فقال: فزت ورب الكعبة.

لو كان عليٌّ قد عمل للدنيا لما كان صادقاً في هذا النداء، ولكان أتعس إنسان، إذ على أكتاف تضحياته قام بناء دولة الإسلام على عهد النبي، فما الذي ناله بالمقاييس الدنيوية؟ لا شيء يُذكر.. ولكنه كان صادقاً في ندائه (فزت ورب الكعبة) كما كان أسعد إنسان، إذ عاش للرسالة، وما عاش للدنيا ولا لمكاسبه الشخصية.

وهكذا يجب أن نستشعر دائماً أن السعادة في عمل العامل لا تنبع من المكاسب التي تعود إليه نتيجة لهذا العمل.. وإنما رضى الله عز وجل وحقانية العمل، وحينئذ سوف نكون سعداء، سواء أثر عملنا أو لم يؤثر، سواء قدر الناس عملنا أم لم يقدرُوا.

سوف نذهب الله عز وجل ونحن سعداء لأننا قمنا بواجبنا، ووضعناه بين يدي مَنْ لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قصص الأنبياء في الميزان

١٤

بمناسبة قرب حلول ذكرى المبعث النبوي الشريف، أود أن أتحدث قليلاً عن شأن من شؤون كتاب الله عز وجل.

فقد احتوى القرآن على قواعد الإيمان، والتشريعات، والتعاليم الدعوية، والأخلاقية، والحكمة، علاوة على قصص الماضين. وقد كانت غاية القرآن من سرد القصص:

١. أخذ العبرة في الحركة الرسالية ومسيرة الدعوة.
 ٢. تنبيه وتحذير مختلف الناس من الشرك، والكفر، والانحراف، والفساد، واتباع الأهواء، ومعاداة الأنبياء
 ٣. تصحيح بعض ما ورد في قصص أهل الكتاب التي دخل عليها التحريف والوضع، تنزيهاً للأنبياء عليهم السلام، وتقويةً للمفاهيم.
- لكل هذا فإن ما جاء به القرآن من تلك القصص كان مجرد وقفات سريعة وبحسب الغاية التي من أجلها سيقّت.



نعم يستثنى من كل ذلك قصة النبي يوسف عليه السلام، وقد تحدثت عن هذا الأمر في مقال سابق.

• ظروف مستجدة:

بعد وفاة رسول الله ﷺ اتسعت الفتوحات، وشعر المسلمون بشيء من الاستقرار، مع وفرة مالية أدخلت نوعاً من الحياة المرفهة، حيث ازداد عدد العبيد والخدم الذين صاروا يقومون بكثير من الأعمال اليدوية بدلاً عن سادتهم.

هذا التبدل خلق أوقات فراغ كان يصعب على المسلمين أن يجدوها

ضمن نمط حياتهم السابقة، وبحسب طبيعة مشاغلهم، فرغبوا نتيجة ذلك بمليء ما اعتبروه فجوات في القصص القرآنية، وإكمال بعض حلقاتها من حيث تحديد الأنساب والأسماء، والأزمنة والأمكنة، وفي تفاصيل الأحداث، وغير ذلك، ووجدوا غايتهم في القصص المتكسبين، وفي أحبار ورهبان أهل الكتاب.

وهكذا انفتحت الساحة لهؤلاء كي يعثوا في ثقافة الناس ومعارفهم من خلال هذا الباب الواسع، لاسيما وقد تبنى بعض الخلفاء بعضاً منهم، واعتبروهم من مصادر المعرفة الدينية والتاريخية المعتمدة لديهم.

ودخلت أساطير الأولين والقصص المحدثّة والإسرائيليات والمسيحيات والموروثات الروائية الخرافية للهندوس والبوذ والمجوس وغيرهم من خلال هذه القصص التي نسبت للنبي وآله والصحابة والتابعين وعلماء المسلمين.

• خلط الأوراق:

وكان من أخطر صور ذلك إقحام تلك القصص في تفسير القرآن الكريم: ١. فقد أبعدت هذه الأساطير التفسيرية الحكمة من القصة القرآنية «أي أنها حوّلتها عن مقاصدها».

٢. وأحدثت مغالطة في فهم كتاب الله العزيز.

٣. وتشويهاً للقصص في نفسها وفي دلالاتها.

وقد حذر القرآن من مغبة الوقوع في هذا المحذور: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ «الكهف: ٢٢».

وهذا انتقاد ضمنى للنخوض في هذه التفاصيل اعتماداً على الظنون، أو لجوءاً إلى القصاصيين، فالمسألة ستكون رجماً بالغيب، فالحذر من الجدال بخصوصها مع عدم امتلاك المعلومة المؤكدة.

ثم تعود الآيات الكريمة لتؤكد المطلب: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرُ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا، وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ «٢٥-٢٧».

أي أن الركون إلى الروايات الموثقة في كتب التفسير والتاريخ، والمشتمة على تفاصيل قصص الأنبياء والأئم الغابرة، من دون امتلاك دليل أكيد على صدورهما عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام يعتبر مشمولاً بالتحذير السابق.

وفعلاً عندما نعود لدراسة مصادر وأسانيد تلك المرويات ومضامينها سنجد الأمثلة التالية:

• ملاحظات العلامة محسني :

في مشرعة بحار الأنوار للعلامة محسني حول أبواب قصص موسى وهارون عليهما السلام يقول بشأن الباب الخاص بـ «نقش خاتمهما وعلل تسميتهما وفضائلهما وسننهما»: (لم يصح شيء من روايات الباب سنداً ومصدراً).

والباب الخاص بـ «أحوال موسى عليه السلام من حين ولادته إلى نبوته»: (ولم تصح من روايات الباب إلا ما نقله برقم ٥ و ٩٠٠. وهنا إشكال آخر في الروايات الطويلة، كيف ضبطها الرواة وإن صحت أسانيدها، ففي بعض المقامات يُقطع بأن معظم كلماتها من غير الإمام).

والبابان الخاصان بـ «مؤمن آل فرعون خروج موسى عليه السلام من الماء»: (فاللزام في البابين الاقتصار على الآيات المذكورة فيها فقط لضعف جميع رواياتها سنداً أو مصداً، كالاختصاص) هو كتاب منسوب للمفيد (المجهول مدونه، ومثل قصص الأنبياء) المنسوب إلى الراوندي عن الصدوق.

• ضعف المتن :

وأما القول بأن ضعف السند ليس دليلاً على عدم صدور الرواية عن النبي أو الإمام، فمردود عليه بالرجوع إلى مضامين تلك القصص حيث تجد فيها من قبيل الخبر التالي عن النبي سليمان حيث يروى أنه قد بنت له الشياطين حصناً فيه (ألف بيت، في كل بيت طروقة) أي امرأة للجماع (منهن سبعمئة أمة قبطية، وثلاثمئة حرّة مهيرة، فأعطاه

الله تعالى قوة أربعين رجلاً في مباضعة النساء، وكان يطوف بهن جميعاً، ويسعفهن).

وهذا يصب في نفس الاتجاه الذي تقدّم فيه النصوص الإسرائيلية الأنبياء بصورة شهوانية وعشوية... بالطبع لا أريد أن أنفي كل ما روي في باب قصص الأنبياء، ولكن علينا التعامل معها بحذر وروية.

• حساسية الأمر:

إن قصص الأنبياء القرآنية تمثل رافداً من أهم روافد الإيمان والأخلاق والحكمة والعمل الرسالي، فهم مبعوثو العناية الإلهية لهداية البشرية، وهم الذين أمرنا الله أن نقتدي بهم حيث قال ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ولو كان شغف معرفة تفاصيل قصصهم يقتصر على مراكمة المعلومات فحسب لربما هان الأمر، ولكن المسألة أبعد من ذلك، لأنها مسألة الإيمان والأخلاق والهداية.

ولنتذكر أنه على الرغم من شهرة قصة طوفان نوح عليه السلام بين الأمم ومنذ القدم، إلا أننا نجد أن الله عز وجل يقول بعد أن نقل جانباً منها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (هود: ٤٩)، ليؤكد لنا قيمة الحقيقة ومنبعها الصافي، ووهن الخرافة أينما كان مصدرها، لأن الظن في نهاية المطاف لا يُغني عن الحق شيئاً.

صِية إرهابيون

١٥

لربما اطلع بعض الأخوة والأخوات على التقرير الصحفي الذي تناولته إحدى الصحف المحلية قبل أيام حول فتاة في الخامسة عشرة، تعيش في إحدى قرى نيجيريا.. استيقظت في الصباح الباكر، وكان طفلها الرضيع بالقرب منها يتنفس في هدوء، ووجهه يلتصق بها، وإذا بها تتفاجأ بمجموعة من النساء يدخلن مسكنها ويسحبنها إلى الخارج.

يضيف التقرير أن هذه الفتاة بدأت تصيح وتبكي وتلقي بنفسها على الأرض، لأنها كانت تدرك ما ترغب فيه تلك المجموعة من النساء. فقد رأت كيف كن يجعلن الفتيات يرتدين الأحزمة الناسفة، وكيف يتم نقلهن بالشاحنات الصغيرة إلى أطراف المدينة، وكيف كانوا يعودون من دونهن. ويكمل هذا التقرير قصة معاناة فاطمة حين رفضت ما عُرض عليها، وكشفت عن علامات التعذيب بالضرب بالأسلاك والعصي، إذ كانت فاطمة تبدو مناسبة لكي تقوم بمهمة تفجير انتحاري.. صغر سنها، واحتضانها للطفل الرضيع لن يثير الشبهات، ويمكنها من الدخول إلى

أماكن التجمعات بسهولة، لتقتل في لحظة غدر عدداً كبيراً من الناس. وإذا كانت بعض حالات استغلال الأطفال والمراهقين في العمليات الإرهابية تتم بالإكراه، إلا أنها ليست كذلك دائماً، بل هي في حالات أخرى تتم من خلال عملية غسل للأدمغة وزرع للكرهية.

عقل إجرامي لا ينحصر في أتباع جماعة تكفيرية في بلد أفريقي، بل شهد العالم قبل مدة قصيرة جريمة إرهابية في العراق ذهب ضحيتها العشرات من الأطفال والصبية وهم يلعبون كرة القدم، في حين كان الذي أقدم عليها عن إرادة وتصميم صبي مراهق آمن - زوراً - بأن طريق الجنة ومجاورة النبي الأكرم ﷺ يمر عبر أشلاء هؤلاء الصبية الأبرياء!

وقبل أيام قلائل سلّم صبي مراهق نفسه كان قد أُعد من قبل التكفيريين ليفجر جموع الزائرين المشاة في ذكرى استشهاد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

أية عقلية إجرامية هذه التي تفكر بهذه الصورة وتقدم عليها بدم بارد؟ وما علاقة هذا بالإسلام؟

• مهن منهي عنها:

ويستوقفني هنا حديث يُروى عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد علّمتُ ابني هذا الكتابة، ففي أي شيء أُسلمه؟) فهو يجد أن ابنه غداً مستعداً للعمل وكسب الرزق،

وهو يبحث له عن مهنة مناسبة يستهدي فيها النبي (فقال: أسلمه - لله أبوك - ولا تُسلمه في خمس. لا تُسلمه سَبَاءً) ولعل الأوفق سيّء كما في بعض الكتب، فالسبَاء بائع الخمر، والنبي لا يقصد ذلك كما سيتبين بل إنه ﷺ استعمل هذه الكلمة في معنى من عنده للدلالة على مهنة معينة فيها ما يسيء إلى المسلمين. (ولا صائغاً، ولا قصاباً، ولا حنطاً، ولا نخّاساً) والنهي في هذه الموارد نهى إرشادي، وليس تحريمياً.. ثم لاحظ أن الحديث عن تسليم فتى غر لا يمتلك الخبرة ولا القدرة الكبيرة على التمييز بين ما هو صحيح وفساد وحلال وحرام، مما يعرضه لقبول ما هو حرام وباطل ومضر مع إمكانية الاعتقاد عليه، ولربما لو جعل له الخيار لو كان أكبر سناً وأنضج عقلاً لما اختار هذه المهنة أو تلك، أو اختار إحداها ولكنه سيميز بين الحلال والحرام وسيجنّب نفسه الوقوع فيما لا يرضي الله، لأن هذه المهن في نهاية المطاف هي ضمن حاجة المجتمعات (قال: فقال: يا رسول الله، ومن السبَاء؟) أو السيّء (قال: الذي يبيع الأكفان ويتمنى موت أمّتي) لأن زيادة رزقه تعتمد على زيادة عدد الموتى (والمولود من أمّتي أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس. وأما الصايغ فإنه يعالج غبن أمّتي) أي يتلاعب في الذهب والفضة ويغش في ذلك (وأما القصاب فإنه يذبح حتى تذهب الرحمة من قلبه، وأما الحنّاط) أي الذي يبيع الحنطة للناس وهي المادة الغذائية الرئيسة (فإنه يحتكر الطعام على أمّتي، ولأن يلقى الله العبد سارقاً أحبُّ إليّ من أن يلقاه قد احتكر الطعام أربعين يوماً. وأما النخّاس) وهو

الذي يبيع العبيد (فإنه أتاني جبرئيل، فقال: يا محمد، إن شرار أمتك الذين يبيعون الناس).

بهذه الحساسية يتعامل الإسلام مع مصير الأطفال والمراهقين.. وبهذه الحساسية يُنظر إلى المهن التي يمكن أن يمتنعها الإنسان ولربما يكون لها مردود سلبي على روحية المسلم وأخلاقه ودينه أو سمعته أو على الناس والمجتمع.. فكيف بغسل أدمغتهم وتوظيفهم في العمليات الإرهابية؟

• الحرب ضد الإرهاب:

في المنتدى الثاني لمستقبل أمن دول مجلس التعاون الخليجي الذي أقيم في أبوظبي قبل أشهر، أشار البروفيسور «ثيو فاريل» رئيس دائرة علوم الحرب في جامعة لندن كنجز كولج البريطانية إلى أن (الهدف من الحروب في السابق كان واضحاً، وهو تدمير القدرة الدفاعية والهجومية للعدو، ولكن الحرب الحالية الموجهة ضد الجماعات الإرهابية الهدف منها هو كسب العقول والفكر).

• وزارات تُغرّد خارج السرب:

ومع كل المعطيات السابقة، ما زالت وزارة التربية عندنا تكابر بخصوص احتواء بعض مناهج التربية الإسلامية لمضامين تكفيرية تزرع الكراهية في نفوس الصّبية والمراهقين، وتؤجج روح الطائفية، وتحرّض - بشكل غير مباشر - ضد أبناء الوطن الواحد ومؤسساته التشريعية والقانونية،

على الرغم من اعترافها المسبق بذلك، ووعودها باتخاذ الإجراءات التصحيحية اللازمة، إلا أنها سرعان ما تراجعَت تحت ضغط التهديد بالاستجوابات البرلمانية، رافعةً الراية البيضاء لمن لبسوا الإسلام لُبَسَ الفرو مقلوباً، وحجّموا الأوطان بحجم عقولهم، وانتماءهم الحزبية والطائفية.

وما زالت وزارة الأوقاف تُؤطّر نفسها في إطار مذهبي أحادي، وتُحجّم عن الانفتاح على الجميع في قضاياهم التي تمسّ الفكر والشريعة، وهي إذا ما أرادت أن تطرق هذا الباب، كانت مسألة الرقابة على المساجد أوّل همومها وشغلها الشاغل في الوقت الذي ينبغي فيه أن تفكّر في كيفية مدّ جسور الثقة، وبناء علاقة متينة قائمة على أساس احترام التنوّع واعتباره مكسباً لإثراء الفكر وتنمية المجتمع ومحاربة التطرف.

وما زالت وزارة الإعلام تتعامل مع الفكر المتطرف والتكفير من خلال ردود الفعل الآنية والمعالجات السطحية والعاطفية، دون أن يجد المواطن أية خطة إعلامية واضحة المعالم تعمل إلى جانب وزارتي التربية والأوقاف في اتجاه استحكام مواد الدستور والتي تنص على أن العدل والحرية والمساواة دعائم المجتمع، والتعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين، وعلى أن تصون الدولة دعائم المجتمع وتكفل الأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص للمواطنين.

لماذا حَرَّمَ الله الربا ؟

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ «البقرة: ٢٧٥».

• لماذا حَرَّمَ الله الربا:

ذكر الفقهاء والمفكرون الإسلاميون أسباباً عديدة لتحريم الربا من خلال آثاره السلبية، وسأتحدث في هذا اليوم عن مفردة واحدة من هذه المفردات والمتعلقة بفلسفة الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي مع ذكر بعض المقدمات: جعل الإسلام الإنتاج وتنمية الثروة وتسخير الموارد الطبيعية لمصلحة الإنسان هدفاً للمجتمع الإسلامي، وقدّم على المستوى الفكري والتشريعي مجموعة من المقومات التي تتحقق من خلالها هذه العملية الحيوية.

فكرياً: حثّ الإسلام على العمل والإنتاج، وقيّمه بقيمة كبيرة، وربط به كرامة الإنسان، وعقله، وشأنه عند الله، فالعامل في سبيل قوته - على سبيل المثال - أفضل عند الله من المتعبّد الذي لا يعمل ويعتاش من غيره. تشريعياً: قدّم الإسلام تشريعات كثيرة تساهم في تحقيق رؤيته في مسألة تنمية الإنتاج، ومن بينها:



١. المنع عن صورٍ من الكسب بدون عمل . مثال ذلك : لو استأجرت أرضاً زراعية من مالكها بمبلغ معين، ثم أجرتها على ثالث بمبلغ أكبر للحصول على التفاوت بين الأجرتين، فإن هذه العملية ممنوعة شرعاً.. لماذا؟ لأن هذا الوسيط بين الفلاح والمالك لم يَقم بأي دور إيجابي في عملية الإنتاج، وإنما يعيش على حسابها بدون خدمة يقدمها إليه، ولو ألغينا دوره فإن هذا سيوفر على الإنتاج من خلال التقليل من تكاليفه.

٢. إعطاء الحق للأفراد في إحياء المصادر الطبيعية والإنتاج من خلالها، كالأرض والمناجم، ولكن في نفس الوقت تمنعهم التشريعات الإسلامية من الاحتفاظ بها إذا جمّدوا العمل فيها وعطلوا عملية الإنتاج، ومن مسؤولية الحاكم حينئذ تشجيعهم على مواصلة الإنتاج والاستثمار ورفع المعوّقات. فإن استمروا في التعطيل كان من مسؤوليته انتزاعها منهم، لأنّ

استمرار سيطرتهم عليها في هذه الحالة يؤدي إلى حرمان الإنتاج من طاقات تلك المصادر وإمكاناتها.

٣. عدم السماح للحاكم بإقطاع فردٍ ما شيئاً من مصادر الطبيعة إلا بالقدر الذي يتمكن الفرد من استثماره والعمل فيه، لأنَّ إقطاع ما يزيد على قدرته يبدد ثروات الطبيعة وإمكاناتها الإنتاجية، كما أنه قد يمنع سائر أفراد المجتمع من الاستفادة من هذه الثروة الطبيعية، فيخلق حالة من الاحتكار والطبقية الواضحة.

٤. تحريم بعض الأعمال العقيمة من الناحية الإنتاجية، كالمقامرة بالمال، التي لا تمثل عملية إنتاجية نافعة للمجتمع، وإن حققت ربحاً استثنائياً لفرد معين - هذا بغض النظر عن آثارها السلبية الأخرى - وقد اعتبرها الإسلام من مصاديق أكل مال الناس بالباطل.

٥. ناتج العمل في الثروات الطبيعية الخام ملك العامل لا المستثمر. كصيد السمك، واستخراج المعادن، وقطع أشجار الغابات، وأمثال ذلك، وبالتالي فليس من حق صاحب المركب، وأدوات الصيد، ووسائل الحفر، وآلات القطع مثلاً أن يملكها، بل له أجره استعمال تلك الوسائل من قِبَل العامل لا غير. هذا التشريع يكسر أي احتكار محتمل للثروات الطبيعية، وتختفي معه سيطرة رأس المال على تلك الثروات.

• غايات اقتصادية واجتماعية:

من خلال هذه المفردات، نقرب من فهم نظرة الإسلام إلى مسألة الإنتاج، وحركة الرساميل، وبالتالي فهم إحدى أسباب النهي عن الربا. فالإسلام بالإضافة إلى السعي لمنع حالة الاحتكار، وبتعبير القرآن الكريم: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ «الحشر: ٧»، وبالتالي منع تشكل طبقة حادة في المجتمع، يريد أيضاً توظيف المال والمصادر الطبيعية في عملية إنتاج حقيقية، تعود على الدولة والأفراد بالفائدة، مع تحريك عجلة التنمية والاقتصاد بصورة حقيقية.

أحياناً نجد ضخاً كبيراً للمال في مجال ما، ولكنه لا يحرك عجلة التنمية والاقتصاد بصورة حقيقية، تماماً كما في المضاربة بالأسهم لشركات وهمية ليس لها وجود إنتاجي خارجي. حركة المال هذه بشراء وبيع الأسهم لا تعود على عجلة التنمية والاقتصاد بفائدة حقيقية.

وهناك فرق بين أن تشتري أسهم لشركة وهمية، وأسهم لشركة حقيقية منتجة في مجال الصناعة أو بناء العقارات أو تقديم الخدمات وغير ذلك.

ولا أريد هنا أدخل في الحكم الشرعي والفتاوى الخاصة ببيع وشراء هذا النوع من الأسهم، ولكن هل يتوافق هذا مع ما قدّمناه من نظرة الإسلام إلى عملية الإنتاج بتوظيف المال واستثمار المصادر الطبيعية؟



ثم فلنلاحظ أن الانهيارات التي يشهدها الاقتصاد العالمي كما حصل في ٢٠٠٨، أو تشهدها بعض المؤسسات المالية كالبورصة، تعود في جانب منها إلى ضخامة حركة المال دون أن يقابل ذلك حركة اقتصادية إنتاجية حقيقية توازيها أو تقاربها، وهذا مما يحاول الإسلام أن يتجنبه في نظامه الاقتصادي.

• لا لتوليد المال بالمال:

نعود إلى مسألة الربا، ففيها لا يتم استثمار المال في عملية إنتاجية مباشرة، بل إن المال هنا ينتج المال.. وهذا مرفوض إسلامياً. أي أن صاحب رأس المال إذا أراد أن ينميه، فعليه أن يحوله إلى رأس مال مُنتج بشكل مباشر، ليساهم في المشاريع الصناعية والتجارية والزراعية، سواء بأسلوب المضاربة، أو الشراكة، أو الإجارة، أو المزارعة، أو غير ذلك من الصور المشروعة.

• سعي لكسر سيطرة الرأسماليين :

إن الربا - بغض النظر عن ترتب الإثم والعقوبة الأخروية وحرمة الفائدة المأخوذة من خلاله - يؤدي عادة إلى حركة المال بصورة خاطئة، تظهر من خلالها طبقة رأسمالية تتجمع لديها الثروات، وتستغل من خلالها حاجات المجتمع، وتنمي رؤوس أموالها على حساب حاجة المستضعفين الذين يمثلون الفئة المنتجة في المجتمع.

وبذلك يتحول العامل إلى إنسان يكدح لمصلحة الرأسمالي من دون مقابل، ما يوجب استنزاف الطاقة المنتجة لغير مصلحتها، دون أن تتوقف سيطرة الطبقة الرأسمالية على الرساميل، بل تتجاوزها لتسيطر على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تضمن لها المحافظة على الظروف التي تمكّنها من الاستمرار في تلبية متطلبات ذلك الجشع اللامتناهي.

بل ومع عولة الاقتصاد، والتداخل الاقتصادي العالمي بتنا تحدث عن سيطرة المستكبرين ونهبهم لثروات الشعوب الضعيفة التي تتحول إلى طاقة استهلاكية لا مجال لها إلا الاستقراض الدائم على حساب حاجاتها الحيوية وعزتها وكرامتها، والبقاء تحت ضغط الشركات الاحتكارية في العالم، والدول التي ترعاها، ولا تبحث إلا عن مصالحها.

١٧

لماذا ندعو بتعجيل الفرج؟

في الكافي عن محمد بن عيسى بإسناده عن الصالحين عليهم السلام قال: (تُكرَّر في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان هذا الدعاء ساجداً وقائماً وقاعداً وعلى كل حال، وفي الشهر كله، وكيف أمكنك، ومتى حضرَكَ من دهرِكَ، تقول بعد تحميد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله: اللهم كن لوليك فلان بن فلان، في هذه الساعة، وفي كل ساعة ولياً وحافظاً وناصرًا ودليلاً وقائداً وعوناً [وعيناً] حتى تُسكنه أرضك طوعاً وتمتعه فيها طويلاً).

ما خلفية دعائنا للإمام المهدي عليه السلام بتعجيل الفرج؟

هل لأن الإمام عليه السلام يعيش في ضيق ووضع سيء على المستوى الشخصي، كما لو كان مسجوناً، أو في ضائقة مالية، أو مطارداً من قبل بعض السلطات الظالمة، أو يشعر بالملل، وأمثال ذلك، فندعو له بتعجيل الفرج لكي يتخلص من هذا الظرف السلبي؟ من الواضح أن المسألة ليست في هذا الاتجاه.. فما هو الاحتمال الآخر؟

أن يكون دعاؤنا له بتعجيل الفرج لمصالحنا الشخصية، أي أن يظهر ليحل لنا مشاكلنا الخاصة، كأن نكون في ضائقة مالية، وندعو له بالفرج كي يظهر

ويحل هذه المشكلة التي تصعب حياتنا اليومية؟ أو أن يكون لنا مرضى ونريد تعجيل فرجه كي يظهر ويشفي مرضانا ببركته أو بالدعاء لهم مثلاً؟ أو أن امرأة ما تعاني من قهر زوجها وظلمه وبطشه، وتريد الخلاص من هذا الوضع السلبي المتكرر بتعجيل فرج الإمام وظهوره؟

• تحجيم دور الإمام:

فعلاً ارتباط البعض بالإمام محجّم بهذه النظرة الضيقة، فهو يربط مسألة الغيبة والإمامة والظهور وما إلى ذلك بظروفه الشخصية ومصاعبه.. هكذا هي قصص اللقاء به.

فالإمام يظهر لكي يرشد شخصاً أضاع طريقه في الصحراء.. ويظهر لكي يُردف فلاناً على بغلته ويوصله إلى قافلته التي تخلف عنها في السفر.. والإمام يظهر لكي يزيل الحيرة عن مسألة شرعية فرعية لا تُقدّم ولا تؤخّر... من المفترض أن المسألة ليست في هذا الاتجاه، بل من السداجة ربط مسألة المهدوية والغيبة والظهور وتعجيل الفرج بقضايا الشخصية.. فما هو الاحتمال الآخر؟

أن يكون دعاؤنا له بتعجيل الفرج لكي يظهر ويخلصنا من الخلافات الفقهية، ويوحّد الرسالة العملية، فنعرف أن تكليفنا في الحالة الفلانية هل هي الصلاة قصراً أم تماماً، وهل نعيد الطواف عند تذكر وجود نجاسة في ثوب الإحرام أم لا حاجة إلى ذلك، وهل يبطل الوضوء لو لمسنا صنوبر

الماء قبل مسح الرأس أم لا... أيضاً المسألة ليست في هذا الاتجاه، وإن كانت هي نتيجة مفترضة لظهوره، إلا أن الدعاء لتعجيل الفرج له لا ينصب لهذا الغرض. فما وراء هذا الدعاء؟ وما هو الضيق الذي يعاني منه أو نعاني منه فندعو له بالفرج؟

• الدور المنتظر للإمام المنتظر:

الجواب يكمن في الحديث النبوي المتفق عليه إجمالاً: (لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً، ثم يخرج رجل من عترتي فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً) وفي بعضها جوراً بدل عدواناً.

فالدعاء بتعجيل فرجه يجب أن ينصب في الأساس في هذا الاتجاه، وهو غرض رسالي، تماماً كما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

والآية تبين غاية إرسال الرسل التي تلتقي بغاية ظهور المهدي في آخر الزمان.. تحقيق وتمكين العدل والقسط بين الناس.. والدعاء بتعجيل الفرج يجب أن يكون لتحقيق هذه الغاية الرسالية. ولنلتفت إلى ما ذكرته الآية في خواتيمها: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.. أي عندما نفتقد من يرسلهم الله لهداية الناس وإقامة العدل فيهم، هل نقوم نحن بهذه المسؤولية الرسالية؟ هل نصر الله ورسله؟



وبالتالي فمن يدعو بتعجيل الفرج يجب أن يكون إنساناً رسالياً، ناصراً
 لدين الله، ساعياً نحو العدل، متحملاً مسؤولياته في هذا الاتجاه.. كما
 قال الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ «التوبة: ٧١»، وكما قال النبي ﷺ في ما روي عنه:
 (كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)، وإلا فسيكون دعاؤه مردوداً
 عليه.

• مشروع الإمام المهدي:

إن الله عز وجل يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
 وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.. هذا هو مشروع
 المهدي عليه السلام كما كان مشروع الرسل.. سواء عند الذين يؤمنون بولادة

المهدي وَغَيْبَتِهِ أَمَ عِنْدَ مَنْ سِوَاهُمْ.. فَهَلْ يَكُونُ مَنْ لَا يَعْرِفُ لِلْعَدْلِ مَعْنًى فِي بَيْتِهِ، وَحَيْثُ يَعْمَلُ، وَفِي السُّوقِ، وَفِي الشَّارِعِ، وَفِي تَعَامُلَاتِهِ مَعَ النَّاسِ، عَمُومِ النَّاسِ، مُسْلِمِهِمْ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِ، هَلْ يَكُونُ نَاصِرًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ بِالْغَيْبِ، لِتَكُونَ حَرَكَتُهُ فِي ذَاتِ اتِّجَاهِ حَرَكَةِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ، فَيَتَطَّلَعُ أَنْ يَعِيشَ لِحِظَةِ ظُهُورِهِ فَيَكُونُ مِنْ أَنْصَارِهِ؟

وَهَلْ مِنْ حَقٍّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى تَمْزِيقِ الْأُمَّةِ، وَإِثَارَةِ الْأَحْقَادِ الطَّائِفِيَّةِ، وَتَمْكِينِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ تَحْقِيقِ مَشَارِيْعِهِمُ الْاِسْتِكْبَارِيَّةِ أَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَلَهِّفِينَ لِقِيَامِهِ وَالْمُسْتَعِدِّينَ لِنُصْرَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ عَلَى تَدْمِيرِ الْمَشْرُوعِ الْإِلَهِيِّ الْمُتَمَثِّلِ فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ «آل عمران: ١٠٣»؟

وَهَلْ يَكُونُ مَنْ لَا يَعِيشُ إِلَّا هَمَّ نَفْسِهِ وَلَا يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّتَهُ الرِّسَالِيَّةَ، أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَدَعْوَةً إِلَى الْخَيْرِ، إِنْسَانًا رِسَالِيًّا، كَيْ يَدْعُو بِتَعْجِيلِ الْفَرَجِ بِظُهُورِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «آل عمران: ١٠٤»؟ إِنَّهَا التَّنَاقُضَاتُ الَّتِي يَعِيشُ عَلَيْهَا كَثِيرُونَ، وَيَخْدَعُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِهَا أَبْنَاءَهُمْ، وَسْتَذْهَبُ أَدْرَاجُ الرِّيحِ، مَا لَمْ يُصْلِحُوا أُمُورَهُمْ، لِيَكُونُوا حَقًّا مِنَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ، وَلِيَكُونُوا صَادِقِينَ فِي دَعَائِهِمْ لِلْمَهْدِيِّ بِتَعْجِيلِ فَرَجِهِ.

الفهم المخلوط لانتظار الفرج

١٨

تحدثت في المقال السابق عن الفئة التي وإن كانت تعيش حالة الإيمان بالمسألة المهدوية، إلا أنها لا أبالية تجاه مسؤولياتها الرسالية في عصر الغيبة، وهي المسؤوليات التي تلتقي مع المشروع المهدوي في عصر الظهور.

• مسؤولية سلبية:

إلى جانب هذه الفئة هناك فئة أخرى تعيش حالة من المسؤولية تجاه المشروع المهدوي، إلا أنها تتجه فيها اتجاهاً غريباً يتعارض مع أسس الإسلام وتعاليمه، ومع حكم العقل ومنهج الفطرة، حيث تعتبر أن من مسؤوليتها المساهمة - أو على الأقل اتخاذ الموقف السلبي - تجاه المقدمة الحتمية للظهور، وهي أن تُمَلَأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً.

هذه الفئة تعتبر أن أية جهود تُبذل لرفع الظلم، ومحاربة الفساد، ومواجهة الباطل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، هي بمثابة السعي لتأجيل الظهور لا لتعجيله.

وفق إحدى منشورات أصحاب هذه الدعوة فإن مسؤولية الشيعة خلال فترة الغيبة تتمثل في :

انتظار الإمام المعصوم - تقليد مرجع ديني - الحزن لغياب الإمام - الصلاة لتعجيل الفرج - البكاء على غيبته - الخضوع لإرادة الإمام في تحديد زمن الظهور - دفع الصدقة لصحة الإمام ورفاهه.

وقد بدأت هذه الفئة بالظهور في إيران في منتصف خمسينيات القرن العشرين، كما ظهرت في تسعينياته في العراق فئة تحمل ذات التوجه ولكن بمسمى آخر، واتُهمت بارتكاب جرائم اغتيال بحق مراجع وعلماء في النجف الأشرف وخارجه من فضحوا ممارساتها، ووقفوا ضد انحرافاتهما. فما هي جذور هذه الفكرة الغريبة؟

• ذم الخروج قبل الظهور:

١. النصوص الناهية أو الدائمة للخروج في وجه الباطل، أو الداعية إلى السلبية والسكوت من قبيل :

ما روي عن جابر عن الباقر عليه السلام أنه قال : (يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان... قال جابر: فقلت: يابن رسول الله، فما أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان؟ قال: حفظ اللسان، ولزوم البيت). وعن الصادق عليه السلام: (كل راية تُرفع قبل قيام القائم عليه السلام فصاحبها طاغوت). وعن السجاد عليه السلام أنه قال: (والله، لا

يُخْرِجُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْلَ خُرُوجِ الْقَائِمِ إِلَّا كَانَ مِثْلَهُ كَمِثْلِ فَرِّخٍ طَائِرٍ، طَارَ مِنْ وَكْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوِيَ جَنَاحَاهُ، فَأَخَذَهُ الصَّبِيَّانُ فَعَبَثُوا بِهِ. مَا خَرَجَ وَلَا يُخْرِجُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَى قِيَامِ قَائِمِنَا أَحَدٍ، لِيُدْفَعَ ظُلْمًا، أَوْ يُنْعَشَ حَقًّا إِلَّا اصْطَلَمَتْهُ الْبَلِيَّةُ، وَكَانَ قِيَامُهُ زِيَادَةً فِي مَكْرُوهُنَا وَشِيعَتِنَا).

وهذه النصوص معارضة للآية القرآنية التي تحدثت عنها في الأسبوع الماضي والتي تبين مسؤولية المؤمنين في عصر الغيبة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

كما أن بعضاً منها يخصّ الظروف التاريخية في زمن صدور النص، وبعضها يتعلق بالرايات التي تدّعي المهدوية أو العلاقة المباشرة بالمهدي في زمن الغيبة زوراً، ويشتم من بعضها رائحة الوضع من قبل السلطات. ولو افترضنا صحة صدور بعضها - وهو مجرد فرض لا أكثر - فإنها تخص النهي عن رفع السيف والثورة المسلحة، لا أنها تنهى عن مطلق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإصلاح، ومواجهة الفساد بصورة المختلفة، الاجتماعية منها والثقافية والأخلاقية والتربوية والاقتصادية، بالوسائل السلمية والأساليب الحضارية.

ثم هل يُعقل أن يتم تعطيل فرائض الله لأكثر من ألف سنة؟ والله عَزَّوَجَلَّ

يقول: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبَسِّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعْلَهُمْ يَنْتَقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنحَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ بَأْسًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤ - ١٦٥).

• الهروب إلى الأمام:

٢. الفهم الخاطيء للمسألة المهدوية، باعتبارها دعوة للانهازام والتراخي والكسل في انتظار تحقق الفرج المحتوم في آخر الزمان، وأن لا فائدة من القيام بأي عمل إيجابي في الوقت الذي تخبرنا فيه النصوص أن مسار التاريخ سيكون نحو المزيد من الظلم والعدوان والفساد؟ وأن الحل سيكون بيد المهدي عليه السلام فحسب.

وهذا ما دفع أحمد أمين أن يعتبر المهدوية هروباً إلى الأمام: (إن الشيعة فشلوا أول أمرهم في تكوين مملكة ظاهرية لهم على وجه الأرض وعذبوا وشردوا كل مشرد فخلقوا لهم أملاً في الإمام المنتظر المهدي).

والواقع أن مسؤولية المؤمنين في كل زمان لا تتغير في عناوينها الكبرى، وإن تغيرت من حيث الأساليب والاستراتيجيات، وعليهم تحملها، وإلا

كانوا عاصين لله ومعاقبين، ولن يكون المآل التاريخي معذراً لهم في التنصل من تلك المسؤوليات.

• الحاجة إلى الأنصار:

٣. التصور الخاطيء لكيفية تحقق النصر على يد الإمام المهدي عند الظهور، وكأن المسألة تعتمد يومذاك على عدد محدد من الأفراد يزدون على الثلاثمائة بقليل، يعضدهم المدد الإعجازي، لتنتهي المسألة في غضون أسابيع أو بضعة أشهر، وما على المؤمنين إلا حصاد النتيجة والاستمتاع بآثار النصر المهدوي. وهم في غفلة عن أن هذه الروايات - إن صحّت - فإنما تتحدث عن القادة، وأن مخاضات النصر المهدوي تحتاج إلى عشرات الآلاف من الأنصار على الأقل.

ثم ماذا عن مرحلة ما بعد النصر وإدارة الدولة؟ ألا تحتاج هي بالتبع إلى الفئات المؤمنة والرسالية ذات الاختصاصات المختلفة والتي ستأخذ على عاتقها مسؤولية إدارة دولة العدل المهدوية؟

• الأصولية المسيحية والمؤمنون بالمهدوية:

وكما تؤمن الأصولية المسيحية بضرورة مساعدة اليهود على قيام دولتهم ودعم الصهيونية العالمية لتستبد وتنشر الظلم والفساد ما أمكن لغرض تحقيق المقدمة المطلوبة لظهور السيد المسيح عليه السلام في آخر الزمان، وقيام معركة «هرمجدون» التاريخية الفاصلة على أرض فلسطين المغصوبة



تصور مسيحي لمعركة هرجدون

لتتحقق على يديه مملكة الله تَعَالَى على وجه البسيطة.. كذلك يدعو بعض المؤمنين بالمسألة المهدوية إلى السلبية أو المساعدة على نشر الظلم والفساد من أجل تحقيق المقدمة المطلوبة كما في الحديث النبوي: (لا تقوم الساعة حتى تُمَلَأَ الأرض ظُلماً وجوراً وعدواناً...). وكلاهما في غفلة عن أن الله قد كَلَّفَ عباده في كل زمان ومكان ليكونوا المؤمنين الصالحين الداعين إلى الخير والأمينين بالمعروف والناهيين عن المنكر والرافضين للظلم والمحاريين للفساد، وإلا عَمَّهم العقاب الإلهي من خلال سلبيتهم أو دعوتهم إلى الباطل. وقد جاء التحذير النبوي بَيِّنًا حيث قال ﷺ: (والذي نفسي بيده؛ لتَأْمُرَنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوْنَ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُسْتَجَابَ لكم).

رحلة مع تشريع الصيام

١٩

قال الله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ «البقرة: ١٨٥».

في سورة البقرة خمس آيات تتحدث عن صيام شهر رمضان.. وفي هذه الآيات عدة معطيات، من بينها:

• معنى إنزال القرآن في رمضان:

١. توقيت الصيام في خصوص شهر رمضان دون سائر الأشهر، وربط هذا الشهر بإنزال القرآن الكريم، وهنا عدة احتمالات - بحسب العلماء - في فهم المراد من إنزاله في هذا الشهر، ومن بينها:

• الاحتمال الأول:

اقتران إنزال الآيات الأولى من القرآن بالبعثة، وهذا يعني أن البعثة النبوية كانت في ليلة القدر من شهر رمضان، وليس في السابع والعشرين من شهر رجب.

• الاحتمال الثاني :

لا اقتران بين الأمرين، فالبعثة - بمعنى تكليف النبي ﷺ بالرسالة - كانت في السابع والعشرين من شهر رجب، ثم بدأ إنزال القرآن الكريم في ليلة القدر من شهر رمضان.

• الاحتمال الثالث:

أن الله أنزل حقيقة القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، وبحسب العلامة الطباطبائي: (لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يُقضى فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدرج)، ثم في شهر رجب من السنة اللاحقة كُلف النبي بالرسالة، وأنزلت عليه الآيات الأولى من القرآن.

هذا الربط بين شهر رمضان وبين إنزال القرآن جاء لبيان اكتساب الشهر أهميته من خلال ذلك، أي أن القرآن أعطى الأهمية لهذا الشهر، ولربما من هنا جاء تشريع الصيام لاحقاً في هذا الشهر دون سائر الشهور.

• رمضان والهداية:

ثم وحيث ذكر القرآن في الآية، كُرِّر عنوان الهداية مرتين: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وفي هذا إحياء بأنه الله يريد لهذا الشهر أن يكون شهر هداية للناس انطلاقاً من القرآن الكريم، وهذا يستلزم:

أ- الاهتمام بتلاوة كتاب الله، وختمه في هذا الشهر ولو مرة واحدة. وقد وردت أحاديث عدة في الحث على ذلك، ومنها ما عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: (من قرأ في شهر رمضان آية من كتاب الله، كان كمن ختم القرآن في غيره من الشهور).

ب - التدبر في آيات القرآن والاطلاع على معانيها ومفاهيمها، لأن الهداية لا تتحقق من خلال التلاوة فقط.. ثم تعرض نفسك على القرآن لترى إلى أي مدى تلتقي في إيمانك وعبادتك وأخلاقك وعملك مع صورة الإنسان المؤمن المتقي كما قدمها القرآن، والتي يستحق من خلالها الجنة، ويتقي من خلالها عذاب النار.

ج - الطلب من الله عز وجل أن يفتح لك أبواب الهداية من خلال القرآن، وأن يشرح قلبك، وأن يجعل القرآن هو المرجع الفيصل في ما يختلف فيه الناس، لأن فيه الفرقان بين الحق والباطل.

د- وكلما مررت بآية فيها ذكر لنعيم، سألت الله منه، وكلما مررت على آية فيها ذكر لعذاب، تعوذت بالله منه.

هـ - التسليم والتصديق بآياته وإن غمض علينا شيء منها، وأن لا نجعل جهلنا لشيء منها سبباً للطعن في القرآن. وكما في دعاء ختم القرآن للإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية حيث قال: (فَجَعَلْنَا مَنْ يَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَدِينُ لَكَ بِاعْتِقَادِ التَّسْلِيمِ مُحْكَمِ آيَاتِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى

الإقرار بِمُتَشَابِهِهِ وَمَوْضَحَاتِ بَيِّنَاتِهِ.. وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ حَتَّى لَا يِعَارِضَنَا الشَّكُّ فِي تَصَدِيقِهِ وَلَا يَخْتَلِجَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ). وما أكثر شياطين الإنس الذين يسعون اليوم لتشكيك شبابنا بمصداقية كتاب الله، مصدراً وتاريخاً ومضموناً.

• الإعانة على الغرائز:

٢. يريد الله للصيام أن يعيننا على غرائزنا التي تدفعنا في كثير من الأحيان إلى ارتكاب المعاصي، فالإنسان يقع تحت ضغط مثلث: الغرائز والشهوات - الملذات الخارجية - وساوس الشيطان. وهذا الأخير يقوم بدور السمسار «التزيين والإغراء» بين الغرائز والملذات الخارجية.

وبالتالي نحن ممنوعون عن عدة أمور خلال ساعات نهار شهر رمضان، ولكن عمدة الأمر غريزتان مرتبطتان بالفرج والبطن.. أي الجنس والأكل والشرب. من أقوى الغرائز التي تدفع الإنسان لارتكاب المعصية.

لاحظ الآية «١٨٧»: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هذا بخصوص الغريزة الجنسية، ثم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

ومن هنا نفهم لماذا قال الإمام محمد الباقر عليه السلام فيما روي عنه: (ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج)... فهل نحقق هذه الغاية - فعلاً - في شهر رمضان؟



• إرادة ضعيفة:

أما بالنسبة إلى الطعام والشراب، فعند رفع أذان المغرب تشهد موائدنا حالة أشبه ما تكون بالانتقام من المنع عنهما.. مبالغة في التنوع، وإسراف في الكم، ونهم في التناول، واستمرار في التملّي إلى قبيل أذان الفجر.

فكيف يرجو الصائم بعد هذا أن يحقق الصيام في شهر رمضان غاية مهمة من غاياته؟ وهكذا الأمر بالنسبة إلى ما له علاقة بالغريزة الجنسية.. حيث يدمّر الصائم الرصيد القليل من العفة والحصانة وضبط النفس التي حققهما خلال سويغات النهار، عند الإقبال على شاشات التلفزة مما يحتوي من مثيرات الغريزة ما لا يُحصى.

والمحصلة في النهاية ستؤثر على الغاية المنشودة من تشريع الصيام كما

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «البقرة: ١٨٣».

• الاستفادة من رمضان:

لقد أراد الله عز وجل للإنسان أن تكون له الإرادة القوية التي يوجهها في الخير والعمل الصالح، والتي يتغلب من خلالها على نوازع الشر والمعصية.

وشهر رمضان بمثابة الفرصة التي يحقق الصائم من خلالها هذه النتيجة بمستوى ما، إلا أننا نشهد أن كثيراً من الصائمين في شهر رمضان يختمون شهرهم دون أن يخرجوا برصيد مهم على هذا الصعيد، لأن تركيزهم ينصب على التعامل الآلي والجامد مع هذه العبادة، ويغفلون عن أبعاد تشريعها وآثارها. فالمسألة بالنسبة إليهم لا تتجاوز الامتناع فعلياً عن المفطرات لسويغات معدودة، بينما يبقى القلب مشدوداً إليها، منشغلاً بها، مهموماً حزيناً، ينتظر بفارغ الصبر انقضاء تلك السويغات، ليُقبل الصائم بكل نهم - وبإسراف - على ما مُنع عنه، ولينشغل خلال ساعات الليل في الأجواء اللاهية والممارسات العبثية بما يدور له تلك الإرادة القليلة التي ربما تحققت من خلال الصيام. إن القرآن الكريم يخبرنا أن التقوى غاية الصيام، فهل سيحقق لنا صيامنا هذا العام تلك الغاية؟ سؤال برسم الإجابة..

التضليل المملو ماتني

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ «آل عمران: ٧٨».

اعتاد ذوو النوايا الخبيثة، وأصحاب المصالح الضيقة ممن لا يخافون الله، والمتعصبون، أن يستخدموا أسلوب التضليل المعلوماتي كذباً، أو تحريفاً، أو تلاعباً بالكلمات:

١. من أجل توجيه الرأي العام لصالحهم
٢. أو في إطار الحرب النفسية في أجواء الصراعات الفكرية والميدانية
٣. أو من أجل تحقيق الانتصار على الخصوم في الجدالات والحوارات القائمة بينهم

والآية السابقة وإن كانت تتحدث عن واحدة من الأساليب التي لجأ إليها يهود المدينة في حربهم الخفية ضد المسلمين للتشكيك في رسالة

النبي ﷺ، وزلزلة ثقة المسلمين بنبيهم وكتابه، وإثارة الفتن الفكرية في مجتمع المسلمين، إلا أنها تمثل نموذجاً لأسلوب التضليل المعلوماتي والإعلامي كما جاء في التعريف السابق.

• الجماعات التكفيرية والتضليل المعلوماتي:

واليوم، نجد الجماعات التكفيرية تستخدم ذات الأسلوب في التضليل المعلوماتي والإعلامي من أجل تصوير ما تتبناه من أفكار ومفاهيم ضالة، وما تمارسه على أرض الواقع من صور الإجرام والوحشية وأعمال الإبادة على أنه من صُلب الإسلام، وأنها تعمل بكتاب الله عزَّ وجلَّ وتلتزم سنة رسوله ﷺ في كل ذلك.

وقد نجحت الجماعات التكفيرية بهذا الأسلوب التضليلي في خداع الكثيرين من البسطاء، أو المتعصبين مذهبياً، أو الذين سلَّموا عقولهم لكي تحشوه لهم وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي بما شاءت، متأمِّلين أن يكون هذا المشروع الاستخباراتي اللقيط إحياءً لدولة الخلافة الراشدة.

وللأسف أن ذاكرة الناس قصيرة الأمد جداً، فقد تناسوا أهوال دولة التكفير الطالبانية وجرائمها في أفغانستان، ووقعوا ضحية هذا التضليل المعلوماتي والإعلامي الذي مارسه التكفيريون الجدد.

ثم صُدم المجتمع الكويتي في مثل هذه الأيام من العام الماضي بجريمة مهولة لم يعرف لها من قبل نظيراً، حيث قام التكفيريون بعملية التفجير

الأثم والغادر لمسجد الإمام الصادق عليه السلام في يوم الجمعة.. في شهر رمضان.. في بيت من بيوت الله.. فقتلوا وأصابوا ودمروا ما بقيت آثاره قائمة إلى هذا اليوم.

ورُب ضارة نافعة... حيث توحد أهل الكويت ومن يعيش على أرضها - إلا من شدَّ منهم - بعد أن قام سمو الأمير بحكمةٍ واقتدارٍ بقيادة وتوجيه مسار الأحداث اللاحقة، بما يحقق للكويت أمنها واستقرارها ووحدتها في مواجهة هذا الحدث الرهيب، والفتنة التي أريد إيقاعها في البلد.

• صحافة محلية غير مسؤولة:

وتمضي الأيام، وتعاني بعض دول المنطقة من ذات الجماعات التكفيرية، فإذا ببعض وسائل إعلامنا - ولا سيما الصحافة المحلية - تعود لتمارس ذات الدور الممجوج في التضليل المعلوماتي والإعلامي بما يصبُّ في صالح تلك الجماعات التكفيرية التي نشأت من رحم حزب البعث أو تحالفت معه، فجمعت من ذي وذاك كل صور الإجرام والإرهاب والفكر الإقصائي والمتطرف.

• أسس التضليل:

يقول «د. ذياب الطائي» في كتابه «التضليل الإعلامي من صناعة الخبر إلى صناعة السينما» أن التضليل يتحقق من خلال ثلاثة أمور:

١. عدم تقديم المعلومات إلى المتلقي كما هي

٢. إجراء التعديلات في النص أو في الصورة بشكل مدروس ومنهجي مما يؤدي إلى تغيير في المفاهيم

٣. خلق واقع جديد لا علاقة له بالواقع المتحقق فعلاً، وذلك بهدف خدمة مصالح أو أغراض خاصة

وهذا بالفعل ما تقوم به بعض وسائل الإعلام المحلية، فمن أساليبها التلاعب بالكلمات، حيث يتحول «تحرير الأرض» إلى «الهجوم على البلدة الفلانية»، ويتحول «إنهاء مرحلة في الحرب» إلى «إيقاف قسري بسبب شدة المقاومة»... ومن هو المحتل الذي يقاوم بحسب تعبيرها؟ هم التكفيرون!

• التهويل لمصلحة من؟

ومن أساليبها صياغة العناوين ومضامين الأخبار بشكل يؤدي إلى التهويل من قوة التكفيريين «٢٠٠٠٠ من القوات الحكومية والشعبية لطرد ٦٠٠ مقاتل».. لخدمة من يتم هذا الأمر؟ ولم يتم التغافل عن تحصن هؤلاء التكفيريين بالأهالي مما يجعل عملية طردهم أمراً عسيراً؟

ولا يغيب عنها توجيه الأخبار توجيهها طائفيًا وكأن الحرب القائمة حرب طائفية يشنها الشيعة ضد السنة، حيث تجد أن كلمة الشيعة في جهة، وكلمة السنة في جهة أخرى، لا تغيبان عن صياغة تلك الأخبار، بينما المعركة تدور ضد التكفيريين!

ولا أدري كيف تتناسى وسائل الإعلام هذه جريمة الغزو الصدامي البعثي للكويت، وكيف تتناسى جريمة تفجير مسجد الإمام الصادق عليه السلام من قبل التكفيريين، وأن العدو واحد، وهو يتربص بأمن الكويت كما يتربص بأمن دول المنطقة بلا تمييز، ثم تمارس دور التضييل المعلوماتي والإعلامي؟! • حذار ثم حذار:

الكلمة مسؤولية، وعلى وسائل الإعلام - وخاصة الصحافة المحلية - أن تتحمل مسؤوليتها تجاه الكلمة الصادقة، وأن تتحلى بالموضوعية، وأن لا تنساق وراء اللعبة الطائفية التي ليست سوى فتنة لا ترحم أحداً، ولا تخدم أحداً.

إن الاعتداء الإرهابي الذي وقع العام الماضي في مسجد الإمام الصادق عليه السلام لم يكن عدواناً على أبناء طائفة بعينها، بل كان عدواناً على الكويت وعلى أهلها ومن يعيش على أرضها بكل تنوعاتهم.. وما تتعرض له الدول المحيطة بنا من إرهاب هؤلاء التكفيريين يُلزم وسائل الإعلام أن تتعامل بكل صدق مع الأخبار والتحليل المتعلقة بها، وأن لا تمارس التضييل الإعلامي تهويلاً لقوة التكفيريين، وزجاً بالمسألة الطائفية وتلاعباً بالكلمات، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالعدو واحد، وهو عدو لا يعرف سوى القتل والدمار والجريمة والعدوان.

إرهاب أم إقامة حدود؟

﴿وَلَوْ طَآئِنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٤).

ذكرت في أكثر من مناسبة أن ارتدادات الأعمال الإرهابية الإجرامية التي يقوم بها التكفيريون لا تقف عند حد البعد الأمني والموت والدمار المادي، بل تتعدى ذلك لتؤثر في البعد الإيماني والفكري أيضاً.

فمع كل جريمة يرتكبها هؤلاء الإرهابيون تبرز التساؤلات والتشكيكات من قبل المهتمين، ومن قبل الملحدّين المتربّصين بالحالة الإسلامية، ومن قبل عامة الناس، حول بعض المفردات الإيمانية والتشريعية في الإسلام.

هذه التساؤلات والتشكيكات تؤثر من خلال طرحها على شريحة الشباب سلبياً، وإن لم يتم التصدي لها وقعت هذه الشريحة ضحية تراكم تلك الشبهات، لتصل بهم في نهاية المطاف إلى نتائج فكرية خطيرة.

• جريمة أورلاندو:

آخر الأحداث البارزة في هذا الإطار على الصعيد الدولي: الهجوم على ملهى خاص بالمنحرفين جنسياً بمدينة «أورلاندو» الأمريكية.



وإن كنت قد ذكرت في مقال سابق أن علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية من أجل تثبيت وجهها القبيح، إلا أن للملاحظة التي أبداها بعض العلماء بقبح اشتقاق اسم هذه الفاحشة من اسم نبي كريم من جهة أخرى، كلا السببين يدفعانني إلى الحديث عنها بالكناية.

• تشريع الحدود والقتل الجماعي:

والشبهة التي طُرحت عقيب وقوع الجريمة مباشرة هي: أليست هذه الجريمة هي حصاد التشريع الإسلامي المتشدد بخصوص عقوبة مرتكبي هذه الفاحشة؟

فالشاب الملتزم بالشريعة الإسلامية يدرس في الفقه أن العقوبة هنا تصل إلى حد الإحراق مثلاً.. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية عامة.. وأن الموت في طريق أداء هذه المسؤولية الشرعية يعد قتلاً في سبيل

الله، وتبلغ مرتبة الشهادة.. وبالتالي ما فعله هذا الشاب عبارة عن تنفيذ لحكم الشرع بأولئك المنحرفين.

• رد الشبهة:

وأسجل هنا ملاحظاتي رداً على الشبهة السابقة:

١. لاشك ولا ترديد في أن ممارسة هذه الفاحشة من كبائر الذنوب، وقد عاقب الله بالدمار تلك القرية التي كانت تستحل ذلك لما عاندت نبيها واستكبرت. قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ (هود: ٨٣).

٢. مرتكب هذه الفاحشة يستحق عقوبة الحد الشرعي وفق التفصيل الموجود في فتاوى الفقهاء.

٣. ولكن، مرتكب هذه الفاحشة الذي يقام عليه الحد يجب أن تثبت فعلته بطريقة لا شبهة فيها، ووفق شروط مشددة يندر تحققها على أرض الواقع.

فعند إخواننا أهل السنة نقرأ الفتوى التالية التي تنص على أن ثبوت هذه الفاحشة لا تتم (إلا بإقرار لا يرجع عنه صاحبه، أو بشهادة أربعة عدول، يصرحون بأنهم شاهدوا «دخول فرج أحد الرجلين في دبر الآخر، كدخول المروء في المكحلة» ولا يشك أحد منهم في ذلك، ولا يرجع عما شهد به. فإن لم يكن أحد الشهود عدلاً، أو لم تكن الرؤية التي أخبر عنها دقيقة، أو رجح

عن شهادته، فإنهم يُحدّون حد القذف . وعلى أية حال إقامة حد «اللوّاط» إنما هو من اختصاص السلطان أو نائبه، ولا يجوز لأحد الناس قتل من فعل ذلك، ومن قتله من غير أن يثبت عليه كان مستحقاً للقتل قصاصاً).

وعند الشيعة نجد النص التالي عند السيد الخوئي وبصورة أكثر تشديداً حيث قال : (ويثبت بشهادة أربعة رجال وبالإقرار أربع مرّات، ولا يثبت بأقلّ من ذلك. ويعتبر في المقرّ: العقل، والاختيار، والحرّيّة).

وبالتالي من الذين كانوا في الملهى ذهب إلى الحاكم الشرعي وأقر بارتكابه الفاحشة كي نقول أنه قد ثبت بحقه الحد؟

وإن لم يكن بالإقرار، فمن هم الشهود العدول الأربعة الذين شاهدوا ارتكاب الفاحشة بالصورة التي ذكرناها من قبل الحضور بأجمعهم، ثم شهدوا عند الحاكم الشرعي بذلك بالصورة التي جاءت في الفتوى؟

إذاً، وبعيداً عن الدخول في تفاصيل طبيعة الحد الذي يقام عليهم، يجب أن ندرك أن إثبات وقوع هذا الشيء نادر الحدوث جداً.. ومن يخطيء ويذنب، بإمكانه أن يتوب مع الله توبة حقيقية، وهذه التوبة السرية أفضل من الإقرار على النفس أمام الحاكم الشرعي.

• كيف تصرّف الإمام علي؟

في الحديث الصحيح أن رجلاً أقر على نفسه بارتكاب هذه الفاحشة أمام علي عليه السلام وهو في جمع من الملاء، فقال له الإمام: (يا هذا، امض إلى



منزلك لعلّ مراراً هاج بك) أي لربما حصلت لك لوثة عقلية أو خلل نفسي جعلك تتوهم ذلك.. فلمّا كان من غد عاد الرجل وأقر من جديد ورده الإمام بنفس الحجة.. إلخ الخبر.

فالإسلام لا يبحث عن أفراد يقيم عليهم الحد، بل يريد للمجتمع أن ينصلح، والأولوية أن يصلح الناس أحوالهم، فإن بلغت الأمور مستوى يستدعي إقامة الحد من خلال التجاهر بالفاحشة بتلك الصورة التي يشاهدها عدول أربعة، عندها أصبحت إقامة الحد مسألة لا مفر منها، ولكن بشرط أن تتم من قبل الحاكم الشرعي ووفق ضوابط معينة، لا بالأعمال الفردية وبالطريقة العشوائية وبالأساليب الإجرامية.

٤. الفوضى والقتل الجماعي ليس من الإسلام بشيء. هناك قوانين شرعية ومحاكمات وشروط مشددة في القضاة والشهود، والمحاكمات يجب أن تكون شفافة، والحدود تُدْرَأ بالشبهات... إلخ.

• أساليب إجرامية بعنوان الحدود:

إن الأساليب الإجرامية التي يرتكبها التكفيريون من خلال القتل الجماعي والأعمال الإرهابية بحق أهل المنكرات بحجة الدفاع عن دين الله وتطبيق شرعه وتطهير الأرض من الفواحش، أساليب لا تخدم الرسالة الإسلامية ولا الدعوة إلى الإسلام أبداً، ولا تحقق شيئاً في اتجاه القضاء على المنكرات والفواحش، وليست من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء، وكل ما يترتب عليها هو المزيد من التأكيد على الصورة المشوهة التي تعمل بعض الأطراف من داخل المجتمعات المسلمة ومن خارجها على تقديمها على أنها صورة الإسلام، والإسلام لا يدعو إلى الفوضى في تطبيق العدالة القانونية وتطبيق نظام العقوبات، بل هو يقنن ذلك النظام ضمن ضوابط وتشريعات مشددة، ومن خلال قنوات محددة تستدعي في الحاكم الشرعي أن يكون على مستوى عالٍ من العلم والتأهيل والتقوى.. كما يبقى المتهم بريئاً ما لم تصل الأدلة مستوى عالٍ من الإثبات تنفي من خلالها أي شبهة في البين.

مَثَلُنَا عَلِيٍّ وَمَثَلُهُمُ الْحَبَايِجُ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ «المتحنة: ٦».

للمثل العليا التي يقدمها الدين، أو المذهب، أو الموروث التاريخي، دور مهم في صياغة السلوك الإنساني للمنتمين إلى ذلك الدين أو المذهب أو المجتمع. لذا حرص القرآن الكريم على أن يقدم نماذج عديدة عبر التاريخ لأفراد يستحقون أن يكونوا أسوة للأجيال المؤمنة.. تُسترجع تجاربهم، و يُهتدى بهداهم.

• امتداد بعمق التاريخ البشري:

ففي الآية الرابعة من سورة المتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.. عمق وامتداد عبر التاريخ إلى ما قبل ألفي سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.. أي أكثر من ٢٦٠٠ سنة من حين نزول هذه الآية، وتقديمهم كنموذج للتأسي بهم من قبل المؤمنين برسالة نبينا الأكرم محمد ﷺ.

ومن هنا يأتي حرصنا - في مدرسة أهل البيت عليهم السلام - على استرجاع

سيرة قادتنا وأئمتنا عليهما السلام، وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في ذكريات مواليدهم ووفياتهم، وهو ما يأتي تناغماً مع وصاياهم بإحياء أمرهم .. (أحيوا أمرنا. رحم الله من أحيأ أمرنا).

• مثل من سيرة الإمام علي:

وفي سيرة علي عليه السلام نجد المشاهد التالية:

١. قال عليه السلام كما في الخطبة ١٤ من نهج البلاغة، وهو يوصي أنصاره في حرب الجمل بعد أن جهد ليصرف القوم عن القتال: (لا تُقاتلوهم حتّى يبدؤوكم، فإنكم - بحمد الله - على حُجّة، وترككم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حُجّة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة) أي هزيمة العدو (بإذن الله، فلا تقتلوا مُدبراً، ولا تُصيبوا مُعوراً، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى).

٢. وفي الخطبة ٢٧ وهو يتحدث عن غارات رجال معاوية على الأنبار: (ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورُعْثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام... فلو أن امرء مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً).

٣. وفي الخطبة ٢٠٦ من نهج البلاغة تحت عنوان: (ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين: إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في

القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدِهِم من ضلالتهم حتى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ويرعوي عن الغي والعدوان مَنْ لَهَجَ بِهِ).

٤. وفي الطريق إلى صفين احتل جيش معاوية مشرعة الفرات، ومنعوا جيش الإمام من الشرب منه، فأرسل قوة عسكرية انتزعت المشرعة منهم، فقال بعض أنصاره كما جاء في كتاب صفين لنصر بن مزاحم: (والله لا نَسْقِيهِمْ. فأرسل إلينا علي: خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء؛ فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم).

• مدرسة ومدرسة:

هذه الصور تمثل مدرسة حيّة لأتباع علي عليه السلام عبر التاريخ.. هذه هي أهمية الأسوة.. وأهمية استحضار المناسبات المتعلقة بهؤلاء القدوة.. هي مدرسة بناء للشخصية على هدي هؤلاء العظماء من أمثال علي عليه السلام.

وفي المقابل تجد أن المدرسة التي تخرّج تكفيريين هذا العصر تحاول أن تسترجع سيرة شخصيات من أمثال والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي.. الحجاج بكل تاريخه الأسود.. لماذا؟ ونكاية بمن؟! المسألة واضحة.

• الثناء على الحجاج.. لماذا؟

حملة واسعة على الإنترنت ومن خلال المؤلفات والمحاضرات ومقاطع

الفيديو التي تركز على شخصية الحجاج، في سعي منها لتلميع هذه الشخصية التي لا تطهر سيرتها الدموية مياهاً المحيطات.

كتب أحدهم مقالاً تحت عنوان «الحجاج بن يوسف.. للحقيقة ألف وجه» قال فيها: (احتل الحجاج بن يوسف الثقفي مكانة متميزة بين أعلام الإسلام... خرج من سواد الناس إلى الصدارة بين الرجال وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة... ولا يختلف أحد في أنه اتبع أسلوباً حازماً مبالغاً فيه، وأسرف في قتل الخارجين على الدولة، وهو الأمر الذي أدانته عليه أكثر المؤرخين، ولكن هذه السياسة هي التي أدت إلى استقرار الأمن في مناطق الفتن والقلال التي عجز الولاة من قبله عن التعامل معها).

وعلى نفس المنوال: «الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه» «من أروع خطب الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق».. «تفسير عظمة الحجاج ابن يوسف الثقفي».. إلخ هذه العناوين.. والكتاب يُقرأ من عنوانه.

• حقيقة الحجاج الثقفي:

في سنن الترمذي عن هشام بن حسان قال: (أحصوا ما قتل الحجاج صبراً، فبلغ مائة ألف وعشرين ألف قتيل). في كتاب دلائل النبوة للبيهقي عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: (لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم). وفي تاريخ ابن كثير في أحداث سنة ٧٣هـ: (فيها كان مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي المبير قبحه

الله وأخزاه... فلما استهلت هذه السنة استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك... فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً، وكان معه خمس مجانيق فآلح عليها بالرمي من كل مكان... وجعلت الحجارة تقع في الكعبة).

قال الذهبي: (وكان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء) ثم ذكر نماذج من جرائمه وقال: (نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان).

• الحجاج أسوتهم:

هذه جرائم.. وتمثلها جرائم التكفيريين خريجي المدرسة التي تعمل بجد واجتهاد للتأسي بالحجاج الثقفي.

هؤلاء عندما يكون الحجاج أسوة لهم لن تتطلع إلى شيء سوى إلى سلوكهم الإجرامي الوحشي.. فالحجاج بالنسبة إليهم مدرسة وأسوة.

• موقف مسيء لمنظمة التعاون:

عندما بدأت القوات العراقية الحكومية والشعبية بعملياتها العسكرية لتحرير أراضيها من سيطرة الإرهابيين التكفيريين، ضجّت منظمة التعاون الإسلامي لما أسمته (قتل وتهجير الأهالي في العملية العسكرية التي يشنها الجيش والمليشيات).

وبعد أسبوعين فقط، حين تم تحرير الأرض وطرده التكفيريين المحتلين وأنصارهم من البعثيين، رحّبت المنظمة (بالانتصار الذي تحقّق، معتبرة ذلك خطوة مهمة في طريق القضاء على العناصر الإرهابية).

وصارت وسائل الإعلام العربية مجبرة على نشر خبر وصور النساء والفتيات الإيزديات المحرّرات على يد هذه القوات، بعد كل معاناة السبي على يد التكفيريين، لتؤكد على الفارق بين مدرسة علي ومدرسة الحجاج.

• كونوا على هدى علي:

إننا لا نتطلع من أتباع مدرسة علي عليه السلام إلا أن يكونوا على هداية في الالتزام بالمبادئ الأخلاقية الإنسانية النابعة من الفطرة السليمة، وبالتعاليم الإسلامية التي تجدد في العفو والرحمة والتسامح أسساً لا حياد عنها، لأن علياً عليه السلام كان إمام العفو والرحمة والتسامح، حتى أنه قال وهو يودّع الدنيا على إثر الضربة الغادرة التي تلقاها على يد ابن ملجم: (إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيٌّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنُ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَلَكُمْ حُسْنَةٌ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ).

وقال: (إِنْ أَرَدْتُمْ الْقَصَاصَ فَضَرْبَةٌ بِضَرْبَةٍ وَلَا تَمَثَّلُوا بِالرَّجُلِ).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة: ٢٠-٢٦.

تستعرض هذه الآيات الشريفة جانباً من سيرة النبي موسى عليه السلام.. تلك السيرة المليئة بالأحداث والمفارقات، وتتناول ذلك المقطع الزمني بعد عبور بني إسرائيل البحر وصحراء سيناء ودخولهم الأرض المباركة التي كانوا يطمعون في خيراتها.. أرض فلسطين.

وعلى الرغم من كل الآيات التي شاهدوها على مر سنوات الصراع مع فرعون وجنوده، وعاشوا خلالها الرعاية الإلهية لهم على مستوى الأمن والرزق والهداية، إلا أنهم ما كانوا يعيشون الإيمان الحقيقي بعظمة الله وقدرته بالمستوى الذي يحققون من خلاله الطاعة التامة له ولرسوله النبي الكريم موسى عليه السلام .

ومن هنا امتنع بنو إسرائيل في المشهد الذي قدّمته الآيات عن الاستجابة لأمر موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة.. القدس.. التي وعدهم الله إياها بشرط أن يواجهوا من خلال ذلك المشركين الذين كانوا يحكمونها. وقد عبّروا عن ضعف إيمانهم، وانعدام ثقتهم برسوله في ذلك الموقف، برفضهم تنفيذ الأمر خوفاً من العدو، وتضخيماً لقوته، وانعداماً للثقة بالنفس وإمعاناً وخضوعاً لانقساماتهم القبلية، وغفلة عن أن كل قوي مهما بلغت قوته فإنه يملك من نقاط الضعف ما يمكن للضعيف أن يستفيد منها ليقضي عليه أو يؤذيه من خلالها.

وبلغت بهم الوقاحة أن قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾! أي إذا كان الله جلّ جلاله - كما تقول - على كل شيء قديراً، فليقض على المشركين الجبارين، وليقدّم لنا المدينة المقدسة على طبق من ذهب. ومن بين كل هذا الجمع البالغ عشرات الآلاف، لم يجد موسى من يملك البصيرة والإيمان والثقة بالله سوى رجلين.. يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا.

واذ أصروا على موقفهم وأساءوا الظن بالله وتمردوا على نبيهم، فقد حكم الله عليهم بالحرمان من الأرض المقدسة أربعين سنة، ليعيشوا في الصحراء، بانتظار ولادة جيل جديد يحمل من قيم الإيمان، ومن وعي البصيرة ما يجعله مؤهلاً أن يستجيب لأمر الله ويدخل الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

• الصورة المقلوبة:

ولو قلبنا الصورة الآن.. ألن تكون منطبقة تماماً على ما يعيشه العرب والمسلمون في موقفهم من الكيان الصهيوني الغاصب، مع كل الإمكانيات والقدرات والنعم التي آتاهم الله إياها؟

فمن المؤسف حقاً أن غالبية العرب والمسلمين في عصرنا هذا يعيشون ذات الحالة التي عاشها بنو إسرائيل في المشهد الذي قدّمته الآيات السابقة، بينما يمثل الصهاينة القومَ الجبارين الذين يملكون من أسباب القوة ما يجعل أكثر العرب والمسلمين يهابونهم ويشعرون بالضعف القاتل أمامهم.

وكلما جاءهم من يريد لهم أن يعيشوا القضية بصدق، ولو على المستوى السياسي، بل وحتى على مستوى إبقائها حية في الوجدان، أداروا له ظهورهم واتهموه بالمصلحية والتكسب الشخصي، وبلغ بهم الخوف أو الضعف أو التحزب أو الانكفاء على النفس درجة جرّموا معها مجرد إحياء الذكرى.

ولذا فقد كتب الله عزَّ وجلَّ على العرب والمسلمين في هذا العصر أن يعيشوا التيه، ليس لأربعين سنة فقط، بل إلى أن يشاء الله.. تيه الهوية.. وتيه المسيرة.. وتيه التخطيط للمستقبل.

• يوم القدس العالمي:

وقد جاءت نداءات الإمام الخميني رحمه الله للقضاء على الكيان الصهيوني الغاصب وتحرير الأرض المقدسة كنداء موسى عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ دون أن يجد استجابة حقيقة إلا من فئة قليلة.

ومن هنا تأتي أهمية إحياء ذكرى يوم القدس العالمي الذي أطلقه الإمام الخميني ليمثل أضعف الإيمان في مواجهة غطرسة الكيان الصهيوني وعدوانه المستمر ومخططاته الشيطانية، لتبقى القضية حية رغماً عن كل الجهود التي تُبذل لتجعلها طي النسيان، وتعتبرها قضية خاسرة لا سبيل معها إلا قبول الأمر الواقع، والخضوع للإرادة الصهيونية والاستكبارية.

وبانتظار اليوم الذي نشهد فيه تحقق آمنيات المخلصين بخلاص الأرض المقدسة من دنس المحتلين، وإرجاع الحق إلى أصحابه، وزوال الكيان الغاصب إلى الأبد.

القرآن والتشديد في العذاب

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ، وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾
 (الزخرف: ٧٤-٧٨).

لا يخفى أن في القرآن الكريم خطاب زجر وتخويف ووعيد ونار وعذاب، بجانب خطاب الرحمة والمغفرة والعفو والوعد وحنان ونعيم. وقد سئلت ذات مرة: لماذا نجد في القرآن الكريم كل هذا الكم من الحديث عن النار والعذاب وجهنم وما إلى ذلك.. ولاسيما وأتينا إذا قارنا مضمون القرآن - بهذا اللحاظ - بما جاء في الإنجيل، فسنجد أن الإنجيل يركز على المحبة والعفو والتسامح. فهل للأمر علاقة بالطبيعة الصحراوية العنيفة لأهل الجزيرة العربية بحيث أن خطاب القرآن كان لابد وأن يأتي بهذه الصورة ليردع تلك الشخصية العنيفة المتمردة؟

• تداعيات خطيرة:

بالطبع لو وافقنا هذا القول فستكون له عدة تداعيات، من بينها:

١. عدم صلاحية القرآن للتنوعات البشرية، فمن هم على شاكلة عرب الجزيرة المعاصرين للنبي محدودون.

٢. الحاجة إلى هذا النوع من الآيات سيتقلص كلما ترقّت البشرية وتطورت.

٣. الالتزام بظرفية القرآن ككل، أي أن الآيات الأخرى التي لا علاقة لها بالآخرة أيضاً يمكن رفع اليد عنها بتبدل الظروف، كآيات الأحكام مثلاً.

والمسألة على كل حال مهمة، ولها تبعات، ولا ينبغي التساهل فيها، ويمكن تقسيم الحديث حولها إلى نقاط:

• النقطة الأولى:

قال بعض الفلاسفة أن لا وجود حقيقي لنار الآخرة، وأنها من مخترعات الأنبياء لغاية نبيلة، حين أرادوا أن يَحْمِلُوا الناس على الالتزام بالقيم الأخلاقية وصلاح أحوالهم.

ولكننا لا نوافقهم على ذلك، ونعتقد أن كل الأنبياء صادقون، وأن ما في القرآن الكريم من حديث عن نار وعذاب في الآخرة هو حق. قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ، وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

«يونس: ٥٢-٥٣».

• النقطة الثانية:

النار والعذاب في الآخرة ليست للتشفي من قبل الله عز وجل، لأن ذلك من خصال الضعفاء وقد قال الله عز وجل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ «النساء: ١٤٧».

وبتعبير الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية: (وقد علمت يا إلهي أن ليس في حكمك ظلم ولا في نعمتك عجلة، وإنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت عن ذلك يا سيدي علواً كبيراً).

وأما ما ورد في القرآن من نسبة الانتقام إلى الله عز وجل، فلا يراد به المعنى المنطبق على الإنسان، والمشتمل على الانفعالات النفسية والثأر وما أشبه ذلك، بل يراد منه معنى المجازاة وعقوبة المسيئين على ما ارتكبه من إساءة، فالله هو الغني المطلق الذي لا ينتقل من حال إلى حال.

• النقطة الثالثة:

لا يمكن أن نفهم فلسفة وجود النار والعذاب الأخروي من دون فهم فلسفة وجود الإنسان، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ «المؤمنون: ١١٥». وغاية الخلق لا تعود بالنفع على الغني المطلق وهو الله، بل على المخلوقين أنفسهم... وعليهم أن يحافظوا على فطرتهم السليمة، وأن يصلحوا أحوالهم كي يحققوا تلك الغاية غير العبثية.

وعندما يتمردون على فطرتهم فيسيئون إلى خالقهم وإلى الناس، فسيلاقون العقاب الأخروي.. أي أن الوعيد بالعقاب يساهم في تحقيق غاية خلقتهم، كما أنه نتيجة طبيعية لإساءة المسيء وفق مبدأ العدل.

قال علي عليه السلام لمالك الأشتر لما ولاه مصر: (ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك ترهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة) هذا سلوك الإنسان العادل فكيف بالله؟

• النقطة الرابعة:

كما أن عقوبة الآخرة جزاء، فكذلك الوعيد والتهديد بها وسيلة ردع. لنتخيل أن المشرّع في الكويت يضع قوانين تنظيم المرور من دون عقوبات.. كيف ستكون شوارعنا؟ بل لاحظ كيف أن العقوبات عندما تكون مخففة تزداد جرأة مرتادي الطريق على المخالفة بما يهدد حياة الآخرين.. بل لاحظ كيف أن وجود الوسطة لإلغاء المخالفة أو تحويلها إلى المحكمة والتوسط لدى القاضي لإلغاء العقوبات يؤدي إلى المزيد من الجرأة والتهاون. ومن هنا تزداد عندنا المطالبات بتشديد العقوبات.. هذه هي الطبيعة البشرية.

• النقطة الخامسة:

من قال أن خطاب الإنجيل مجرد خطاب محبة وتسامح؟ في إنجيل متى: (وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُّ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ... فَإِنْ أَعَثَرَتْكَ يَدُكَ

أَوْ رَجُلَكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلَانِ).

وفيه وصف تفصيلي للآخرة إلى أن يقول: (ثُمَّ يَقُولُ أَيْضًا لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلَاعِينُ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ الْمَعْدَّةِ لِإِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ).

وفي سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي حديث عن مصير الذين يتولون إبليس: (وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيَةٍ أَمَامَ الْمَلَائِكَةِ الْقُدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْخُرُوفِ) رمز عن المسيح حمل الله هكذا يعبرون عنه (وَيَصْعَدُ دُخَانٌ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ. وَلَا تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلًا لِلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سِمَةَ اسْمِهِ).

• النقطة السادسة:

لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أن الخطاب الديني المسيحي المقدم إلى الناس مبني على عقيدة الفداء، أي أن المسيح صُلب ليحمل ذنوب المؤمنين به. وكل من يؤمن بالمسيح لن يُعَذَّبَ ما دام كذلك، فما الداعي إلى ذكر العذاب والنار في هذا الخطاب؟ وقد خطأ القرآن هذا المعتقد إذ قال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣-١٢٤).

• النقطة السابعة:

جاءت مادة «غفر» باشتقاقاتها في الإنجيل ٤٥ مرة، وفي القرآن باشتقاقاتها في القرآن ٢١١ مرة، ومادة «عفو» مرتين في الإنجيل، و٣٣ مرة في القرآن، وهكذا قارن كلمات الصفح والرحمة وغيرهما من المصطلحات والعبارات الدالة على هذا المعنى.. بالطبع، لا يخفى أن حجم القرآن يفوق الإنجيل بمرات، ولكن تبقى الاختلاف - مع هذا - في النسب حاضراً.

وقد لاحظ الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» أن: (من أساليب القرآن: حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة. كقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾. وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي». وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً).

نعم لربما يعود جانب من المشكلة في انطباع تصور شدة الخطاب القرآني في الذهن إلى تعليم الأطفال السور القصار، وهي سور مكية عاجلت الشرك والطغيان والاستبداد وظلم اليتامى والعبيد وما إلى ذلك، وبالتالي اشتملت على آيات العذاب بكثرة، وبالتالي فإن الطفل يفتح عينيه على القرآن من خلال هذه السور وهذه الصور، وهو أمر ذو بعد تربوي يحتاج إلى انتباه ومعالجة.

• جريمة الكرامة:

إن الله عَزَّوَجَلَّ الذي أنزل القرآن هدى للناس أعلم بما يُصلح النفس البشرية المهددة بأن تطغى وتستكبر وتُفسد وتَفْجُر، وتتعدَّى على حقوق الضعفاء، وتقتل الأبرياء، وتدمر مكامن الخير في الحياة وفي النفس البشرية، سواء أكان ذلك بلباس وغطاء ديني أم دنيوي.

بل إن النفس البشرية القابلة أن تتحوَّل إلى مِسْخٍ لا يتحرَّج من أن يقتل ثمانين ألف إنسان بقنبلة ذرية واحدة، وبدافع استكباري، ويُقدِّم على ذلك، سواء بإصدار الأوامر أو بالتنفيذ أو بالتبرير.

أو أن تتحوَّل هذه النفس إلى مِسْخٍ لا يتحرَّج من أن يقتل عشرات الآلاف من الأبرياء ويشويهم ويحوِّلهم إلى أشلاء متناثرة طوال سنوات متوالية في العراق وسوريا وبأيادي تكفيرية وبعثية، ووفق مخططات استخباراتية عالمية وإقليمية، وآخرها جريمة الكرامة التي وقعت والناس في حالة وداع لشهر الله وهم يتسوقون فرحين بقدوم العيد، ليتحوَّل عيدهم إلى مآتم وفواجع.

إنَّ وجود هذه القابلية في النفس البشرية تستدعي بالضرورة أن تُخاطَب بهذا الخطاب التخويفي التهديدي من الله، لعله يردعها عن التماذي في طاعة شياطين الجن والإنس، ويعود بها إلى فطرتها الإنسانية القويمة.

الإِلَحاد في أسماء الله

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾
 (المائدة: ٦٤).

قدّمت كل رسالة سماوية صورةً عن الله عزّ وجلّ، من خلال ذكر صفاته، وبيان ما يجب على المؤمنين بتلك الرسالة أن يؤمنوا به في ما له علاقة بالذات الإلهية.

فالإيمان بوحداية الله عزّ وجلّ وأنه الأول والآخر والخالق والغني والرزاق والعزيز والقادر على كل شيء وغير ذلك من الصفات هي من أسس الإيمان بتلك الرسالات. إلا أن بعض أتباع تلك الديانات السماوية قاموا عبر الزمن بتشويه صورة الله عزّ وجلّ في أذهان المتدينين، وباسم الدين، ومن خلال النص الديني الموضوع أو المحرف.

لاحظ في النص التالي كمثال، كيف تم تقديم الله عز وجل بصورة الذي يجهل الغيب ويندم على ما قدمت يداه وينسى!

• الله جل جلاله يندم ويتراجع!

ففي سفر التكوين في ضمن الحديث عن قصة نوح عليه السلام: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هي شريرة، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة).

فكان الطوفان، وتم إغراق الناس ومحوهم من الأرض إلا نوحاً ومن كان معه، ثم أخذ على نفسه عهداً ألا يهلك الناس كما حصل في الطوفان، ولكي لا ينسى عهده صنع قوس قزح: (فيكون متى أنشر سحباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً)!

• يد الله مغلوله؟!

وتم تقديم تصورات ونسبة صفات وأفعال قبيحة إلى الله تعالى في كتب بني إسرائيل، وكلها من جعلهم وتحريفاتهم، وليس هذا مجال استقصائها. وقد ذكر القرآن الكريم نماذج من تحريف اليهود للتصورات المقدمة عن الله في رسالتهم، ومن بينها الآية التي بدأت بها حديثي.

وقريب من مضمون تلك الآية قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ «آل عمران: ١٨١».

وقد استبعد بعض المفسرين كابن عاشور أن يكون هذا جزء من تعاليمهم، بل أنها قيلت تهكماً بالله المسلمين حين هاجر المسلمون ووفدوا المدينة في حالة فقر، أو من قبل شخص يهودي معين كما في بعض الروايات، وبرر ذلك بكون: (اليهود أهل إيمان ودين، فلا يجوز في دينهم وصف الله تعالى بصفات الذم).

ولكن الواقع أن ما حكاه القرآن موجود بنصه في كتبهم، فعلى موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية فصل من كتاب «ذرية إبراهيم - مقدمة عن اليهودية للمسلمين» تأليف «روبن فايرستون» يقول فيه الكاتب بعد ذكر آية يد الله مغلولة: (ورد في مقطع من سفر المراثي «مراثي إرميا» «٣: ٢» في التوراة أن الله رد يمينه في حضور العدو..... إن تفسير هذا المقطع في الكتاب اليهودي من المدراس المسمى مراثي ربا «آخر ٢: ٦» يقول: غُلَّتْ يمينُ الله).

ثم يذكر نصاً آخر في كتاب حانوخ: (قال لي الحاخام إسماعيل: تعال معي وسأريك يُمنى الموجود المطلق - أحد الأسماء اليهودية لله - التي غُلَّت وراءه وذلك بسبب تدمير الهيكل. إن التفسير الأول يفهم غل اليد الإلهية كمجاز للرفض الإلهي لحماية القدس بسبب ذنوبها. والتفسير الثاني يتجاهل الاستعارة ويدّعي بكل صراحة أن يد الله عاجزة، أو لا فائدة فيها، بسبب

خراب هيكل القدس). بالطبع حاول المؤلف أن يقول أن ليس كل اليهود يؤمنون بذلك، وأن الأكثرية تعتبر أن العبارة مجازية، ولكن على كل حال هو اعتراف بوجود هذا النص في كتبهم.

وما يمكن أن نقوله هنا هو أن الله عز وجل لا يجسد في تصوّر اليهود تلك الذات الجامعة لكل صفات الجلال والجمال والكمال والعلم والقوة والقدرة اللامتناهية، ويتصورونه كما يتصورون أي كائن آخر محدود، وما يلزم عن المحدودية من نواقص وسلبيات... وجرّهم قولهم بأن يد الله مغلوطة في رد الأعداء عنهم إلى وصفه بأن يده مغلوطة عن العطاء أيضاً إذ نجد الفقر بين الناس.

• الله في تصوّر النصارى:

وهكذا نجد القرآن يتحدث عن تحريف التصور المقدم للنصارى عن الله، ولكن المسألة تتركز عندهم حول عقيدتهم في المسيح: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧١).

وكما تمّ التلاعب في التصور المقدم عن الذات الإلهية عند أتباع تلك الرسائل السماوية، تم ذلك عندنا. وهل كانت المشكلة في عدم حفظ



خلق الحيوانات - اللوحة للفنان تمبيستا - القرن السادس عشر

القرآن الكريم من التحريف والنقص والزيادة؟ أبداً.. هل كان السبب قلة الآيات القرآنية التي قدمت لنا صفات الله تبارك وتعالى؟ أبداً.

• القاعدة القرآنية:

قال تبارك وتعالى وهو يقدم لنا قاعدة عامة في هذا المجال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «الأعراف: ١٨٠». ومعنى يلحدون أي أنهم يميلون ويتعدون عن الحقيقة والصواب وجادة الحق، فينسبون لله بعض صفات مخلوقاته من الخواص المادية، أو الصفات القبيحة، أو ينسبون إلى غير الله ما يختص به جل جلاله...
فأين المشكلة إذاً؟

إنها تتلخص في ما نقل الفخر الرازي في تفسيره عن أحد أساتذته بأنه قال : (قد شاهدتُ جماعةً من مقلّدة الفقهاء، قرأتُ عليهم آياتٍ كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حقَّ التأمل وجدتَ هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا). هذه هي المشكلة الكبرى.

• أئمتنا يواجهون والعلماء صامتون :

وقد مر علينا في التاريخ الإسلامي من علماء المسلمين - بل وما زالوا - من هم على شاكلة أبحار اليهود والنصارى من أدعياء العلم، والمتلاعبين فيه، والذين باعوا آخرتهم بدنياهم، فوضعوا الحديث، وتلاعبوا في تفسير القرآن، وشوّهوا العقائد والمفاهيم.. وإلى جانبهم الفئة التي أخذت عنهم، وقدّست كلامهم، وقدّمت الأحاديث التي وضعوها أو روهوا على كلام الله عز وجل. وقد انبرى أئمتنا عليهم السلام - وبكل حزم - لمواجهة الأفاكين والجهلة والأدعياء ممن كانوا ينتسبون إلى كافة المدارس الإسلامية، كما واجهوا وتبرأوا من كل من ادعى الانتساب إلى مدرستهم وألحد ومال وزاغ عن جادة القرآن في عقيدة التوحيد، وادّعى على الله ما ليس بحق، أو ادّعى لغير الله ما كان لله وحده. والنصوص الصحيحة والصريحة في ذلك

كثيرة. وهكذا - وعلى نهج أئمتنا - كان بعض أصحابهم وبعض علمائنا الكبار، كيونس بن عبدالرحمن، والفضل بن شاذان، وأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي، الذين واجهوا موجات الإلحاد في أسماء الله وصفاته قولاً وعملاً وألفوا الكتب في الرد عليهم وفضحهم، كما عمل الأشعري القمي في القرن الثالث الهجري على طردهم وطرده المروجين لهم ولكتبهم ولمقولاتهم من الحاضرة العلمية في مدينة قم. وقد دفع هؤلاء المخلصون بأجمعهم ثمناً باهضاً، فاتهموا زوراً، وحاربوا بشدة، وهُتِكت حُرْمَتهم، ولكنهم ما بدّلوا وما تراجعوا.

واليوم - وللأسف الشديد - نجد صمتاً شبه طاغ - إلا ما ندر - في مواجهة الموجات الجديدة من هذا الانحراف، والتي اعتبرها القرآن إلحاداً في أسماء الله، حتى بات التجرؤ على الذات الإلهية، ونسبة ما لله لغير الله، أمراً يتنافس فيه جهلة الخطباء والشعراء والروايد وأضرابهم. وقد قال النبي الأكرم ﷺ في بيان مسؤولية العلماء: (إذا ظهرت البدع في أمتي، فليُظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله).

ختاماً لا أستطيع أن أتجاوز الجريمة التي ارتكبت بالأمس بحق الأبرياء في مدينة نيس الفرنسية وهو شيء مؤلم جداً أن تشاهد الجثث على قارعة الطريق ولكن كما قالت مرشحة الرئاسة الأمريكية السيدة هيلاري كلينتون (دعونا نتذكر هنا أن الذين نقاتلهم اليوم مولّناهم قبل عشرين سنة).

٣٦ اللباس الشرعي للمرأة في القرآن

حديثي في هذه المقالة سيكون حول اللباس الشرعي للمرأة، ولن يكون حول فلسفة هذا التشريع والغاية منه، ولا حول تفاصيل المسائل الشرعية المتعلقة به، بل هو بيان لكيفية نزول هذا التشريع في القرآن الكريم، وذلك رداً على ما صار يدور مؤخراً - وبشكل مكثف - من كلام حول خلو القرآن من هكذا تشريع.

• الحجاب لنساء بيت النبوة:

بالطبع البعض يعبر عن هذا التشريع بعنوان تشريع «الحجاب» وهو خطأ فادح، ويؤدي إلى حصول خلط في فهم الآيات والأحاديث، فالآية التي تحدثت عن الحجاب هي آية تخص نساء النبي حيث قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» (الأحزاب: ٥٣). وهذه الآية لا علاقة لها نهائياً بتكليف المرأة باللباس الشرعي، بل هي تخص النساء من أهل بيت النبي ﷺ بما يشمل الزوجات والبنات لمزيد من تحصين بيت النبوة عن القيل والقال. ولم يرد في القرآن التعبير بالحجاب بخصوص لباس المرأة، وليس المطلوب منها أن تتعامل مع الرجال من وراء حجاب، بل المطلوب أن تلتزم باللباس الشرعي الذي تحدثت عنه آية أخرى.

وعندما نقرأ حديثاً يقول مثلاً: (دخل فلان على فلانة من أهل بيت النبي قبل أن تنزل آية الحجاب)، فليس المراد قبل نزول حكم اللباس الشرعي للمرأة، بل الآية التي تلوتها قبل قليل والخاصة بنساء بيت النبوة.

• التشريع عند اليهود والنصارى:

واللباس الشرعي للمرأة ليس تشريعاً خاصاً بشريعة نبينا الأكرم محمد ﷺ، ففي الشريعة الموسوية تشريع مماثل لذلك، فلو بحثت في الإنترنت - باللغة الإنجليزية - حول هذا الموضوع ستجد من أقوالهم في بيان فلسفة وجوب تغطية المرأة اليهودية لشعرها أنه جاء في التلمود: (شعر المرأة شيء مثير)، وفي بيان ذلك يقولون: (نحن نعتبر أن شعر المرأة من الأمور المثيرة للغريزة الجنسية عند الرجل، ولذا فإنه شيء تُخصّه المرأة لزوجها). وفي كتاب «المرأة اليهودية في الأدب التوراتي» للحاخام الدكتور «مناحيم براير»: (كان من عادة النساء اليهوديات الخروج علناً بغطاء



الرأس والذي كان أحياناً يغطي الوجه بالكامل، ويترك عيناً واحدة) ثم ينقل المؤلف كلمة لأحد الأخبار القدماء: (ليس من شيم بنات إسرائيل الخروج برأس مكشوف، ولعن الرجل الذي يترك شعر زوجته مرثياً).

وحصل انقسام بين اليهود في المقدار الواجب تغطيته، فمنهم من اكتفى بتغطية الشعر بحيث تربط المرأة الخمار من الخلف، ومنهم من التزم بضرورة التغطية الكاملة بما يشمل الرقبة والأذنين والصدر.

ولم يأت السيد المسيح عليه السلام بشريعة ناسخة للشريعة الموسوية إلا في موارد محدودة جداً، ولذا استمرت المرأة المسيحية المتدينة في تغطية رأسها، ونجد في كتاب «العهد الجديد» في رسالة «بولس» إلى أهل «كورنثوس»:



القديسة كاترين - مجموعة من الراهبات القبطيات

(وإذا كانت المرأة لا تغطي رأسها، فأولى بها أن تقص شعرها، ولكن إذا كان من العار على المرأة أن تقص شعرها أو تحلقه، فعليها أن تغطي رأسها) أي كما أن الحلق عار عليها، فإن كشفها لشعرها عار أيضاً.

• التدرّج في التشريع في الإسلام:

وأما في الإسلام فيبدو أن مسألة الستر الشرعي أخذت حكماً تدريجياً تماماً كما في تحريم الخمر.. فلم يكن هناك تشريع إلزامي حول لباس المرأة، ثم نزلت الآية ٥٩ من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِرِزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ولعل نزولها ارتبط بحوادث معينة كما في بعض الأحاديث، حيث كان يتم التحرش بالمسلمات من قبل بعض المنافقين أو من الذين في قلوبهم مرض، فنزلت الآية لتوجه المسلمات إلى ضرورة مراعاة المزيد من الستر في الثياب، ليعرفوا أن هذه امرأة مسلمة عفيفة، وهو الذي عبرت عنه بقوله: ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ والجلباب مردد بين ما يشبه العباءة المتعارفة للنساء اليوم أو الثوب الواسع الذي يغطي الجسد.

فهذا الإجراء من المرأة يقلل من احتمالات التحرش بها، لما يعرفه هؤلاء المتحرشون من صلابة الإسلام في مواجهة هذا العبث، وتذكر هنا ما جرى في سوق بني قينقاع قبل ذلك بثلاث سنوات حيث تحرش أحد اليهود بامرأة مسلمة، فربط طرف ثوبها بشوكة، فلما تحركت سقط عنها الرداء، فقام مسلم وقتل اليهودي، ثم قُتل المسلم، وأدى ذلك إلى إعلان الحرب ومن ثم إجلاء بني قينقاع من المدينة.

هذا لا يعني أن الإسلام يسمح بأن يعبت هؤلاء بغير المسلمات، ولكن الآية جاءت لمعالجة وضع المرأة المسلمة، وبصورة توجيهية لا نجد فيها إلزاماً وتشديداً لاسيما بلحاظ قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

• حزمة أوامر للرجل والمرأة:

إلى هنا لا يوجد تشريع إلزامي حول لباس المرأة، ولكن بعد نحو عام على الأقل، أي في السنة السادسة للهجرة، وقيل في السنة الثامنة، نزلت



نماذج من الجلباب والخمار

سورة النور، واشتملت على مجموعة من التشريعات والآداب الاجتماعية، ومن بينها قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ «النور: ٣٠-٣١».

هنا بيان لتكليف الرجل، وتكليف المرأة على نحو الأمر والإلزام، حيث تم الربط بين تصرف الطرفين تجاه بعضهما البعض، وبين هيئة لباس المرأة. فالرجل مكلف وجوباً بغض البصر والالتزام بالنكاح الشرعي... وأما المرأة فهي مكلفة وجوباً:

بغض البصر، والالتزام بالنكاح الشرعي، وعدم إبداء ما يعتبر زينة، سواء من الجسد كالذراع والساق، أو مما ترتديه كزينة من قبيل الخلخال والأساور - مع استثناء ما ظهر منها - وهناك نقاش علمي حول حدود ذلك وتفصيله، ولن نخوض فيه، وإلقاء خمار الرأس على الجيب، فلا يُكتفى بتغطية الشعر دون الرقبة والأذنين وفتحة الصدر من الثياب.

• كيف كان لباس المرأة المسلمة؟

ولكي نفهم هذه النقطة الأخيرة بالتحديد نقول: كانت المرأة المسلمة قبل ذلك تغطي أحياناً بعضاً من رأسها، كنوع من العادات والتقاليد، أو مراعاة للجو، أو لطبيعة العمل الذي تمارسه، وكانت ثيابها هي الثياب الدارجة في الحجاز.

وكانت تغطية الرأس وفق تلك العادات تقتصر على تغطية الشعر، كما عرفنا ذلك عن بعض اليهود، قال الزمخشري في تفسيره: (كانت جيوبهن واسعة) والجيب عبارة عن فتحة الثوب عند الصدر التي منها يدخل الرأس (تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليتها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة).

وبالتالي مع نزول هذه الآية، بدأ التشريع الإلزامي على المرأة بارتداء غطاء الرأس بالصورة التي ذكرناها، وعدم جواز كشفه، أو كشف بعض منه لغير الموارد التي ذكرتها الآية، وهي الزوج والأب والأخ... إلخ.

وكانت الاستجابة سريعة من قبل نساء الأنصار، فعن أم المؤمنين عائشة: (ما رأيت نساء خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كلُّ واحدةٍ منهن إلى مِرطِها) المِرْطُ : كساءٌ يُؤْتَرز به وتتلفَعُ به المرأةُ (فصدعت منه صدعة) أي قطعت منه قطعة (فاختمرن، فأصبحن كأن على رؤوسهن الغربان)، لأن تلك المِروط كانت منسوجة من الشعر الأسود، وعادة يكون من شعر الماعز، ولذا أشبهت الأغطيةُ الغربانَ السود.

• احتشام ثم تشريع:

هذه هي قصة تشريع الستر الشرعي للمرأة في الإسلام، حيث تدرج القرآن في ذلك، فوجّه ونصح المرأة المسلمة في الآية ٥٩ سورة الأحزاب إلى مزيد من الاحتشام في لباسها، وذلك لتحقيق المزيد من التحصين لها من إساءات المتحرشين، ثم أنزل الآية الحادية والثلاثين من سورة النور أمراً للمرأة المسلمة بالالتزام باللباس الذي يُخفي مواضع الزينة من جسدها وما ترتديه من تلك الزينة، إلا ما استثنى، علاوة على لزوم تغطية الرأس ليشمل ذلك الغطاء رقبتها وأذنيها وما يظهر من أعلى صدرها، كل ذلك مقروناً بأمر الرجل والمرأة بغض البصر والالتزام بالنكاح الشرعي في إطار العلاقة بينهما، وأما ما يثيره البعض من أن القرآن الكريم لم يتعرض لحكم اللباس الشرعي للمرأة، أو أن غطاء الرأس مجرد عادة من العادات الجاهلية فمجرد ادعاءات قامت الأدلة على خلافها.

مَنْ أَوْ فِدَاءِ

عادت قضية موقف الإسلام من الأسرى إلى الواجهة من جديد بعد نشر مقطع فيديو ذبح الصبي في حلب. وسنجعل المعيار الأساس ما جاء في القرآن الكريم، ومن خلاله نحكم على الأحاديث التي تمسك بها البعض لتبرير ذبح الأسرى، أو قتلهم، أو حرقهم، أو تقطيع أوصالهم، باسم الشريعة الإسلامية.. أو اتخاذها آخرون وسيلة للطعن في الإسلام.

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ هذا في ساحة المعركة ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُّوهُمْ﴾ أي حتى إذا غلبتموهم ووقع بعضهم في أسركم ﴿فَشُدُّوا الوثَاقَ﴾ أي فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم أو يهربوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فإذا أسرتهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء عوضاً حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل ﴿حَتَّىٰ تَصْعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ «محمد: ٤».

نعم، كان لرسول الله ﷺ - إعمالاً لولايته - أن يأمر بإعدام البعض كما حصل في غزوة بدر، لكون هذا البعض ممن ارتكبوا جرائم بحق المسلمين



في العهد المكي. إلا أن هذه تمثل حالة استثنائية جداً، وهي بيد الحاكم الشرعي كالنبي ﷺ أو الإمام غديره، لا بيد المقاتلين ولا غيرهم، وتبقى القاعدة الأساس هي المن أو الفداء. ولكن، لما عمل الأمويون بخلاف ذلك في حروبهم مع غير المسلمين، وفي قمعهم لثورات المسلمين، وأصبحت القاعدة عندهم القتل والتعذيب، ارتفعت الأصوات المنددة، فبادروا إلى تبرير جرائمهم بوسيلتين:

• الوسيلة الأولى:

وهي سهلة جداً، حيث بادرت بعض أبواقهم من علماء البلاط إلى ادعاء نسخ الآية.

قال الطبري في تفسيره: (قال بعضهم: هو منسوخ نسخه قوله ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقوله ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَتْهُمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾).

وهو ادعاء باطل، فادعاء النسخ - أولاً - لا بد أن يقوم عليه دليل قوي وواضح لا شبهة فيه، كي لا يتحول هذا الادعاء إلى العوبة بيد من شاء، وهو ما حصل في موارد عديدة وللأسف الشديد، فكلما أريد الالتفاف على آية ادعي نسخها! وقد روى الطبري عن الحسن، قال: (أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا. قال الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُّوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾).

وثانياً، فإن الآيتين لا علاقة لهما بالموقف من الأسير، بل هما لبيان الموقف المتشدد من المشركين المحاربين المعاندين، وليستا في مورد البيان التفصيلي لحكمهم بعد وقوعهم في الأسر. ولذا قال الطبري: (والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة).

وثالثاً، هذه الآيات عن المشركين، لا المسلمين ولا أهل الكتاب، فلماذا يتم التعميم؟

• الوسيلة الثانية:

اختلاق الأحاديث عن عصر النبوة، ووجدوا غايتهم في أمثال عطية القرظي، ومحمد بن كعب القرظي، اللذان تحولوا بقدرة قادر إلى مصدرين

معتمدَيْن من مصادر السيرة. فالأول كان يهودياً من سبي بني قريظة، ولا يُعرف له نسب. استقر في الكوفة لاحقاً وتخصص في تفسير القرآن، وكان يروي عن النبي!

والثاني ابن رجل كان من سبي بني قريظة، ولد سنة ٤٠هـ، سكن الكوفة وغداً متخصصاً بالتفسير والتاريخ، سقط عليه وعلى تلامذته مسجد الربذة سنة ١٠٨ في الزلزال فماتوا، متهم في رواياته.

وصارا من مصادر خبر ما جرى لبني قريظة بعد اشتراكهم مع الأحزاب في حرب النبي، ثم أسروا بعد محاصرتهم واستسلامهم. ولك أن تتخيل ماذا يمكن لليهوديين أن يقدموا للمسلمين من أخبار ملفقة، وقد امتلأت قلوبهما أو قلوب من روى لهما من اليهود حقداً وبغياً.

• نصوص مغايرة:

وفي المقابل، لدينا نصوص عديدة تؤكد ضرورة حسن معاملة الأسير، مسلماً كان أم غير مسلم، ومنها:

١. قول الله عز وجل: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨). فهذه الآية في سياق ثناء عظيم لإيثار أسير على النفس والعيال، علماً بأن موردها كان أسيراً غير مسلم.

٢. لما أسرت صفية بنت حيي وامرأة أخرى معها في خيبر، أرسلتا مع

بلال إلى رسول الله ﷺ، فمر بهما على قتلى اليهود، فلما رأتهم التي مع صفية صرخت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فقال النبي لبلال: (أَنْزَعْتَ مِنْكَ الرَّحْمَةَ يَا بِلَالُ حَيْثُ تَمُرُ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رَجَالَهُمَا؟).

٣. عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: (إِذَا أَخَذْتَ أَسِيرًا فَعَجِزْ عَنِ الْمَشْيِ وَلَيْسَ مَعَكَ مَحْمِلٌ فَأَرْسِلْهُ وَلَا تَقْتُلْهُ) لأن القاعدة هي المن أو الفداء لا القتل (فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه).

٤. عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إِطْعَامُ الْأَسِيرِ حَقٌّ عَلَى مَنْ أَسْرَهُ، وَإِنْ كَانَ يُرَادُ مِنَ الْغَدِ قَتْلُهُ) أي في أسوأ الحالات كأن يكون مجرمًا وعليه القصاص (فإنه ينبغي أن يُطْعَمَ وَيُسْقَى وَيُرْفَقَ بِهِ، كَافِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ).

• نظرة رسالية:

إن قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠) يؤكد على أن الإسلام ينظر إلى الأسرى نظرة رسالية، ولهذا فإنه يفتح لهم باب الخير من خلال التفكير بالمستقبل، وليتأملوا في موقفهم السابق، فإن اختاروا الموقف الصحيح بالدخول في الإسلام والانتها عن الأعمال العدوانية، فسيؤتيهم الله خيرًا مما أخذ منهم من المال، رزقًا وعنايةً، ومغفرةً للذنوب. وهذا التوجيه الرسالي كان يقابل صوراً



وحشية كانت دارجة في أم ذلك الزمان في طريقة التعامل مع الأسرى، تارة بتقديمهم قرايين للآلهة، وأخرى بممارسة فنون التعذيب فيهم ترفيهاً عن النفس بوضعهم في ساحات مغلقة مع الأسود والنمور لتفترسهم على مشهد من علية القوم وعموم الناس!

ذاك هو الإسلام، وأما شرعة التكفيريين فهي شرعة آل أمية والحجاج وأضرابهم ممن ارتكبوا الجرائم ثم عملوا على تحريف كلام الله في تفسيره وتأويله ونسبوا إلى رسوله ﷺ ما لم يفعله زوراً وبهتاناً ليُلبَّسوا على الناس دينهم وليُشرعنوا جرائمهم التي سَوَّدوا بها صفحات التاريخ الإسلامي.



مناهج التربية الإسلامية .. إعادة قراءة

تحدثت في أكثر من مناسبة عن موضوع مناهج التربية الإسلامية الخاصة بوزارة التربية في دولة الكويت. وكان حديثي ينصب على بعض المفردات المبتوثة في الكتب الدراسية والتي تتضمن مفاهيم تكفيرية وخطابات إقصائية واضحة.

إلا أن حديثي هذا اليوم سيأخذ منحى أشمل من ذلك، حيث أن المسلمين بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أصبحوا بشكل واضح أمام تحديين كبيرين، الأول يتمثل في تيار الإلحاد الجديد، والآخر يتمثل في التطرف الديني والمذهبي.

والمناهج الدراسية الحالية لا تُسَعِّفنا لمواجهة هذين التحديين ووقاية أبنائنا وشبابنا من الوقوع في حبائلهما، لأنها تعتمد على خطاب إسلامي تمت صياغته من حيث المضمون وطريقة معالجة القضايا ومن حيث الأسلوب أيضاً في ظروف مغايرة، ووفق رؤية ما عادت تجاري هذه التحديات الجديدة والخطيرة، فضلاً عن المشكلة الأساس المتعلقة بالموقف المتشنج والإقصائي والتكفيري للآخر المختلف مذهبياً.

• ثوب جديد أم فهم جديد؟

ثم لنتنبه أن حاجتنا إلى هذا التغيير لا تعني أننا نريد إلباس الإسلام لباساً جديداً، أو أن نتلاعب في تشريعاته ومضامينه، بل يأتي ذلك انطلاقاً من أن هناك فرقاً بين الدين وبين فهم الدين.

فالدين من عند الله، وهو وحي معصوم.. وأما فهم الدين فهو اجتهاد ونتاج بشري، قد يصيب وقد يخطيء. أي أن ما اجتهد فيه الماضون لتقدمه على مستوى فهم القرآن وتصحيح الحديث والفقه والعقيدة وغير ذلك يمثل جهداً بشرياً محكوماً بظرفه، وهو غير معصوم. واليوم مع التحديات الجديدة أصبحت هناك حاجة:

١. لإعادة قراءة تلك النصوص وتلك الاجتهادات على وقع الاثرات والإشكالات الجديدة.. وحينها قد نصل إلى نفس النتيجة السابقة، وقد نصل إلى نتائج أخرى ترتفع معها الإشكالات المطروحة، وذلك من قبيل قضايا حقوق الإنسان في الدولة الإسلامية بالنظر إلى اختلاف الجنس، واختلاف الدين، وحرمة دم غير المسلم، وماله، وعرضه، ومصير الناس في الآخرة، وأحادية الفرقة الناجية، وغير ذلك.

٢. وهناك حاجة إلى معالجات وإجابات جديدة لتساؤلات وإشكالات ما عادت القديمة منها تُسَعِفنا ولا هي كافية للإقناع، كمسائل الرق والعبودية، وحكم المرتد، واللباس الشرعي للمرأة، وأمثال ذلك.

٣. ونحن بحاجة إلى أن نبني فهمنا للإسلام وخطابنا الإسلامي ومناهجنا الدينية على أساس أنسنة الدين.. وهذا لا يعني التخلي عن التشريع الإلهي، أو ادعاء كونه نتاجاً أرضياً.

فأنسنة الدين تعني أن الله قد أنزل هذا الدين للإنسان، ليُصلح شأن الإنسان، لا أن الله قد خلق الإنسان من أجل أن يخدم الدين. ووفق هذا ستتغير مجموعة من المفاهيم والتشريعات.

٤. مناهجنا الدراسية لم تستطع أن تقدم مادة تربوية تجعل طبيعة العلاقة بين أبنائنا وبين الله عز وجل علاقة حب وإحساس بالارتباط الخاص بينهم وبين الله.. الله الرحمن الرحيم الغفور المنعم الرؤوف، بل تبني إنساناً خائفاً متوجساً من لحظة الانتقام الإلهي.. فرداً يرتكب في السر ما يخاف ارتكابه في العلن، لأنه لا يفهم معنى لتقوى الله، بل تقوى الناس والمجتمع فقط.

والسبب في ذلك يعود إلى كم الآيات التي تتحدث عن النار والعذاب والانتقام في قصار السور والتي يتلقاها التلميذ في الصفوف الأولى، علاوة على المادة الجافة روحياً والتي تجعل من درس التربية الإسلامية درساً ممقوتاً، ومن الالتزامات الدينية التزامات ثقيلة على النفس، وتجعل النظرة إلى الدين الإسلامي ككل نظرة غير محببة.

٥. كما أن هناك حاجة إلى المصادقية في معالجة قضايا يجد فيها التلميذ ارتباكاً عند طرحها في المناهج الدراسية، وذلك من قبيل الموقف القرآني

من الآخر المختلف . نحن بحاجة في مناهجنا إلى تقديم معالجة واضحة لآيات من قبيل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ «الحجرات: ١٣»، ومن قبيل : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ «المتحنة: ٨»، ومن قبيل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «البقرة: ٦٢».

وأن تكون هذه المعالجة غير متعارضة مع مفردات تُطرح في ذات المنهج أو في سنوات دراسية سابقة.. ففي باب الأخلاق تُطرح هذه الآيات ويتم الحديث عن أخلاق التعامل مع غير المسلم، وفي باب العقائد تكفير وإباحة دماء وأموال وأمثال ذلك .

• فاقد الشيء لا يعطيه :

وبكل صراحة ووضوح أقول : هل يمكن لمدرسة تقوم على أساس تكفير الآخر المختلف وإباحة دمه وماله وعرضه في بُنيته العقدية والفقهية أن تقدّم خطاباً مُقنعاً في إطار العلاقة مع الآخر المختلف دينياً ومذهبياً ولتكون مسؤولة بعد ذلك عن إعداد المناهج الدراسية لأبنائنا؟ مناهج التربية الإسلامية عندنا ككل بحاجة إلى إعادة كتابة وفق متطلبات التحديات الكبيرة التي بات أبنائنا يواجهونها على صعيد الإلحاد والتطرف، وعلى

ضوء قراءات واجتهادات متجددة ومواكبة للإشكالات والأسئلة التي ما عادت المعالجات السابقة لها مُقنعة ووافية.

وتأتي مسائل من قبيل أنسنة الدين، وإعادة صياغة طبيعة علاقة أبنائنا بخالقهم عز وجل، لتكون في الأساس علاقة حب بدلاً من أن تكون علاقة خوف مجرد، والاهتمام بالبعد الروحي في العلاقة مع الدين، لتمثل الأطر التي يمكن من خلالها إعادة تشكيل هذه المناهج بالصورة المناسبة.

• مع ذكرى الغزو الصدامي:

وبموازاة ذلك نؤكد على ضرورة أن يكون خريجو المعاهد والكلليات الشرعية الذين سيقومون بتدريس هذه المناهج متناغمين معها في متبنياتهم وفي عطائهم، وهي المسألة التي تمثل تحدياً آخر لوزارة التربية والتعليم العالي، وقد مرت علينا قبل أيام ذكرى الثاني من أغسطس والغزو الصدامي لدولة الكويت، ونأمل أن يكون إحياءنا لهذه المناسبة سبيلاً لمزيد من اليقين بأن الوطن بلا وحدة وطنية سيكون مهدداً في كل لحظة بالانهيار، وهل يمكن بناء وحدة وطنية في ظل مناهج دراسية دينية - وللدين من القداسة في النفوس ما لا يُنكر - فتشحن صدور الأبناء بالكرهية والتكفير؟

المسؤولية تجاه الحق

٢٩

عندما يكتشف الإنسان الحق وتقوم عليه الحجة البيّنة والأكيدة، تترتب عليه - بحسب القرآن الكريم - عدة مسؤوليات، من بينها:

الأمر الأول: تسقط حرية الإنسان في اختيار الأخذ بهذا الحق أو تركه، بل يجب عليه الأخذ به، وإلا كان محاسباً - ولربما معاقباً أيضاً - لتركه والأخذ بسواه. ومن هنا ذم الله عزّ وجلّ البعض حين اختاروا عدم الإيمان بنبوّة محمد ﷺ مع قيام الحجة على صحتها، بل وعملوا على أن يعود المسلمون إلى شركهم القديم، وفضّلوا شركهم على توحيدهم.

قال عزّ وجلّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ «البقرة: ١٠٩».

• عناد واستكبار وحسد:

وهل كانت المسألة هي عدم وضوح الحق وعدم قيام الدليل القوي؟
أبداً.. بل كانت المسألة مسألة حسد، والحسد يدفع الإنسان إلى المكابرة



وظلم صاحب الحق والوقوف مع الباطل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ «النساء: ٥١».

ويبلغ ببعضهم العناد والاستكبار عن الحق إلى المستوى التالي: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ﴾ هل يريدون معرفته والهداية إليه؟ هذا هو السلوك المنطقي والمفترض، ولكنهم طلبوا شيئاً آخر، قالوا: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَتَا بَعْدَ أَلِيمٍ﴾ «الأنفال: ٣٢».

• التفعيل:

الأمر الثاني: تفعيلُ هذا الحق على الأرض وتحويله إلى ممارسة عملية،

قال عزيرك: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ «البقرة: ٢١٣».

فلا يكفي أن تتبنى الحق، ولا يكفي أن تدعي أنك مع الحق، بل لابد أن تسعى لكي يكون هذا الحق واقعاً حياتياً عاماً ما أمكن، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ هل يتوقفون عند ذلك؟ ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ «الأعراف: ١٨١»، ويتم ذلك:

أ. على المستوى الفكري، بالرد على الأفكار الباطلة من خلال الحجج والبراهين.

ب. على المستوى السياسي وإدارة شؤون الناس، من خلال العمل على استحكام العدالة الاجتماعية: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ «هود: ٦١» وفرض القانون، ومحاسبة الخارجين عليه والفاستدين.

جـ. على مستوى المحاكمات والفصل بين الخصومات، بإقامة العدل وبما أنزل الله: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «ص: ٢٦».. وهكذا على سائر المستويات.

• الخلطة القاتلة:

الأمر الثالث: المحافظة على سلامة الحق وبقائه خالياً من الباطل، وهو ما ورد في النهي الإلهي: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ «البقرة: ٤٢».

ولأمير المؤمنين علي عليه السلام كلمة جميلة في بيان أسلوب البعض في إبعاد الآخرين عن الحق حيث قال: (فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفَ عَلَى الْمُتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمَعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمَزَّجَانِ). وهذه هي الخلطة القاتلة التي تؤدي إلى وقوع الفتن بحسب وصف الإمام عليه السلام وتشخيصه.

لوقيل مباشرة للمسلم أن هذا القرآن باطل، وهو من وضع النبي وتأليفه، لما صدّقهم، ولكن يُقال له هذا كتاب إلهي، عظيم المضمون، ألهم الله أفكاره الرئيسة للنبي، ثم قام النبي بصياغة ذلك من عنده، فإذا صدّقهم، قالوا له ولذا ترد بعض الملاحظات عليه، لأن النبي كان ابنَ بيته، فهنا خطأ تاريخي، وهنا خطأ فلكي، وهنا تشريع خاص بزمانه، إلخ القائمة.

وهناك أثر آخر خطير لإلباس الحق بالباطل، وهو تشويه صورة الحق مما يدفع الآخرين إلى عدم الميل إليه وإلى عدم الأخذ به. وهو ما أشار إليه جعفر الصادق عليه السلام كما في الخبر المعتبر عن أبي بصير حيث قال: (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا حَبَبْنَا إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يُبْعِضْنَا إِلَيْهِمْ. أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ يَرَوْنَ مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَكَانُوا بِهِ أَعَزَّ، وَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَحِطُّ إِلَيْهَا عَشْرًا).

وما أكثر ما ننسبه إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ونشوّه به صورتهم، وهم براء

منه.. قضايا ننسبها إلى عقيدتهم وتاريخهم وسلوكياتهم وأدعيتهم وعبادتهم، وممارسات نأتي بها ونضيف إليها ما نشوه به صورة مدرستهم العظيمة. والويل لمن يحتج ويعترض، لأنهم سيسلطون عليه سيف الإخراج من المذهب، والتقصير، والاتهام بالوقوف في وجه الشعائر المذهبية.

ومن هنا نبّهت الآية التالية إلى الخطأ الذي وقع فيه أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧).

فالحق كان بأيديهم من خلال اتباع ما جاء به أنبيائهم من الوحي، ولكن المشكلة في الإضافات التدريجية الناشئة عن الأهواء، وتنامي الحب لبعض الأنبياء، مما أوصلهم إلى الغلو فيهم.. كما هو شأن النصارى.

• لا تتهرّب:

الأمر الرابع: عدم كتمان الحق. ففي تنمة الآية التي بدأنا بها العنوان الثالث، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٤٢)، لأن كتماننا يعني ضياع الحقيقة وظلم صاحبها.

ومن فروع ذلك، أنك عندما تعرف الحق وتطلب منك الشهادة أمام القاضي، لا تتهرب منها لأن الخصم من أرحامك أو أحبابك: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

ولا تكذب فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ «النساء: ١٣٥».

• لا للعدوان على الآخرين:

وأخيراً أقول: إن من مسؤوليات معرفة الحق والعمل به، أن لا يصدر عنك إلا ما يكون متناغماً مع الحق، فكونك على حق لا يُسَوِّغُ لك العدوان على الآخرين، ولو على مستوى الكلمة، وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في النص الذي نقله مجتزئاً الشريف الرضي في نهج البلاغة، وأنقله كاملاً من كتاب «تمام نهج البلاغة» للسيد صادق الموسوي حيث قال: (كلامٌ له عليه السلام وقد سمعَ قوماً من أصحابه يسبّونَ أهلَ الشامِ أيامَ حربِ صفينَ، فأرسلَ إليهم أنْ كُفّوا عَمَّا يبلِغني عنكم. فأتَوْه فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، ألسنا مُحَقِّقِينَ؟ قال عليه السلام: بلى. قالوا: أليسوا مُبْطِلِينَ؟ قال عليه السلام: بلى. قالوا: فَلِمَ مَنَعْتَنَا مِنْ شَتْمِهِمْ؟ فقال عليه السلام: إني أكرهُ لكم أنْ تكونوا سَبَّابِينَ شَتَامِينَ لِعَانِينَ تَشْتُمُونَ وَتَتَبَرَّءُونَ ولكنكم لو وَصَفْتُمْ مَسَاوِيَّ أَعْمَالِهِمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ وَسِيرَتَهُمْ كَانَ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَلَوْ قُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ وَلَعْنِكُمْ إِيَّاهُمْ وَبِرَاءَتِكُمْ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ، وَيَرْعَوِي عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ، لَكَانَ هَذَا أَحَبَّ إِلَيَّ، وَخَيْرًا لَكُمْ).

الغدير.. شهادة معاصرة

في كتاب «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» للشيخ الألباني شهادة معاصرة حول حديث الغدير، واسمحوا لي أولاً أن أعرف المؤلف كي نعرف قيمة الكتاب.

قالوا فيه: الإمام والمحدث أبو عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح الألباني المعروف باسم محمد ناصر الدين الألباني «ت ١٩٩٩م»، يعد من علماء الحديث ذوي الشهرة في العصر الحديث، تتلمذ على يديه كثير من العلماء والباحثين، وله أكثر من ٣٠٠ مؤلف بين تأليف وتخرير وتحقيق وتعليق. مُنح جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية لعام «١٤١٩هـ»، ويعتبره البعض كأحد «مجددي الإسلام» في زمانه.

إذاً نحن نتكلم عن قامة علمية مهمة عند إخواننا من أهل السنة، ولا سيما في المدرسة السلفية. فماذا ذكر الشيخ الألباني عن الحديث برقم «١٧٥٠» والوارد في الجزء الرابع من كتابه؟

تحت عنوان: («من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من

عاداه». قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ٣٣٠: (ورد) أي النص السابق (من حديث زيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص، وبريدة بن الحُصَيْب، وعلي ابن أبي طالب، وأبي أيوب الأنصاري، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وأبي سعيد، وأبي هريرة).

• حديث زيد بن أرقم:

ثم جاء المؤلف ببعض نماذج الحديث وأسانيده ومن بينها: (حديث زيد وله عنه طرق خمس: الأولى: عن أبي الطفيل عنه قال: لما دفع النبي ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممّن، ثم قال: كأني دُعيت فأجبت، وإني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتابُ الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، ثم قال: إن الله مولاي، وأنا ولي كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت وليّه، فهذا وليّه، اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه).

• حديث الرّحبة:

ثم ذكر نموذجاً آخر من الحديث، حيث روى عن أبي الطفيل قال: (جمع علي رضي الله عنه الناس في الرّحبة) الرّحبة والرّحبة: الأرض الواسعة، والمراد هنا رَحبة الكوفة، وكانت عبارة عن قطعة أرض كبيرة تابعة أو مجاورة لمسجد الكوفة (ثم قال لهم: أنشد الله كلّ امرئ مسلم سمع رسولَ الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام. فقام ثلاثون من الناس - وفي رواية: فقام ناس كثير



- فشهدوا حين أخذ بيده) أي حين أخذ النبي بيد الإمام علي (فقال للناس: أتعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: نعم يا رسول الله) والنبي يريد قول الله عز وجل في الآية السادسة من الأحزاب: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (قال: من كنت مولاه، فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال: أي أبو الطفيل (فخرجتُ وكأَنَّ في نفسي شيئاً، فلقيت زيد بن أرقم، فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا، قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له).

وعندما نعود إلى بعض المصادر نجدها تذكر من بين الشهود:

١- الصحابي أبو أيوب الأنصاري، ومرقده مشهور في إسطنبول، وقد

استشهد في إحدى معارك الفتوحات سنة ٥٠ هـ أو بعد ذلك، وكان من البدرين .

٢- الصحابي خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، الشهيد بصفين، وكان من البدرين .

٣ - الصحابي أبو فضالة الأنصاري، استشهد بصفين مع أمير المؤمنين، وكان من البدرين .

٤ - الصحابي أبو قدامة الأنصاري، الشهيد بصفين مع أمير المؤمنين، وكان من البدرين .

٥- الصحابي أبو الهيثم ابن التيهان، الشهيد بصفين مع أمير المؤمنين، وكان من البدرين .

٦- الصحابي أبو هريرة الدوسي المتوفى سنة ٥٧ هـ أو بعد ذلك .

• رداً على ابن تيمية:

ثم قال الألباني: (وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة كبيرة منها الهيثمي في المجمع - ٩ / ١٠٣ - ١٠٨ - وقد ذكرتُ وخرَّجْتُ ما تيسر لي منها، مما يقطع الواقفُ عليها بعد تحقيق الكلام على أسانيدِها، بصحة الحديث يقيناً، وإلا فهي كثيرة جداً، وقد استوعبها ابنُ عُقْدَةَ في كتابٍ مُفْرَدٍ، قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حسان. وجملة القول أن حديث الترجمة) أي

الحديث الذي يبحث بشأنه (حديث صحيح بشطريه) الشطر الأول: «من كنت مولاه، فعلي مولاه»، والشطر الثاني: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» (بل الأول منه متواتر عنه ﷺ كما ظهر لمن تتبع أسانيدَه وطرقَه).

ثم أضاف في نهاية كلامه: (إذا عرفت هذا، فقد كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث وبيان صحته) أي سبب استرساله وذكر التفاصيل الكثيرة حوله في تحقيقه للحديث (أنني رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية، قد ضَعَفَ الشطر الأول من الحديث، وأما الشطر الآخر، فزعم أنه كذب! وهذا من مبالغته الناتجة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها. والله المستعان).

• مرجعية وولاية:

وأود أن ألفت نظر الإخوة والأخوات الأعزاء إلى أن نص الحديث كما روي عن زيد بن أرقم يتضمن أمرين:

١- تحديد المرجعية الدينية من بعد رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم والعترة الطاهرة من أهل بيت النبي، وعلى رأسها أمير المؤمنين علي عليه السلام، بكل تشعبات هذه المرجعية كما جاءت في قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «آل عمران: ١٦٤». وذلك من خلال قوله ﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين).

٢- إناطة شؤون القيادة السياسية والإدارية لعلي عليه السلام بقوله صلى الله عليه: (من كنت مولاه ، فعلي مولاه).

• إحياء مسؤول:

إن إحياء ذكرى يوم غدیر خم من قبل المسلمين الشيعة لا يُراد له أن يكون سبباً لإذكاء أية فتنة طائفية، إذ ليس من حق الشيعة أن يجعلوا من هذه المناسبة منطلقاً للتعرض لمقدسات الآخرين، كما ليس من حق أهل السنة الامتناع والطعن في إخوانهم الشيعة لإحيائهم هذه الذكرى التي تحمل دلالةً كبرى في تحديد هويتهم، سواء من خلال البحث العلمي، أو بإقامة الاحتفالات المنضبطة بالضوابط الدينية.

وليكن إحياءنا ليوم الغدير إحياءً يحمل روح المسؤولية كما حملها صاحب الذكرى أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: (لقد علمتم أنني أحقّ الناس بها من غيري ، ووالله لأُسَلِّمَنَّ ما سلمت أُمُور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزُهداً فيما تنافستُموه من زُخرفه وزِبرجه) بأن نجعل كلماتنا في هذه الأجواء الاحتفالية منطلقاً للتأكيد على الالتزام بمبدأ وحدة الأمة الإسلامية، والدعوة إلى المزيد من التقارب والتلاقي بما يصب في نهاية المطاف في صالح الجميع، وبما يجنبنا ويلات الفتن.

القرآن والسُّرْيَانِيَّة



﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ «النحل: ١٠٣».

عندما اصطدم كبار رجالات قريش - من المعاندين والمحاربين لرسول الله ﷺ - بأبعاد القرآن الإيمانية والتاريخية والمعرفية المتنوعة، مدركين بأنها لا يمكن أن تكون من عند النبي ﷺ - لا سيما بلحاظ أنه ما كان يقرأ ولا يكتب - لجأوا إلى اتهامه بالتعلم على يد بعض أهل الكتاب ممن كانوا يعيشون في مكة المكرمة.

هذه التهمة كانت تُلقَى على بسطائهم، ولا يُفصحون بها إلى المسلمين، ولذا جاءت «لام القسم» في بداية الآية مع «قد» ثم أعقبتها كلمة «نعلم» كل ذلك للدلالة على تداول الأمر في محيطهم الخاص.

فما كان مشركو قريش ليجرأوا على الإفصاح عن ذلك أمام المسلمين، لأنها ستكون فضيحة كبرى بالنسبة إليهم، فالرد سيكون سريعاً وصاعقاً: كيف يُعقل هذا وإنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير العربية، وفي القرآن من

الفصاحة والبلاغة والبيان العربي الواضح ما يُعجزهم؟ ولنلاحظ كيف أن شبابنا عندما يدرسون في مدارس أجنبية أو يشاهدون بكثرة البرامج الأجنبية سرعان ما تلتوي ألسنتهم، وتختلط عندهم الكلمات.. هذا شيء طبيعي. بينما لم يجد المشركون مثل هذا في القرآن أو في كلام النبي ﷺ.

ولذا جاء القرآن الكريم بالرد المختصر والواضح: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي حين ادّعوا أن تلك الكتب هي مصدر القرآن، فقد مالوا بقولهم هذا منحرفين مبتعدين عن الحق ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وفي ١٣ موضعاً من القرآن - بحسب ما أحصيت - تأكيد على عربية القرآن وأنه نازل بنفس لغة النبي، وبلغة واضحة مبينة وبلا خلل فيها: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨) متحدياً بذلك العرب أن يأتوا بمثله.

وقد رد القرآن على إشكالات المشركين العرب المتنوعة، ولم يكن من بينها أي إشكال حول عربية لسانه وبيانه.. ولو كانت هناك أية ملاحظة بهذا الخصوص لبانت وذكُرت.

بل ولبديهة ذلك، صار القرآن معياراً للقواعد النحوية والبلاغية والبيانية وللمفردات العربية لتقييم مدى صحتها وتوافقها مع لسان العرب.

ثم يطالعنا اليوم بعض المستشرقين والمتأثرين بهم - وبكل بلاهة - بمقالات ومؤلفات يزعمون فيها أن أصل القرآن سرياني آرامي!

علماً بأن السُريانية أو «لُشانا سُريايا» لغة أو لهجة مشتقة من اللغة الآرامية، وموطنها في نواحي من سورية، وتنتشر هذه المقولات في وسائل التواصل الاجتماعي من خلال دعاة الإلحاد واللا دينية العرب في سعي منهم لهزّ قناعات شبابنا المسلم، مستغلين ضحالة معارف أولئك الشباب اللغوية والدينية.

• شبهة تعريب القرآن:

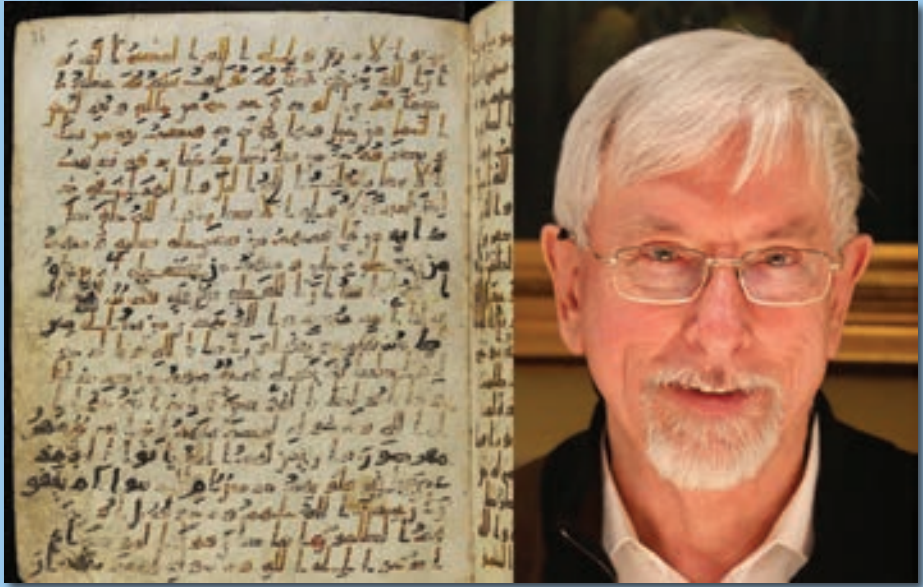
ومن بين ما نُشر مؤخراً في هذا الإطار المنشور الذي بدأ بقوله: (كشف علماء اللغات السامية الآرامية السريانية أن القرآن الذي كُتب في زمن محمد وعثمان بن عفان بالخط النبطي والحجازي ثم الكوفي الغير منقط ومن غير حركات ولا همزة، أنه كان خليطاً بين السريانية الآرامية وبين العربية).

يدّعي صاحب المنشور أن ٢٥٪ من كلمات القرآن مبهمّة، أو أسيء فهم معناها لأنها أصلاً غير عربية. بل زعم أحد المستشرقين من قبل أن حوالي ٨٠٪ من الكلمات القرآنية كانت سريانية!

وأضاف بأنه لما بدأ التنقيط والتشكيل، عُرِّبت بعض تلك الكلمات وحُرِّفت عن معانيها من قِبَل المسلمين العرب، إما جهلاً، أو اتباعاً للهوى.

• لا وجود للحوار العين:

من أمثلة ذلك عبارة «حوار عين» الواردة في قوله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ



بِحُورٍ عَيْنٍ ﴿الدخان: ٥٤﴾، حيث فسرها بالعنب، وأن أصل «زوجناهم» كان «رؤحناهم»، أي جعلناهم يتروّحون في حدائق العنب! واستنتج بالتالي أنه لا وجود أصلاً للهور العين في الجنة.

ولا أدري صراحة كيف يمكنهم تفسير قوله عز وجل: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٥٦-٧٤).

وبلغ الأمر استغفالاً وجرأة إلى حد تخطئة اسم النبي، فكلمة «محمد» بادعائه من صفات الله، وليست اسماً للنبي! ولا أدري بعد هذا ما اسم النبي الذي اكتشفوه بعبقريتهم الفذة! وهكذا بالنسبة إلى عنوان «القرآن»

وغير ذلك. وأود هنا أن أسجل عدة ملاحظات في الرد على ما سبق:

• الملاحظة الأولى:

هذه المحاولات ليست جديدة، بل إنه في العام ١٨٥٧، عَرَضَتْ «أكاديمية باريس» جائزة لأحسن تأريخ نقدي للقرآن، وفاز بها الألماني «ثيودور نولدكه»، وتحوّل بحثه إلى كتابه الشهير «تاريخ القرآن» والذي يُعتبر من أهم أسس رؤية الغرب ونظرتهم عن الإسلام والقرآن.

وما جاء في المنشور عبارة عن حلقة في سلسلة طويلة من محاولات الطعن والتشكيك في المصادقية السماوية للقرآن الكريم من قبل المستشرقين والمتأثرين بهم.

• الملاحظة الثانية:

المنشور اعتمد على ما جاء في مقال صادر في يناير من عام ١٩٩٩ في صحيفة «أتلانتيك» الأمريكية بعنوان «ما القرآن؟» وفيه عَرَضَ لآراء خبير المخطوطات المستشرق الألماني جيرد بوين Gerd Puin حول ما عُرف باسم المصحف الصنعاني أو مصحف صنعاء.. والقصة كالتالي:

في أوائل سبعينيات القرن العشرين اكتُشفت مجموعة من المخطوطات مخزّنة في سقف الجامع الكبير بصنعاء، ومن بينها بعض المخطوطات القرآنية القديمة والتي تعود إحداها إلى أواخر القرن الهجري الأول.

على إثر ذلك، قامت إدارة الآثار اليمنية بطلب المساعدة من ألمانيا لترميم المخطوطات وحفظها، فأرسلت الحكومة الألمانية الخبر «بوين»، والذي لم يكتف بالمهمة المناطة به، بل وصوّر تلك المخطوطات وقام بعمل بعض الدراسات عليها، وأعلن في ندوة له أنه اكتشف أموراً:

١. خلو بعض الكلمات في ذلك المصحف من الألف، بينما هي تُلفظ ممدودة في العربية، مثل كلمة «ساحر - كانوا»، وأرجع ذلك إلى أصلها السرياني الخالي من الألف.

٢. ترقيم الآيات مختلف في بعض الموارد عما هو مدوّن في المصحف المتداول عند الناس.

٣. ترتيب السور أحياناً غير متطابق مع المصحف المتداول عند الناس. ونقل الكاتب الأمريكي في مقالته تلك عن الخبر الألماني «بوين» قوله: (أن القرآن تطور عبر زمن طويل، لوجود علامات في المخطوطات تدل على إعادة كتابة بعض العبارات، وبالتالي فهو ليس كتاباً منزلاً من السماء في القرن السابع الميلادي، وأنه ليس بواضح ومبين).

ولما واجه «بوين» حملة واسعة من الاعتراضات، وخاف من ردة فعل الحكومة اليمنية بمنعه من المزيد من البحث والدراسة على من جديد اعتذر بأن المقالة لا تمثل رأيه.

• الملاحظة الثالثة:

ثم ظهر بعد سنة كتاب بعنوان «قراءة سيرو- آرامية للقرآن» باسم «كريستوف لوكسنبرغ»، قيل أنه الاسم المستعار لبوين نفسه، يعود ليؤكد فيه ما جاء في المقال، مع إضافات.

من بين هذه الإضافات إعادة كتابة وتفسير بعض السور بشكل مخالف تماماً لمضمونها ومرادها، انطلاقاً من ادعاءاته بأن أصل القرآني سرياني آرامي، وأن النبي تعلم من النصارى الذين كانوا يتحدثون ويؤلفون بالسريانية والآرامية، فألف النبي القرآن متأثراً بذلك!

مثال ذلك: سورة الكوثر.. فأصلها السرياني بادعائه: (إنا أعطيناك كوتارا، فصل لربك وانجر، إن شانتك هو الأتبر)! فكلمة «الكوثر» أصلها «كوتارا» في السريانية، وتعني «الإصرار».. وكلمة «انحر» كُتبت خطأً بالحاء ويجب أن تكون «انجر»، وتعني «ثابر» بالسريانية.. وكلمة «أبتر» كُتبت خطأً ويجب أن تكون «أبتر»، وتعني «المهزوم» في السريانية.. أي (إنا أعطيناك مزية الإصرار، فصل لربك وثابر، إن شانتك هو المهزوم)... وعلى هذا فقس.

• ردود على الشبهة:

أما الرد على ما سبق، ففي نقاط:

١. لا بد أن نفرّق بين القرآن والمصحف، فالقرآن هو الوحي النازل على

نبينا ﷺ، وقد قال الله عز وجل في شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). أما المصحف فهو جهد بشري لتجميع وتدوين وترتيب سور القرآن، وقد اجتهد المسلمون في ذلك وظهرت عدة مصاحف اختلفت في ترتيبها وطريقة التدوين، ثم تم توحيدها في شكل المصحف العثماني. هذا الاختلاف كان شكلياً على الورق، أما القرآن فقد حفظه المسلمون عن ظهر غيب وتوارثوا ذلك عبر القرون وإلى يومنا هذا، ولدينا في مسجدنا هذا من تتصل سند قراءتهم للقرآن إلى النبي.

ولو طُبع المصحف - مثلاً - أو نُسخ بشكل خاطيء أو منقوص عمداً أو سهواً، فلن يؤثر ذلك في نص القرآن، لأنه محفوظ لدى المسلمين.

٢. لم يدع أحد من المسلمين أن العرب كانوا فطاحل في الكتابة، وأكثرهم من الأميين، ومن المعلوم أنهم تأثروا بالكتابة السريانية والنبطية، وهذا ما انعكس على كتابة المصحف، فكلمة «الرحمن» خلت من الألف، وكلمة «الصلاة» كتبت بالواو، وهكذا تأثراً بتلك الخطوط.

هذا لا يعني أن القرآن نزل بالسريانية أو غيرها أو مأخوذ من نصوص سريانية.. بل كتابة المصحف هي التي تأثرت بطريقة كتابة الكلمات في تلك اللغات.

ولتقريب الصورة نقول: اللغة التركية كانت تُكتب إلى عهد قريب بالخط العربي، ومع قدوم أتاتورك اعتمد الخط اللاتيني فهل هذا يعني أن

الأترك كانوا يتحدثون العربية ثم أصبحوا يتحدثون اللاتينية؟

٣. وقد التفت الخليفة عثمان إلى هذا بعد أن عُرض عليه المصحف في ختام مشروعه في توحيد المصاحف حيث قال: (إنّ في المصحف لحناً ستُقيمه العرب بألسنتهم، فقليل له: أفلا تغيّره؟! فقال: دعوه، فإنّه لا يحلّ حراماً ولا يحرم حلالاً).

٤. وجود محو لأسطر وإعادة كتابة لا تعني بالضرورة تغييراً في النص الأصلي للقرآن، فقد يُخطيء الناسخ في كتابته، فيمحو ويعيد الكتابة.. وقد ينمحي الحبر بمرور الزمان فتُعاد كتابة بعض الأسطر، وأمثال ذلك، ويبقى نص القرآن محفوظاً في قلوب آلاف المسلمين دون تغيير منذ عهد النبي ﷺ إلى أن يرث الأرض وما عليها.

٥. من المضحك أن لا يكتشف العرب الجاهليون ومن جاء بعدهم عدم عربية القرآن وأنه غير مفهوم وأنه ليس بمبين، مع تحدي القرآن لهم بذلك، ثم يكتشفها الأوروبيون الذين لا تمثّل العربية بالنسبة إليهم اللغة الأم.

٦. من السهولة بمكان التلاعب بالكلمات، وأن هذه الكلمة سريانية، وتلك آرامية، وثالثة قبطية، لمجرد وجود تشابه ما، مع اختلاف المعاني، إلا أن الادعاء شيء وإثبات ذلك شيء آخر.

٧. اللغة العربية ككل اللغات تتأثر بمحيطها، فتعمل - كما هو مصطلح عليه في الألسنيات - على استعارة (Borrowing) كلمات من لغات

أخرى، ثم تتحول تلك الكلمات بمرور الزمان إلى جزء من قاموسها اللغوي.

مثال ذلك: سَجَّين، زنجبيل، استبرق، فرعون... وهذا شيء، وادعاء أن النص الذي استعمل هذه الكلمات ليس نصاً عربياً شيء مختلف تماماً. ولذا لا يُلتَفَت إلى محاولة كاتب المنشور في ختامه لإيهامنا بحسم الأمور لصالح الطعن في القرآن حيث قال: (بهذا أثبت أولئك العلماء أن القرآن الحديث المعرب لا يطابق القرآن القديم الأصلي الغير منقط، و يختلف كثيراً في معاني الكلمات والآيات)، فدونه ودونهم خرط القتاد.

• القرآن كتاب الله لا محالة:

إن القرآن الكريم هو كتاب الله عزَّوَجَلَّ المنزل بالوحي على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين، وهو بلسانٍ عربي مبين، تحدَّى فيه أقحاح العرب، في لغته، وبيانه، وفصاحته وحكمته، ومضامينه الرفيعة، وآياته الباهرة، أن يأتوا ولو ببعضٍ من مثله، فوهنوا وما استطاعوا ونكسوا رؤوسهم صاغرين مقرّين بعجزهم، فخلف من بعدهم خلفٌ من المسلمين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وغرَّهم المستشرقون، فسوف يلقون غيًّا، والعاقبة للمتقين.

من قتل الحسين عليه السلام

عندما بلغت الأمور ذروتها بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، ودُقت طبول الحرب، صار بعض الناس في حالة ترقّب لموقف عمار ابن ياسر.. مع أي الطرفين سيحسم أمره؟

وهل سيختتم حياته في هذه المواجهة؟

وإذا كان الأمر كذلك، فمن الذي سيقتله ليمتاز عندهم بذلك الحق من الباطل؟

فقد شاع بين المسلمين قول النبي ﷺ بشأنه: (تقتله الفئة الباغية) كما في صحيح البخاري ح ٤٣٦: (عن عكرمة: قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد) الخدري (فاسمعا من حديثه. فانطلقنا، فإذا هو في حائط يُصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لَبَنَةً لَبَنَةً، وعمار لبنتين لبنتين. فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار! تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة، ويدعوهم إلى النار).

ولذا كان البعض من جيش الشام يتوادعون فيما بينهم أنهم لن يقتلوه مهما حصل. ففي تاريخ دمشق لابن عساكر عن هُنيّ مولى عمر بن الخطاب قال: (كنتُ أولَ شيءٍ مع معاوية على علي، فكان أصحاب معاوية يقولون: لا والله لا نقتل عماراً أبداً، إن قتلناه فنحن كما يقولون).

• استشهاد عمار:

وفعلًا، استشهد عمار في صفين، وأثار استشهاد ارتباكاً في معسكر الشام. ولكن مع هذا، استطاعت الآلة الإعلامية - مع رغبة الناس في التصديق - أن توظف الأمر لصالحها، فقيل للناس: (إنما قتله الذي خَرَجَ به) فصدّقوا ذلك، وبلعوا الطعم، واستمروا في قتال علي عليه السلام! وإمعاناً منهم في خلط الأوراق وإلباس الحق بالباطل، طالبوا بالصلاة على جنازته!

قال ابن عساكر: (لما بلغ أهل الشام يومَ صفين أن عمار بن ياسر قد قُتل، بعثوا مَنْ يعرفه ليأتيهم بعلمه، فعاد إليهم فأخبرهم أنه قد قُتل، فنادى أهل الشام أصحابَ علي: إنكم لستم بأولى بالصلاة على عمار ابن ياسر منا! قال: فتوادعوا عن القتال حتى صلوا عليه جميعاً).

• التوظيف الإعلامي للقضية:

وهكذا تحوّل حديث النبي ﷺ من معيار للتقييم، إلى مادة إعلامية

وُظِّفَتْ لصالِح طرف معين، اعتماداً على التأويل الباطل، وعلى استعداد الناس للتصديق والخضوع.

• النبي يبكي قتيل كربلاء:

ومثل ذلك جرى عند استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. فقد تناقل المسلمون أحاديث النبي ﷺ بشأن سبطه وريحانته، كما رووا أحاديث بكائه عليه. مثال ذلك ما في كنز العمال للمتقي الهندي برقم ٣٧٦٦٩ عن أم سلمة قالت: (كان النبي ﷺ جالساً ذات يوم في بيتي فقال: لا يدخلن عليّ أحد فانتظرت فدخل الحسين فسمعت نشيج النبي ﷺ يبكي، فاطَّلعْتُ فإذا الحسين في حجره أو إلى جنبه يمسخ رأسه وهو يبكي، فقلت: والله! ما علمتُ به حتى دخل، فقال النبي ﷺ: إن جبريل كان معنا في البيت فقال: أتجبه؟ فقلت: أمّا من حب الدنيا فنعم. فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرضٍ يقال لها كربلاء. فتناول جبريل من ترابها فأراه النبي ﷺ).

وشكّل استشهاداه عليه السلام بالتالي صدمةً عند المسلمين، وتدخلت الماكنة الإعلامية مرة أخرى من أجل أن تلتف على الحقيقة، وتوظف الحدث لصالِح الجهاز الحاكم، اعتماداً على التأويل الباطل، أو من خلال تحميل ابن زياد مثلاً مسؤولية الجريمة الكبرى.

• تطرّف القاضي ابن العربي:

بل تطرّف بعضهم كالقاضي ابن العربي فقال: (وما خرج إليه أحد

إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل،
المخبر بفساد الحال، المحذر عن الدخول في الفتن).

وماذا قال النبي بحسب ابن العربي؟ (إنه ستكون هنّات وهنّات،
فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً
من كان) ثم أضاف ابن العربي مبيناً فكرته: (فما خرج الناس إلا
بهذا وأمثاله). وللعلم بأن عدداً من علماء المالكية أفتوا بحرمة دفن ابن
العربي في مقابر المسلمين بعد مقولته هذه!

وبقي السؤال الكبير حاضراً عبر القرون: مَنْ قتل الحسين عليه السلام؟

• تطرف متقابل:

وتحوّل هذا السؤال تدريجياً إلى مادة للتراشق بالاتهامات بين
المذاهب.. فالمتطرفون من كل طرف لجأوا إلى تحميل الطرف الآخر
المسؤولية الكاملة عما حدث.. المتطرفون من هذا الطرف حمّلوا أهل
السنة مسؤولية استشهاد الحسين عليه السلام.

والمتطرفون من الطرف الآخر حمّلوا الشيعة مسؤولية استشهاد!

• لماذا خرج الحسين؟

والواقع أن الحسين لم يخرج بعنوان طائفي، بل كانت المسألة كما قال
هو عليه السلام: (وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت



لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر،
وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب).

ولم ينصره مَنْ نصره من أهل المدينة والكوفة وما سواهما لأنه خرج
على أهل السنة مثلاً، ولا حاربه مَنْ حاربه من أهل الكوفة وغيرها
لأنه إمام الشيعة، بل خرجوا عليه لأنهم استسلموا لأطماعهم، وباعوا
آخرتهم بديناهم، فكانت المسألة كما قال غيلانم: (الناس عبدة الدنيا
والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معاشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء
قلَّ الديانون).

• حقيقة ما جرى:

والذي يجب أن نقوله هنا بكل وضوح: إن الذي أمر بقتل الحسين هو يزيد بن معاوية.. وائتمر ابن زياد بأمره، فأنفذ جيشاً من عبّيد الدنيا بقيادة ابن سعد، فقتلوا الحسين وأنصاره، وقطعوا الرؤوس ومثلوا بالثّمامين الطيبة، وأسروا النساء والأطفال، وساقوهم إلى الكوفة، فالشّام، بأبشع صورة.

ثم سعوا بعد ذلك إلى قتل قضية الحسين عليه السلام بالخطاب الديني والإعلامي المزور للحقائق، والمتلاعب بالنصوص والمفاهيم. نقطة آخر السطر.

• قتل قضية الحسين:

وعلى المسلمين جميعاً أن يسألوا أنفسهم: ألسنا نعمل اليوم - بصورة أو بأخرى - على قتل قضية الحسين عليه السلام كل عام؟

إن الذين يطالبوننا كل عام بإهمال هذه الذكرى ومحوها من الذاكرة - وبتبريرات باردة - ويؤنبوننا لإقامة المجالس الحسينية، ويشنون حرباً إعلامية في هذا الاتجاه، إنما يسعون إلى قتل قضية الحسين، كما سعى الأمويون إلى ذلك من قبل.

والذين يحولون ذكرى عاشوراء إلى مناسبة لشحن الصدور ضد

إخوانهم من أهل السنة، وللطعن في مقدساتهم، وإثارة النعرات الطائفية، إنما يسعون إلى قتل قضية الحسين، كما سعى الأمويون إلى ذلك من قبل.

والذين يطالبوننا بأن نجعل من ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام وأنصاره يوم فرح وسرور، بحجة أن الشهادة هي السعادة الكبرى، إنما يسعون إلى قتل قضية الحسين، كما سعى الأمويون إلى ذلك من قبل.

والذين يصرون في كل عام على إحياء هذه الذكرى في صورة مموجة وبشعة تشمأز منها النفوس، وتشوّه صورة الثورة الحسينية، بشق الرؤوس، وجرح الأطفال، والمشي على الجمر، والتدحرج على الزجاج المهشّم، والعواء وأمثال ذلك، إنما يسعون إلى قتل قضية الحسين، كما سعى الأمويون إلى ذلك من قبل.

فلنجعل قضية الحسين عليه السلام في نهضته المباركة في سياقها الصحيح لنكون صادقين مع أنفسنا ومع الله عزّ وجلّ حين نقول: يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً.



من عوامل تردّي المنبر الحسيني

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٧).

كان المنبر الحسيني طوال قرون مضت مقتصرًا على ذكر جوانب من الحدث التاريخي العاشوري، ممزوجًا بأبيات شعرية حزينة تثير العاطفة الجياشة، وتبعث الأمل في النفوس لقدم ذلك اليوم الذي يظهر فيه الإمام المهدي عليه السلام ليحقق الحق بأمر الله عز وجل.

• السبت واليعقوبي:

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت نقلة نوعية في المنبر الحسيني، حيث كان الشيخ الأديب كاظم السبت (ت ١٩٢٠) وبعد أن يرثي الحسين عليه السلام والشهداء بقصيدة - يقوم بقراءة نص منتخب من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - وكان يحفظ نهج البلاغة عن ظهر

قلب - ثم يشرح ما فيه من مفاهيم وقيم، مؤيداً ذلك بالآيات والأحاديث والآيات الشعرية.

ومن بعده سطع نجم الشيخ محمد علي اليعقوبي «ت ١٩٦٥» الذي انتقل إلى بغداد وبقي فيها عشر سنوات بالحاح من الجماهير التي انجذبت إلى خطابه الحسيني المتميز، من خلال ما قدمه لهم من مواعظ ومفاهيم أخلاقية وتربوية وعقدية.

• منبر الدكتور الوائلي:

ثم جاء الشيخ د. أحمد الوائلي، الذي غدا علماً يشار إليه بالبنان، وتحول إلى مدرسة لخطباء المنبر الحسيني، لاسيما وأنه بدأ تحمل هذه المسؤولية أيام المواجهة الحادة مع المد الشيوعي والرأسمالي وانحسار التيار الإسلامي. فجعل منبره منبر وعي ودفاع عن الإسلام ونشر للثقافة الدينية دون أن يبخس الجانب الأدبي حقه، ومن غير أن يتجاوز تقاليد المنبر الحسيني، ولذا استحق بجدارة لقب عميد المنبر الحسيني.

• ظروف مواتية ولكن...:

وعلى الرغم من التغيرات الإيجابية الكبيرة التالية في:

١- ظروف بعض (المجتمعات الشيعية) سياسياً.

٢- هامش الحرية المتاحة لهم.



٣- الانفتاح العلمي والمعلوماتي الهائل الذي يشهده العالم ككل،
وتوافر المصادر والمكتبات العامة.

٤- النشاط المحموم لحركة الطباعة والتأليف وإنشاء الجامعات والمعاهد.
إلا أننا نشهد في السنوات الأخيرة تردّياً واضحاً في مستوى المنبر
الحسيني - فضلاً عن تطويره - وضعفاً في الأداء، وتخلفاً عن مواكبة
التحديات الفكرية والأخلاقية والتربوية والثقافية لمجتمعاتنا. وهذا
التردّي يوازيه أيضاً التردّي في المزاج العام لجمهور هذا المنبر.

• بيان مكتب السيد السيستاني:

وقد جاء في بيان مكتب المرجع الديني سماحة السيد السيستاني

بعنوان: «توصيات عامّة من المرجعية الدينية العليا للخطباء والمبليّين في شهر المحرم الحرام لعام ١٤٣٨ هـ» في البندين الثالث والرابع منه ما قد يؤيد ذلك إذ طالب بـ: (تحري الدقة في ذكر الآيات القرآنية أو نقل الروايات الشريفة من الكتب المعتبرة أو حكاية القصص التاريخية الثابتة، حيث أن عدم التدقيق في مصادر الروايات أو القصص المطروحة يفقد الثقة بمكانة المنبر الحسيني في أذهان المستمعين) وفي البند الرابع منه: (أن يترفع المنبر عن الاستعانة بالأحلام وبالقصص الخيالية التي تسيء إلى سمعة المنبر الحسيني، وتظهره أنه وسيلة إعلامية هزيلة، لا تنسجم ولا تتناسب مع المستوى الذهني والثقافي للمستمعين).

• المشكلة أكبر من ذلك:

وأعتقد أن المشكلة أكبر من مجرد عدم تحري الدقة والاستعانة بالأحلام.. ويمكن أن نُرجع التردّي الذي أصاب المنبر الحسيني الناطق بالعربية إلى أسباب، من بينها:

١- غياب شبه تام لدور المؤسسات التعليمية الدينية في إعداد خطباء متخصصين يمتلكون مؤهلات تتجاوز تحسين الصوت، وحفظ الشعر، وفن الإثارة العاطفية. خطباء:

• أتقياء يخافون الله في الكلمة التي يطلقونها

• وعلى مستوى راق من التحصيل الحوزوي والأكاديمي

- مع متابعة دائمة لآخر الإصدارات الفكرية والفقهية والثقافية
- والاطلاع الجيد على الساحة التي يعملون بالتبليغ فيها والتعاطي المعرفي مع جماهيرها
- ويحملون روحاً رسالية، فيرون في المنبر الحسيني وسيلة من وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أنه مجرد وسيلة للشهرة، أو مراكمة الثروات، أو مهنة لكسب لقمة العيش.. حتى بتنا نشهد من البعض أنه كلما زاد العطاء المالي لهم تنامى عطاؤهم المنبري، والعكس صحيح!

ومن المؤسف أن تجد بعض الخطباء وقد تحولوا إلى ما يشبه إذاعة ما يطلبه المستمعون! فإذا استضيف من قبل جهة مغالية، رفع سقف حديثه عن أهل البيت عليهم السلام اعتماداً على معتقدات وروايات الغلاة، على الرغم من أنه لا يعتقد في قرارة نفسه بما يقول!

٢- ضعف - ولا أقول غياب أو فقدان بل ضعف - الدور الأبوي الحاسم للمرجعيات الدينية في معالجة سلبيات المنبر الحسيني وترقية أدائه.

وقد شهدنا - بحمد الله - في هذا الموسم بعض التوجيهات المرجعية بطريقة أو بأخرى، كما أشرت إلى ذلك مسبقاً عند تناول بيان مكتب المرجع الديني سماحة السيد السيستاني.

• توجيهات السيد الخامنئي :

وكما شهدنا ذلك أيضاً في خطاب المرجع الديني سماحة السيد علي الخامنئي الذي تكلم بكل وضوح عن أن الحل لا يكمن في إطلاق التوجيهات أو تشكيل مؤسسة أو هيئة متخصصة. وأضاف أنه لا بد من همة جادة، وعمل متواصل، ومتابعة مستمرة، من قبل نخبة من العلماء والفضلاء للتوصل إلى حلول جذرية، وعليهم أن لا يتهيبوا ردود الأفعال. ونبه إلى أن ارتباط الشباب اليوم بالإسلام ارتباط عاطفي، وهو في منتهى القيمة، إلا أنه غير كاف، لأنه كموج البحر يمتد وينحسر.. أما الارتباط المبني على الفكر فهو ضمانته الاستمرارية... انتهى النقل.

المجلس الحسيني ما عاد مجلساً مغلقاً ينتهي مضمونه بختامه، بل صار مادة دسمة للمتصيدين ممن ينصبون العداء لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، وللملاحدة، واللا دينيين، ولأجهزة المخابرات التي تعمل على تمزيق المجتمعات، وزرع الفتن، وإثارة النزعات، وخلق الصعاب البينية لأغراض أمنية وسياسية.

هذه الحقيقة تجعل من العمل المرجعي الواعي المتناغم مع متطلبات المرحلة - والذي ينبغي أن يكون صارماً أحياناً بإصدار فتاوى تحرّم وتجرم ما يصدر عن بعض الخطباء مما يسيء إلى المذهب أو يثير النزعات - مطلباً حيوياً ومهماً جداً.

• جرأة على الله:

فى السابق كانت جرأة بعض الخطباء تبلغ مستوى أن ينسبوا ما لله عزوجل لغير الله.. أما اليوم فقد بلغ ببعض الخطباء أن يتجرأوا على الذات الإلهية بكلام تقشعر له الأبدان.

عن ابن أبى عمير، عن ابن المغيرة، وهو الحارث بن المغيرة النصرى من الثقات والأجلاء قال: (كنت عند أبى الحسن عليه السلام أنا ويحيى بن عبد الله بن الحسن) بن الحسن المجتبى (عليه السلام) فقال يحيى: جعلت فداك، إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب. فقال: سبحان الله، سبحان الله، ضع يدك على رأسى. فوالله ما بقيت فى جسدى شعرة ولا فى رأسى إلا قامت. قال، ثم قال: لا والله ما هي إلا وراثته) أي نرث هذا العلم كابراً عن كابر وفى نسخة «رواية» بدلاً من وراثته (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم). لاحظ ردة فعل الإمام الكاظم عليه السلام كيف كانت عند نسبة ما لله لغير الله.

الرواية الأخرى عن مصادف قال: (لما لبى القوم الذين لبوا بالكوفة) قال المجلسى: أي قالوا: لبيك جعفر بن محمد لبيك، كما يلبون الله (دخلت على أبى عبد الله عليه السلام فأخبرته بذلك، فخرّ ساجداً وألرزق جُوجُوه) صدره (بالأرض وبكى، وأقبل يلوذ بأصبعه ويقول: بل عبدُ الله) وفى نسخة عبدُ الله (قنّ داخر - مراراً كثيرة - ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته. فندمت على أخبارى إياه. فقلت: جعلت فداك وما عليك أنت من ذا؟ فقال: يا مصادف إن

عيسى لو سكت عما قالت النصارى فيه، لكان حقاً على الله أن يَصْمَّ سمعه ويُعْمِي بصره، ولو سكتَ عما قال في أبو الخطاب، لكان حقاً على الله أن يُصِمَّ سمعي ويُعْمِي بصري).

وهذا الحضور المرجعي الواضح والحاسم الذي نطالب به، سيمكّن المخلصين - أيضاً - من المبلغين والخطباء والمثقفين والشباب من الارتكاز عليه من أجل مواجهة مشروع تسطيح الخطاب الشيعي ككل، والخطاب الحسيني على وجه الخصوص.

• تسطيح متعمد:

هذا التسطيح الذي يصعب أن نُقنع أنفسنا بأنه أمر عفوي تفرزه الظروف بعيداً عن أيادي خفية تعمد إلى تعزيز ذلك إلى المستوى الذي بات فيه البعض يطالب بإعادة المنبر الحسيني إلى وضعه القديم بالاختصار على المراثي وذكر المصيبة على حد التعبير الدارج.

٣- غياب ثقافة النقد البناء، واستحكام هالة القداسة المحيطة بالخطيب الحسيني، مما يدفع إلى قبول كل ما يُطرح على المنبر، أو تحسينه، أو التخوف من نقده إجلالاً لهالة القداسة.

أو تفضيل المنتقدين للسكوت على أن يُمسوا لقمةً سائغةً للخطيب حين يستغل ارتقاءه للمنبر من أجل النيل من «العوام» و«الجهلة» الذين نالوا من «كرامته» و«قداسته»، ويسلّط عليهم قدراته الخطابية ليمسح بهم

الأرض، ويستفيد من قداسة المنبر في نظر الناس من أجل تحطيم من تجرءوا على انتقاده.

• منبر الإسلام:

إن المنبر الحسيني منبر الإسلام، ومنبر الوعي، ومنبر القيم الإنسانية.. هو المنبر الذي أسسه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من أجل إبقاء شعلة النهضة الحسينية متقدة في النفوس من خلال أحداثها البطولية والمأساوية، ومن خلال أهدافها وقيمها.. وهو المنبر الذي قدم المؤمنون بهذه النهضة المباركة الكثير من التضحيات من أجل ضمان استمرار عطاءاته.

ومسؤولية الارتقاء بالمنبر الحسيني مسؤولية مشتركة تقع على عاتق المرجعية الدينية والمؤسسات الحوزوية والعلماء والمفكرين والخطباء، وعلى أصحاب المجالس الحسينية والجماهير.

وهي بالنظر إلى التحديات الفكرية والأخلاقية والأمنية والسياسية التي يعيشها عالمنا الإسلامي أمام مسؤولية لا يُستهان بها، وتتطلب تظافراً في الجهود، وإخلاصاً لله في العمل.

نسأل الله عز وجل أن يعود المنبر الحسيني للارتقاء مجدداً من هذه الكبوة التي تُلَمَّ به

النبي يحيى والإمام الحسين

قال عز وجل: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٧).

كانت ولادة يحيى بشارةً كبيرةً لأبيه النبي زكريا عليه السلام، لأنه كان يعيش قلق الأوضاع الرسالية التي يمر بها مجتمعه آنذاك، وهو ما عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم: ٥-٦).

فقد بذل الأنبياء جهوداً كبيرة من أجل إصلاح مجتمع بني إسرائيل، إلا أن هذا المجتمع المتمرد كان ينقلب على عقبيه، وينغمس في الماديات، وفي أنواع المعاصي، بما في ذلك الشرك بالله عز وجل!

وكان لكهنة بني إسرائيل دوراً رئيساً في هذه الانحرافات، وإنما عبّر عنهم زكريا عليه السلام بعنوان «الموالي»، لأن من معاني هذه الكلمة: (أقارب الرجل من جهة الأب). ومن المعلوم أن الكهانة كانت في ذرية هارون أخي موسى عليه السلام، وزكريا منهم.

لقد خاف زكريا عليه السلام على الرسالة من بعده، بأن يبرز بعض الكهنة المنحرفين، ويسيطروا على الشؤون الدينية للناس بشكل كامل، فيُفسدوا ما أصلحه - هو - والأنبياء على مدى سنوات طويلة.

ولذا سأل الله تعالى أن يهب له ولياً، ولداً ذكراً يكون تقياً طاهراً ترعاه العناية الإلهية كما هو شأن مريم بنت عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ «آل عمران: ٣٨»، وذلك لكي يقوم بالمسؤولية من بعده، فمهما ارتفع شأن السيدة مريم، فإنها لن تستطيع ولن يُسمح لها بأن تقوم بهذا الدور.

• هيرود الطاغية:

وولد يحيى، الإنسان الطاهر، النقي الروح، الطيب السيرة.. وأوتي النبوة، ونهض بمسؤولياته الصعبة في مواجهة التحديات المختلفة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ «مريم: ١٢».

في ذلك الوقت، كان الطاغية الحاكم على جزء من أرض فلسطين والأردن هو الملك «هيرود» الحليف الأمين للإمبراطورية الرومانية. ومن بعده جاء ابنه «هيرود أنتيباس» الذي حكم جزء من مملكة أبيه، وواجهه النبي يحيى بقوة لظلمه، كما واجهه أحرار وكهنة اليهود الفاسدين، ودعا الجميع إلى التوبة، وإلى تذكر يوم القيامة، وبشّرهم بنبوة روح الله المسيح عليه السلام الذي يصغر عنه بسنوات قلائل.

لقد نهض عيسى عليه السلام للدعوة في الضفة الغربية لنهر الأردن، بينما نهض بها يحيى عليه السلام في الضفة الشرقية، حيث كان طابع ذلك المكان صحراوياً يتسم بالحياة الفطرية البعيدة عن المدنية.

عاش يحيى عليه السلام حياة بسيطة جداً في ملبسه ومأكله ومشربه ولم يتزوج، ليواجه بذلك المادية المستفحلة في مجتمعه، والتي اعتبرها أساس خطاياهم.

ومن طريف وغريب ما قرأت في «قصة الحضارة» لول ديورنت أن هؤلاء الأحرار كانوا يتشددون في تعاليم الطهارة الجسدية وأمثال ذلك، في الوقت الذي أباحوا فيه الربا إشباعاً لنهم الناس.

• استشهاد يحيى النبي:

وتأمرت عليه الأطراف المختلفة.. فقد سجنه «هيرود أنتيباس» خوفاً منه وتحت تأثير تحريضات أحرار وكهنة اليهود الفاسدين، ثم قتله في نهاية المطاف بطلب من زوجته المعروفة بفسقها.. وقد قُطع رأسه الشريف، فُدُن في دمشق على ما هو المشهور، بينما دُفن جسده في فلسطين.

وبعد ذلك بسنوات، جاء الانتقام الإلهي من ذلك المجتمع الظالم والفاسد.. المجتمع الذي كان ينبغي له أن ينصر هذا النبي الكريم، فإذا به بين خاذل ومتآمر على قتله!

وقد أكد هؤلاء الخاذلون المتآمرون طغيانهم من خلال عدائهم للمسيح أيضاً، وهم الذين كانوا ينتظرون قدومه، ويطلقون البشارات بظهوره، ليتحقق لهم وعلى يديه الخلاص، فإذا بهم يقومون بالتآمر عليه مع الرومان، ويحاولون قتله صلباً.. فأنجاه الله.

• دمار دولة بني إسرائيل :

وهكذا لم يكد النصف الثاني من القرن الميلادي الأول يبدأ حتى انتشرت الفتنة في مجتمع اليهود. وانقسموا إلى فئتين متقاتلتين، فئة الأغنياء المتحالفة مع الرومان، وفئة الفقراء.. ووقع القتل بين الطرفين، وقُتل من الأغنياء وحلفائهم في عام «٦٨ م» اثني عشر ألفاً.

ثم وقعت الفتنة في مدينة أخرى بين اليهود وغيرهم، فقتل في ذلك اليوم من اليهود عشرون ألفاً، وبيع الآلاف منهم ببيع الرقيق.. كما وقُتل من اليهود عشرة آلاف في دمشق.

وبدأ اليهود بالانتقام في المدن المختلفة، وأعلنوا الثورة على الرومان والأغيار، وانتشر الموت بين الطرفين، حتى صارت الجثث تملأ المدن دون أن يدفنها أحد. وانتهت المواجهات بسيطرة اليهود على أكثر المناطق التي كانوا يستوطنون فيها.

وفي عام «٧٠ م» حاصر القائد الروماني «تايّس» القدس لمدة خمسة أشهر، واضطروا لأكل الجثث التي صارت ملقاة في الأزقة،

ولما ازدحمت بها ألقوها من فوق السور إلى خارج المدينة.. وسقطت القدس بيد الغزاة، فأحرقوا هيكل سليمان، وقتلوا أعداداً هائلة من اليهود، وأسروا منهم عشرات الآلاف، واضطر قرابة المليون منهم إلى الهجرة في المناطق المختلفة، وتحولوا إلى لقمة سائغة للمجتمعات التي كانت تُبغضهم وتُبغض سلوكياتهم المنفّرة، فقتلوا من جديد زرافات ووحداناً.

• سَنَةُ الانتقام الإلهي:

هذه صورة من صور الانتقام الإلهي، وقد جاءت وفق السنن والقوانين الإلهية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْدِبِينَ﴾ «آل عمران: ١٣٧».

فالطاغوت يزداد استكباراً حين يجد أن المجتمع يخذل أنبياءه والمصلحين المقدّسين فيه، ولا يهبّ لنجدتهم وخلاصهم، بل ويتأمر عليهم ويسلمهم إليه! إن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يحترمه طاغية أو أن يركن إليه.. بل هو مجتمع لا يستحق إلا أن يُسحق، ويُستضعف، ويُستولى على ممتلكاته ومقدّراته، وأن يحوّل أفرادُه إلى عبيد عنده.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ «الأنعام: ٦٥».

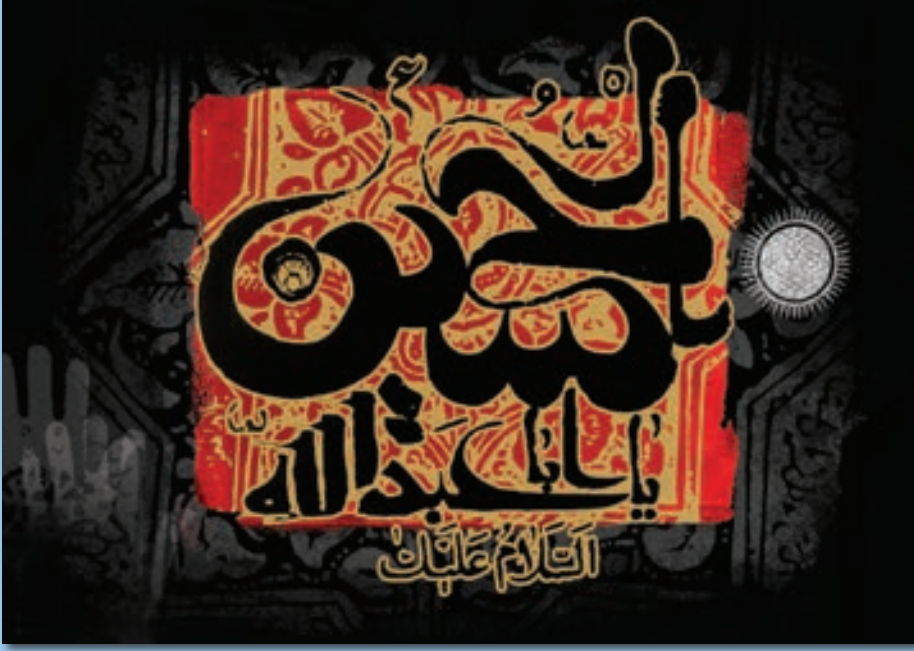
• الانتقام الإلهي للحسين:

وهذا بالدقة ما جرى بعد عاشوراء.. في المستدرك على الصحيحين برقم «٣٠٧٤» عن ابن عباس قال: (أوحى الله إلى نبيكم ﷺ: أني قتلت يحيى بن زكريا سبعين ألفاً، واني قاتل بـابن ابنتك سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً). وأورد القرطبي هذا الخبر في تفسير الآية «٧» من سورة الإسراء.

وروى المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: (خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا وذكر يحيى بن زكريا عليه السلام. وقال يوماً: من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل).

لقد كانت الجريمة الكبرى التي ارتكبت في يوم عاشوراء بحق الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وأهل بيته مُفتحةً لارتكاب المزيد من الجرائم. فقد وجد يزيد أن المجتمع الذي أسلم الحسين وخذله مجتمعٌ لا حرمة له، ومَن يسترخص دمَّ الحسين - كيزيد - سيسترخص كلَّ دمٍ آخر!

ولذا لم يتردد في محاصرة المدينة المنورة، وإباحتها لجيشه ثلاثة أيام، وإيقاع القتل في أهلها وهتك الأعراض ونهب الممتلكات بما يفوق الوصف، ويندي له الجبين، حتى ألزم الناس فيها بالبيعة ليزيد على أنهم عبيدٌ له! ثم توجه جيشه إلى مكة المكرمة التي حوصرت، واستبيحت حرمتها، وقُذفت الكعبة المشرفة بالمنجنيق!



وتوالى الأحداث الدامية بعد ذلك على مدى عقود من الزمن،
وامتدت على يد أمثال الحجاج وخالد القسري، وراح فيها عشرات
الآلاف من الناس قتلاً في الحروب والفتن والثورات المختلفة.

ولنأخذ العبرة والحذر من سنن الله ونَقِمَتِهِ، فمن يساهم أو يرضى
بما يجري حولنا في بلاد المسلمين من سفكٍ لدماء الأبرياء وانتهاك
للحرمات وتدمير للمقدّرات من أي طرف كان، فلن يكون بعيداً عن
الانتقام الإلهي ليزوق بعضاً مما شارك فيه أو رضي به.

نشور الزوج والزوجة

أساس بناء العلاقة الزوجية في الإسلام قائم على ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ «الروم: ٢١».

وفي قوله عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ «النساء: ١٩»... وفي قوله جل جلاله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ «البقرة: ١٨٧».

وبالتالي فمن المفترض أن يقوم الطرفان برسم معالم هذه العلاقة بما يتوافق مع هذه العناوين، وأن لا يخنقا العلاقة الزوجية في إطار ما يُعرف بمنظومة الحقوق والواجبات، وكأن العلاقة بينهما علاقة بين مدير وموظف، أو بين ضابط ومجنّد، أو بين حاكم ومحكوم.

إذا أدخلنا العلاقة في هذا الإطار الجاف الخالي من أي عواطف، فقد حكما على العلاقة الزوجية بالفشل الذريع، وتصبح الحياة الزوجية جسداً بلا روح.. فهل سيكون لهذه العلاقة أي طعم؟!

وقد تتساءل: لماذا إذاً هناك منظومة الحقوق والواجبات بين الزوجين؟

والجواب أن هذه المنظومة إنما وُضعت من أجل:

١. رسم معالم العلاقة في حدّها الأدنى، حيث تبرز الخلافات بين الطرفين، وكل منهما يدّعي على الآخر الإهمال وعدم الالتزام بالمسؤوليات الخاصة به في إطار الحياة الزوجية، ولم يمكن إعادة بناء هذه العلاقة بشكل طبيعي قائم على ما جاء في الآيات السابقة.

٢. كي يدرك كل طرف ما هو الحد الأدنى لما هو مطلوب منه فلا يتجاوزه في خلال بناء العلاقة الزوجية الطبيعية.

وقد تتردّى العلاقة بين الزوجين بحيث لا يقوم أحدهما أو كلاهما بهذا الحد الأدنى أيضاً، ويصل الأمر إلى حد ما يُعرف باسم «النشوز»، وهو ما ذكرته الآية الشريفة التالية: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٢٨).

• المفهوم اللغوي للنشوز:

في اللغة كلمة نشز تعني: «خَرَجَ عن المعتاد» ولذا يقال: «أَرْضٌ نَشَزَ» أي بها نتوء وارتفاع، لخروجها عن طبيعة الأرض من حولها. فإذاً عندما نتحدث عن النشوز في إطار العلاقة الزوجية فهذا يعني أن هناك خروجاً عن المعتاد وعن الوضع الطبيعي في العلاقة بينهما، مع ترفع وتعالٍ في الموقف منهما أو من أحدهما.

البعض يتصور أن الأمر يخص الزوجة، وأن المرأة فقط يمكن أن تكون ناشزاً، بينما الآية السابقة تبين خلاف ذلك.

فالزوج الذي لا يفي بحق زوجته في حاجتها الجسدية بلا عذر كالمرض والسفر، يعد ناشزاً، وإن أنفق عليها.. كما أن الزوجة تعتبر ناشزاً عندما تمنعه حقه الجسدي بلا عذر. وفي الحالتين لابد من معالجة وفق خطوات. أهم خطوة هنا أن نعرف السبب وراء هذا النشوز ونعالج هذا الخلل.. المسألة ليست مسألة قوانين وأوامر.. بل أن نحاول إعادة العلاقة إلى الوضع الطبيعي كما ينبغي أن تكون عليه. أما في حالة الفشل أو عدم وجود من يستطيع القيام بهذا الدور، فننتقل إلى آليات التعامل الفقهي:

• في حالة نشوز الزوج:

١. تسلك الزوجة سبيل الأخلاق الفاضلة صبراً ومداراة وتودداً، لعلها تستطيع أن تكسب قلبه.

عن إسحاق الجعفي قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ دخل بيت أم سلمة فشم ريحاً طيبة فقال: أتتكم الحولاء؟ فقالت: هو ذا هي تشكو زوجها، فخرَجَتْ عليه الحولاء، فقالت: بأبي أنت وأمي، إن زوجي عني معرض، فقال: زيديه يا حولاء، قالت: ما أترك شيئاً طيباً مما أطيّب له به، وهو عني معرض. فقال: أما لو يدري ما له بإقباله عليك؟ قالت: وماله بإقباله علي؟ فقال: أما إنه إذا أقبل، اكتنفه ملكان، فكان

كالشاهر سيفه في سبيل الله، فإذا هو جامع، تحت عنه الذنوب كما يتحات ورق الشجر، فإذا هو اغتسل انسلخ من الذنوب).

وقد تعجّب إسحاق بن عمار من ترتب الثواب على ذلك، فكان في ضمن تساؤله للإمام الصادق عليه السلام أن قال: (قلت: فإنه يروى عن النبي ﷺ أن أبا ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَأَلَهُ عَنْ هَذَا فَقَالَ: ائْتِ أَهْلَكَ تَوْجِرْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آتِيَهُمْ وَأَوْجِرْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَمَا أَنَّكَ إِذَا آتَيْتَ الْحَرَامَ أَزُرْتَ، فَكَذَلِكَ إِذَا آتَيْتَ الْحَلَالَ أَوْجِرْتَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا خَافَ عَلَى نَفْسِهِ فَآتَى الْحَلَالَ أَوْجِرَ؟). فالمسألة أن الثواب مترتب بلحاظ حفظ نفسه وزوجته عن الوقوع في الحرام.

وعلى كل حال، فإن العفو والتسامح من أنجع أساليب إصلاح ذات البين، حتى لو لم يكن المتسامح مخطئاً من الأساس.

قال عز وجل وهو خالق النفوس البشرية والأعلم بما يصلحها: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ «فصلت: ٣٤».

٢. نشوز الزوج معصية، ولذا فعليها أن تنهاه عن المنكر وتأمره بالمعروف بالأسلوب الأنسب.

٣. ترفع أمرها للحاكم الشرعي وتشكوه له، وعلى الحاكم أن يتخذ الإجراءات وفق الترتيب التالي:

١- استدعاء الزوج وأمره بأن يؤدي للزوجة حقها.



٢- إن لم يمتثل، فالزوجة بين أمرين، إما الصبر، وإما طلب الطلاق.

٣- إن طلبت الطلاق، وطلقها، كان خيراً، وإلا أجبره الحاكم، فإن أبى، طلقها الحاكم.

و لو افترضنا أنها دفعت له مالاً كي يقوم بما ترك من حقها، حرّم عليه أخذه. ولو افترضنا أن الزوج كان يؤذي زوجته ضرباً وشتماً، فبذلت له مالاً كي يكف عن ذلك، حرّم عليه أخذه، ويجوز لها أن تشكوه للحاكم الشرعي ليأمره بحسن المعاشرة، فإن لم يرتدع يوقع عليه عقوبات تحت عنوان «التعزير» كالحبس مثلاً.

عن النبي ﷺ: (ومن أضرّ بامرأة حتى تفتدي منه نفسها، لم يرض الله له بعقوبةٍ دون النار، لأن الله يغضبُ للمرأة كما يغضب لليتيم).

وعنه ﷺ: (أخبرني أخي جبرئيل ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها أف! ... أخذتموهن على أمانات الله).

• في حالة نشوز الزوجة:

تتمثل لنا الآية التالية: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ «النساء: ٣٤». وبيان ذلك كالتالي:

١. يسلك سبيل الأخلاق الفاضلة صبراً ومداراة وتودداً لعله يستطيع أن يكسب قلبها ويعالج تمردها. وما ذكرناه بخصوص العفو والتسامح عند نشوز الزوج يجري هنا أيضاً، وليعلم الرجل أن تسامحه وعفوه لن ينقص من هيئته ورجولته شيئاً، بل هو رفعة له، وقد روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: (إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله).

لا أنكر أن التمادي في التسامح يكون في بعض الحالات تشجيعاً على التمرد، ولكن لا بد من تقييم الأمر بحسب المعطيات، والعمل وفقها بصدق وإنصاف.

٢. نشوز الزوجة معصية، ولذا فعليه أن ينهاها عن المنكر ويأمرها بالمعروف بالأسلوب الأنسب، ولو بالاستعانة بالغير ممن يملك المعرفة الشرعية والأسلوب الأنسب.

٣. في حالة اليأس مما سبق فيمكنه أن يهجرها، بأن ينام في غرفة مختلفة، أو يدير لها ظهره فلا يعباؤها، كنوع من الضغط النفسي لردع تمردها.

٤. اللجوء إلى الضرب كما جاء في الآية القرآنية، وهو خيار غير لازم، بل إن شاء لجأ إليه، وإن شاء عزف عنه. وإذا أراد اللجوء عليه فيجب عليه أن يراعي الأمور التالية:

١- أن يكون ذلك بعد الخطوات السابقة وظهور إصرارها على التمرد.

٢- أن يأمل تأثيرها بهذا الضرب، وإلا لم يجز ضربها.

٣- أن يكون ضربها بقصد إصلاحها لا بقصد التشفي والانتقام.

٤- الاقتصار على أقل مقدار من الضرب يحتمل معه التأثير، وحده الأعلى أن يكون غير موجب لاحمرار الجلد واسوداده، ولا يجوز اللجوء إلى الأشد مع حصول الغرض بالأقل منه. ولو زاد فاحمر الجلد أو اسود أثم وضمن الدية.

وفي تفسير القمي عن الباقر عليه السلام: (أنه الضرب بالسواك). وفي كلمات فقهاء المسلمين مثلوا بالضرب بالمنديل.

وأما من يحول الحكم في الآية إلى مبرر للضرب بما يتجاوز الحد، أو بغير نشوز وفق الخطوات التي ذكرناها، فليطلع على هذه النصوص:

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أي رجل لطم امرأته لكمة أمر الله

عز وجل مالكاً خازن النيران فيلطمه على حر وجهه سبعين لطفة في نار جهنم). وعنه عليه السلام: (أيضرب أحدكم المرأة ثم يظل معانقها)؟ وعنه عليه السلام: (إني أتعجب ممن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى منها، لا تضربوا نساءكم بالخشب فإن فيه القصاص).

٥. منعها من النفقة بسبب النشوز.

• آداب وتشريعات:

لقد أفاض الله عز وجل على العلاقة الزوجية المودة والرحمة والسكينة، وزينها بآداب المعاشرة وأخلاقيات الحياة المشتركة.. كما شرع لها من الأحكام ما يحفظ لكل زوج وزوجة حقوقهما، إلا أن هذا لا يعني أن يقنن الزوجان العلاقة الزوجية، لأن هذه الحقوق والواجبات المذكورة في الكتب الفقهية تمثل الحد الأدنى في العلاقة بين الطرفين، والله لا يريد لهذه العلاقة المقدسة أن تكون في حدودها الدنيا، بل أراد لها أن تكون علاقة تمازج روحي، يشعر من خلالها الزوج أن زوجته جزء من كينونته وكرامته، وتشعر معها الزوجة أن زوجها جزء من كينونتها وكرامتها، ومن خلال ذلك يعملان على بناء حياة مشتركة ملؤها المودة والرحمة والسكينة، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ «الأعراف: ١٨٩».

هل في القرآن أساطير؟

في الصحيفة السجادية دعاء بعنوان «وكان من دعائه عليه السلام عند ختم القرآن» وتحدث فيه الإمام عن عدة قضايا متعلقة بقيمة القرآن ومميزاته ومسؤوليتنا تجاهه.

ومن بين النقاط التي تحدث عنها الدعاء: التأكيد على أفضلية القرآن وهيمنته على ما سواه من كتب أنزلها على من سبق من النبيين عليهم السلام، قال: (اللهم إِنَّكَ أَعْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا، وَجَعَلْتَهُ مُهِمِّنًا عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَى كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ).

ومن المؤسف أن نجد إعراضاً كبيراً عن تلاوة كتابه الله عز وجل وتعلمه في أوساط الشباب، لا لمجرد الإهمال والتشاغل، بل لكثير من الشبهات التي باتت تُطرح عليهم حول مصداقية كتاب الله وقيمته العلمية والروحية والعملية.

هذا الأمر يستدعي منا العناية الفائقة بالرد على الشبهات المثارة في هذا الاتجاه، وعدم الملل والكسل، لأن الأمة إذا فقدت مرجعيتها القرآنية خسرت هويتها، وضاعت في متاهات الضلال.

ولذا وجه الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا الدعاء إلى ضرورة فهم القرآن فهماً يؤدي إلى التصديق

بما فيه من عناصر الإيمان والتشريع والأخلاق والحكمة، علاوة على ما جاء فيه من قصص وإخبارات تاريخية غيبية متعلقة بالماضي والمستقبل، وإن لم ندرك أحياناً حقيقة ما تشابهه وتأويله.

قال عليه السلام: (اللهمَّ فَإِذَا أَفَدْتَنَا الْمُعُونَةَ عَلَى تِلَاوَتِهِ، وَسَهَّلْتَ جَوَاسِي الْأَسْتِنَا بِحُسْنِ عِبَارَتِهِ، فَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَيَدِينُ لَكَ بِاعْتِقَادِ التَّسْلِيمِ لِمُحْكَمِ آيَاتِهِ، وَيَفْرَعُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمُتَشَابِهِهِ وَمَوْضَحَاتِ بَيِّنَاتِهِ).

الأمر الآخر الذي نبّه عليه الدعاء هو التأكيد على سماوية القرآن: (فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ بِهِ، وَعَلَى آلِهِ الْخَزَّانِ لَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ حَتَّى لَا يُعَارِضَنَا الشَّكُّ فِي تَصَدِيقِهِ وَلَا يَخْتَلِجَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ).

ولا يخفى ما نتعرّض له من حملات متتالية تسعى إلى إسقاط هذا الاعتبار لكتاب الله عز وجل، وتصويره على أنه من تأليف النبي صلى الله عليه وآله من وحي عبقريته، أو أنه من صياغة النبي اعتماداً على الإلهامات السماوية التي كان يتلقاها من عند الله.

ويؤكد الإمام عليه السلام على أن إدراك هذه الحقائق تستدعي التمسك الحقيقي والفاعل بكتاب الله: (اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْنَا

مَنْ يَعْتَصِمُ بِحَبْلِهِ، وَيَأْوِي مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلَى حِرْزِ مَعْقِلِهِ، وَيَسْكُنُ فِي ظِلِّ جَنَاحِهِ، وَيَهْتَدِي بِضَوْءِ صَاحِبِهِ، وَيَقْتَدِي بِتَبَلُّجِ إِسْفَارِهِ، وَيَسْتَضِيحُ بِمِصْبَاحِهِ، وَلَا يَلْتَمِسُ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ).

• أسطورية قصص القرآن:

ومن خلال الحملة الاستشراقية الكبيرة التي شهدتها العالم الإسلامي خلال القرنين الماضيين، بالإضافة إلى جهود المتأثرين بهؤلاء المستشرقين من أبناء العالم الإسلامي والعربي، فقد تعرض القرآن الكريم إلى حملات عنيفة ومتواصلة وبعناوين متفاوتة، تهدف في نهاية الأمر إلى إسقاط اعتباره كتاباً منزلاً من عند الله عز وجل بالوحي على رسول الله محمد ﷺ.

وما ذاك إلا لما يحتله كتاب الله من مكانة خاصة تتمثل في أنه المرجع والمصدر الأول والمعصوم لدى المسلمين.. وبإسقاطه من هذا الاعتبار، فإن إسقاط ما تبقى من حلقات الإيمان بدين الله الخاتم ستتلاحق بسهولة.

ومن بين العناوين التي تناولوها: أسطورية بعض قصص القرآن الكريم أو خيالية بعض تفاصيلها، مقدمة للاستدلال على أن القرآن ككل ليس من عند الله.

وقد حاول أن يرُدَّ هذه الشبهة الكاتب المصري «محمد أحمد خلف الله» في كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» بفكرة جديدة تقريباً.

• محاولة خلف الله:

الكتاب في الأصل رسالة قدمها عام ١٩٤٧، ونال بها شهادة الدكتوراه، منطلقاً من مقولته: (الله لم يُرد تعليمنا التاريخ) فالقرآن - بحسب هذا الكاتب - كتاب أدبي أريد به الهداية، وليس كتاباً تاريخياً.

وحيث لا يحق لأحد أن يستشكل على الأديب حين يكتب رواية من وحي خيالاته وأن يسأله عن معقولية الأحداث ومصادقيتها وواقعيتها.. بينما من حق الناس أن يواجهوا المؤرخ بذلك، لذا فإن شبهات المستشرقين ساقطة من أساسها. وقد أعاد إحياء مضمون الكتاب - مؤخراً - بعض دعاة لبرلة الإسلام، لا دفعاً لشبهات المستشرقين بل رغبةً في إسقاط جوانب من القرآن الكريم من الاعتبار.. فما هي أطروحة هذا الكتاب؟ وهل تمتلك مقومات الصحة والقبول؟

لقد اعتبر «خلف الله» أن ما في القرآن الكريم من قصص تنقسم إلى ثلاثة أصناف:

١. القصة الحقيقية «التاريخية»

٢. الأمثلة. وتتفق معه على هذين الصنفين.

٣. الأساطير «القصص التي يعتقد الناس وقوعها بينما هي مجرد خيال

ووهم بكاملها أو في تفاصيلها، وهي محل الكلام».

برر الكاتب وجود القصص الأسطورية في القرآن كالتالي: (لأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة، وما شابهها من مقاصد وأغراض) فهو بالتالي غرض نبيل لا يُعاب.

ويمكننا أن نشبه ذلك بغرض كتّاب الروايات والأفلام والمسلسلات الدينية، حين يعملون على كتابة سيناريوهات من وحي خيالهم، لإجادة حبكة الرواية، وإيصال الفكرة، وإجادة العمل.

وكذلك حين يقوم بعض قراء العزاء بإضافة التفاصيل في الأشعار، والنصوص التصويرية والحوارية التي يقدمونها للناس لما جرى في أحداث كربلاء، دون مستند تاريخي، بل من وحي خيالهم، لإثارة المزيد من العاطفة، ولتضخيم صورة الفاجعة بما يخدم الغرض الرئيس للمجلس.

• حديث القرآن عن الأساطير:

ومن بين ما استند إليه «خلف الله» في أطروحته: استعراض الآيات التسع التي استعملت كلمة «أساطير» من قبيل: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ «الفرقان: ٥».

ولا أملك أن أستعرض كامل ما جاء في الكتاب، ولكن فلنناقش أهم دليل استدل به انطلاقاً من القرآن الكريم لنرى هل كان مصيباً في أطروحته؟ قال:



١. الملاحظ أن جميع السور التي نزلت فيها هذه الآيات مكية، وسورة الأنفال وإن كانت مدنية إلا أن الآيات ٣٠ إلى ٣٦ مكية، أي أن أسطورية قصص القرآن كانت من إشكالات مشركي مكة، أما أهل المدينة فلم يمانعوا من وجودها في القرآن، لأنهم اعتادوا وجود ذلك في كتب اليهود.

٢. أن قولهم بأسطورية هذه القصص جاء لمعارضة مسألة القيامة والبعث فقط، واستشهد بقصة الذي مر على قرية، وإبراهيم والطيور الأربعة، واحتمل شمول قصة أهل الكهف لها.

٣. أنهم كانوا يعتقدون بشكل راسخ بوجود الأسطورة في القرآن، وما كان طرحهم هزياً ولا عناداً، حتى أنهم تحدوا بإنزال العذاب عليهم إن كانوا مخطئين.

٤. أن القرآن رد عليهم برفض فكرة كتابة النبي ﷺ لآياته، ولم يرد إشكال وجود الأساطير.

وللإجابة على ما سبق نقول:

١. ما هي القصص القرآنية التي نزلت في مكة ويحتمل أسطوريتها، واشتملت على موعظة ودلالة تخص يوم القيامة والبعث والنشور؟
أما قصة إبراهيم والطيور، وقصة الذي مرَّ على قرية، ونضيف إليها قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فماتوا ثم أحياهم الله، فكلها وردت في سورة البقرة، وهي مدنية.

نعم، قصة أهل الكهف وردت في سورة مكية، ولكن قدّمها الله عز وجل كالتالي: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) ثم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (١٣)، فهل هذا لسان من يريد بيان أسطورة أم حدث تاريخي حقيقي؟ أم أن في البين كذب وخداع؟

ونضيف إلى ما سبق، الحديث حول تفاصيل القصة من حيث العدد: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢٢)، ومن حيث الزمن أيضاً: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢٥-٢٦).

وبالتالي ما هي القصص الأسطورية التي ذكرت في السور المكية

والمختصة بإثبات يوم القيامة بحيث انطلق من خلالها مشركو مكة في توجيه هذه التهمة؟ فليرجع مَنْ يشاء إلى السور المكية في عملية جرد بحثاً عن هذه القصص ليُطلعونا عليها.

٢. بحسب ترتيب النزول فإن أول سورة استعملت كلمة «أساطير» هي سورة القلم، والتي تُعتبر - بحسب المشهور الذي لا أوافقهم عليه - ثاني سورة نزلت على النبي بعد سورة العلق، وليس فيهما أية قصة عن إحياء الموتى في الدنيا.

٣. عندما قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ألحقها مباشرة بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ «٦».

أي أن هذا القرآن بكل ما فيه ليس من صنع البشر، بل أنزله الله على نبيه.. هذا أولاً.. وأما ثانياً فإن التعبير بـ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ رد واضح على أنها أحداث واقعية يعلمها الله وإن خفيت بعض ظواهرها وبواطنها عن الناس... ولو كانت مجرد قصص خيالية لما صح أن يقول ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾.

٤. الأديب في الروايات والسيناريوهات الخيالية يتواضع مع القارئ على خيالية القصة منذ البداية، وأما القرآن الكريم فإن الأصل فيما يذكره أن يكون حقيقة وواقعاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ «البقرة: ١٧٦»، ولو أراد خلاف ذلك لكان لزاماً عليه أن يبيّن بالتصريح أو بالقرينة الواضحة،



كاستعمال عبارة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ في قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ «الزمر: ٢٩».

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بالحق، في رسالته، وفي مضمونه، وفي تشريعاته، وفي ما أخبر به من قصص الأولين، وفيما سيكون في مستقبل الزمان، سواء في ما له علاقة بأصل الإيمان بالتوحيد أو النبوة أو المعاد، وإن ردَّ شبهات المستشرقين المختلفة حول القصص القرآني، وادّعاء وجود أخطاء تاريخية وجغرافية فيها، لا يتم بتثبيت فكرة أسطورية بعض قصصه هروباً من التفاصيل التي لم نعتد على حدوثها، أو استبعاداً لوقوع معجزة إلهية، أو تدخل غيبي في حدث ما. فالقاعدة هي كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ «البقرة: ١٧٦».

الدور المأمول من الفقهاء



أمامنا عدة نصوص تاريخية من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في طريقة التعامل مع خللين، وسأضع النص الأول والثاني اللذين يعالجان الخلل الأول في جهة، والنصوص الباقية التي تعالج الخلل الآخر في جهة أخرى.

• الخلل الأول:

النص الأول ورد في نهج البلاغة برقم «٤٢٠» من حكمه عليه السلام حين قال رجل من الخوارج: (قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال: رويداً، إنما هو سبٌ بسبٍّ، أو عفو عن ذنب).

وأما النص الثاني فقد رواه عدد من المؤرخين - ومن بينهم ابن الأثير في الكامل في التاريخ - حيث قال: (خطب عليٌّ يوماً آخر، فقام رجل فقال: لا حكم إلا لله. ثم توالى عدة رجالٍ يُحكِّمون) أي يكررون ذات الشعار (فقال علي: الله أكبر، كلمة حق أريد بها باطل. أما إنَّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتُمونا، لا نمنعُكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمَه، ولا نمنعُكم الفيءَ ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلُكم حتى تبدأوا).

• الخلل الثاني:

أعود إلى نهج البلاغة
حيث الكتاب برقم «٢٠»
وفيه خطاب موجه من الإمام
إلى زياد بن أبيه الذي كان
نائباً عن ابن عباس في ولاية
البصرة، وقد بلغه أنه متهم
بالاختلاس من بيت المال:
(وإني أقسم بالله قسماً صادقاً،
لئن بلغني أنك خنت من فيء



المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدنّ عليك شدةً تدعك قليل الوفر) المال
(ثقیل الظهر، ضیئل الأمر).

وفي الكتاب «٧١» يقول للمنذر بن الجارود واليه على فارس، وقد اتهم
بالاختلاس أيضاً: (ولئن كان ما بلغني عنك حقاً، لجملُ أهلِكَ وشِسعُ
نعلِكَ خيرٌ منك، ومن كان بصفتك فليس بأهلٍ أن يُسدَّ به ثغرٌ، أو يُنفذَ به
أمرٌ، أو يُعلَى له قدرٌ، أو يُشركَ في أمانة، أو يؤمنَ على جباية، فأقبل إليَّ
حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله).

وفي الكتاب «٤١» من النهج كتب عليه السلام إلى أحد الولاة وقد ثبتت

عليه تهمة الاختلاس: (فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف نقاش الحساب؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب، كيف تُسبغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً، وتبتاع الإمام وتكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد؟ فاتق الله، واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل، ثم أمكنني الله منك لأعذرني إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار. ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هواة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى أخذ الحق منهما، وأزيح الباطل من مظلمتيهما).

• أسلوب أمير المؤمنين:

هكذا كان أمير المؤمنين علي عليه السلام في منهج تعامله مع المعارضة السلمية بحسب النصين الأول والثاني، وفي منهج تعامله مع المتعدين على حقوق الله، وحقوق الناس، وسراق المال العام.. فماذا لو كنا نحن مكان أمير المؤمنين عليه السلام أكنا سنتعامل مع الحالتين بنفس المنهجية؟ أم سيكون الأمر عندنا كلابس الفرو مقلوباً؟

ففي النصين الأول والثاني رسم الإمام عليه السلام معالم التعامل مع المعارضة، فما دام الأمر في نطاق المعارضة الكلامية، والمواقف السلمية، ولم تدخل في إطار القتال والإخلال بالأمن العام للمجتمع، والتعدي على ممتلكات

الناس، فقد أبقي لهم حقوق المواطنة، ولم يُصدر أوامر بحرمانهم من عطاء بيت المال مثلاً. وهو بهذا قد اقتدى بسنة النبي ﷺ في تعامله مع مَنْ قال له: (اعدل يا محمد)!

نعم طلبهم، وحاجتهم، رداً على اتهماتهم، وأرسل إليهم الموفد تلو الآخر أملاً في تغيير موقفهم.

وبمقدار ما كان الإمام غلبت عفواً متسامحاً مع مَنْ سبّه وتعرّض له بالسوء - وهو أمير المؤمنين وهو علي بن أبي طالب - نجده شديداً حازماً وعنيفاً في مواجهة المتعدّين على بيت مال المسلمين أي سراق المال العام - بالتعبير المعاصر - بما فيه من حقوق شرعية، وفيء، وخراج، وغير ذلك.

• أولى الناس بالاعتداء:

وأولى الناس بالاعتداء بسيرة علي غلبت والاهتداء بهداه والتحلي بأخلاقه هم مَنْ جُعلوا نواباً للأئمة في عصر الغيبة، وأعني بذلك الفقهاء ومَنْ يمثلهم، والمؤسسة الحوزوية ككل. ولكن من المؤسف أن نجد الأمر - أحياناً - على خلاف ذلك.

لا أريد هنا أن أدافع أو أسيء إلى شخص بعينه، كما لا أريد أن أتعرض بالسوء للمؤسسة الحوزوية بمكوناتها، فهي عماد التشيع، وأية إساءة إليها إساءة إلينا.. وأي خلل يصيبها يصيبنا، ويعود علينا بالضرر.. وأي وهن تُبتلى به، هو وهن لنا دون شك.



ولكن هذا لا يمنع أن ننتقد نقداً بناءً وخالصاً لوجه الله عز وجل، انطلاقاً من الحرص على هذه المؤسسة، وبالتالي الحرص على كيان التشيع ككل .

فنحن نشهد أعداداً من مدّعي الوكالة عن بعض المرجعيات الدينية زوراً وكذباً، أو ممن يملكونها فعلاً إلا أن سيرتهم العملية والمتراكمة أثبتت دون شك أنهم غير مؤتمنين على الحقوق الشرعية، وأنهم ينفقونها لمصالحهم ويحوّلونها إلى ثروات شخصية، تماماً كما وصف الله أمثالهم من الأخبار والرهبان حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ «التوبة: ٣٤» .

فأين هي الإجراءات الخازمة التي تُعَرِّي هؤلاء أمام المجتمع، وتسلب منهم إمكانية خداع الناس وأكل المال الشرعي من دون وجه حق؟

• الويل للمنتقدين:

وفي المقابل عندما يكون هناك نقدٌ لرأي ما، أو نقد لشخصية حوزوية مبرزة، سواء أكان الناقد مخطئاً في أسلوبه أو مصيباً، وسواء أصحّت وجهة نظره أم لا.. فإننا نجد ردة الفعل الفورية والعلنية بسحب الوكالة منه، أو إصدار بيان بالطعن فيه، وأمثال ذلك..

الآن قارن هذين الإجراءين مع إجراءي أمير المؤمنين عليه السلام، أليست الصورة معكوسة تماماً؟ علي عليه السلام أقرّ الخوارج على حقوقهم - وما أدراك ما الخوارج - بما في ذلك حق الفيء، ولم يمنع عنهم العطاء المالي.

وحتى الذي وجه كلمات الإساءة لعلي عليه السلام - وهو علي، وما أدراك ما علي - ونسبه إلى الكفر، وفي الملاء العام، لم يزد الإمام على أن أعطى لنفسه الخيار، إما بأن يواجهه بالمثل، وإما أن يعفو عنه.. وقد عفا عنه، لأن علياً أرفع شأنًا من يواجهه الكلام القبيح بمثله.

وأما من تعدّى على المال العام والحقوق الشرعية وحقوق الناس، فالويل له - من علي - ثم الويل! هذه هي سنة علي.. وهكذا يجب أن يكون من يتشيع لعلي، ويجد نفسه امتداداً لهذا النهج. وبدلاً من استعمال أسلوب سحب الوكالة مثلاً، أما كان الأولى أن يدعى هذا المتحدث بطريقة فيها

حكمة وموعظة حسنة ويُستفهم منه، ويوجّه إن تبين أنه كان مخطئاً؟

• كونوا كالإمام علي:

إننا نتأمل من مؤسساتنا الحوزوية - على تنوعها - أن تحافظ على احتضانها الأبوي للجميع كما عهدناها من قبل، وتتماماً كما كان يجد الإمام علي عليه السلام نفسه أباً للجميع.. يعفو ويصفح ويحتوي الآخر ويعظ المخطيء ويعين المحتاج.. كما ويحاسب المعتدين على المال العام وعلى حق الله عزّ وجلّ وحقوق الناس أياً كانت مسمياتهم وأشخاصهم، ودون هوادة، وذلك انطلاقاً من حس المسؤولية وروحه الأبوية التي تدافع عن حق الله وحق الناس.

كما ونتأمل من مؤسساتنا الحوزوية أن تميّز بين الحريص الغيور على دينه الذي إذا تحدث ناقداً لم ينطلق في ذلك من خصوصية شخصية أو تنفيساً لعقدة يعاني منها، وبين الذين يجعلون من الدين غرضاً لسهامهم المسمومة ليُصيبوه في مقتل، انطلاقاً من عمالتهم لقوى الكفر، أو لسوء سرائرهم، أو لنفاقهم، أو من خلال تلبيتهم لأغراضهم الشخصية كما وصف ذلك القرآن الكريم حين ربط بين أكل أموال الناس بالباطل وبين الصد عن سبيل الله فقال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

مرشحون فاسدون بالقوة

ونحن في أجواء الانتخابات البرلمانية، من المناسب أن أتحدث عن العوامل التي يمكن لها أن تؤدي إلى فساد نواب الأمة من يبدو عليهم الصلاح ثم تتبدل صورتهم بعد حين.

ولن أستوعب كل العوامل في هذه المقالة، ولكن سأتحدث عن واحدة منها في هذا الأسبوع وأكمل الموضوع في المقال التالي بإذن الله عز وجل. هذا العامل يتمثل في أن يكون المرشح - أحياناً - فاسداً بالقوة لا بالفعل... أي أنه يمتلك مقومات الفساد وتتوافر فيه مكانها، إلا أن الظروف والأرضية لم تكن مهيأة له لكي يُظهر هذا الفساد، وهو غافل عنها، لا يدرك وجودها.

وبتعبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر: (نحن نقول بأننا أفضل من هارون الرشيد، أورع من هارون الرشيد، أتقى من هارون الرشيد، عجباه نحن عُرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناها حتى نكون أورع من هارون الرشيد؟).

أو لربما كان مدركاً لوجودها، عالماً بفساد سيرته، ولكنه ممثل بارع

استطاع أن يخدع الناس بظاهره، وهو ينتظر الفرصة، ويوظف صلاح ظاهره إلى أن يحقق مراده على أكتاف الآخرين، وحينها تظهر حقيقته. وبتعبير الإمام زين العابدين عليه السلام: (إذا رأيتم الرجل قد حَسُنَ سَمْتُهُ وهُدِيَهُ، وتماوت في منطقِهِ، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرنكم... فهو لا يزال يختلُ الناسَ بظاهره، فإنَّ تمكَّنَ من حرامٍ اقتحمه).

• المنذر بن الجارود:

وقد تغرَّ الناس بعض العناوين المتعلقة بهذا الإنسان... الجارود بشر ابن خنيس العبدى كان من رجالات الشرف والمكانة في بني عبد القيس بالبصرة.. وفد على النبي ﷺ عام الوفود على رأس جماعة من قومه، ودخلوا في الإسلام وتركوا النصرانية التي كانوا عليها.

روي أن رسول الله ﷺ أكرم الجارود ومَن معه حين وفدوا إليه، وطلب من الأنصار أن يكرمهم ويعتنوا بهم وقال: (قوموا إلى إخوانكم وأشبهِ الناس بكم). قال ذلك لأنهم أصحاب نخل كما أن الأوس و الخزرج أصحاب نخل.

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي أنه كان يقال: (أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلى) أي كانوا ينقادون إليه بشكل كبير، وذكر أن من شواهد ذلك أنه لما قبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب، خطب قومه فقال: (أيها الناس، إن كان محمدٌ قد مات، فإن الله حي لا يموت).

فاستمسكوا بدينكم. ومن ذهب له في هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة، فعليّ مثلاه). فما خالفه من عبد القيس أحد. واستشهد الجارود عام ٢١ هـ في إحدى حروب المسلمين.

شخصية بهذا الوزن وبهذه الصفات وبهذا التاريخ، مع انقياد الناس له بهذا الشكل جعلت علياً عليه السلام يُحسن الظن في ابنه المنذر، فعينه - أيام خلافته - والياً، أملاً في أن يكون الولد كأبيه، وأن يكون عزيز نفس فلا تدنو نفسه بخيانة الأمانة، لأنه ثري وليس بحاجة للمال.

هكذا هو المفروض، وبالتالي يكون عوناً للإمام عليه السلام في إدارة البلاد، ويسر له انقياد الناس في الظروف الصعبة التي كان يعيشها مع الفتن المتلاحقة... ولكن الفرض شيء، والواقع شيء آخر... فسرعان ما تكشفت خيانة الرجل مالياً، وتورّمت شخصيته، وعاش زهو الرئاسة.

فأرسل الإمام عليه السلام إليه رسالة فيها: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلَا تُبْقِي لِاخِرَتِكَ عِتَاداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ اخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ) ولربما خص الإمام شسع النعل بالذكر لأنه وصفه في موضع آخر كالتالي: (إنه لنظارٌ في عَظْفِيهِ، مُخْتَالٌ في بُرْدِيهِ، تَقَالُ في شِرَاكِئِهِ) رغبةً في المحافظة على لمعان نعله، وإنما يفعل المعجب

بشراكيه ليذهب عنهما الغبار والوسخ، يتفل فيهما ثم مسحهما (وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ. فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

• عبد الملك بن مروان:

ولربما يكون هذا النائب قد اختبر في مواقع أخرى، أو مجالات أخرى، على مدى سنوات، فتبيّنت للناس أمانته وصلاحه، لا لأنه صالح في ذاته، بل لأن تلك المواقع لم تكن هي نقطة ضعفه، أو يراها أقل من طموحه!

كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام في تمة النص السابق الذي ذكرت بدايته: (ويرى أن لذة الرياسة الباطلة، أفضل من لذة الأموال، والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلباً للرياسة... لا يبالي ما فات من دينه، إذا سلمت له الرياسة، التي قد شقي من أجلها).

عندما تقرأ سيرة عبد الملك بن مروان في تاريخ ابن كثير - على سبيل المثال - ستجد أنه يذكره كالتالي: (كان أميراً على أهل المدينة وله ست عشرة سنة، ولاه إياها معاوية، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء... وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن... وقد قال نافع:) المدني

إمام القراء في المدينة في عهده (لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان).

فماذا جرى له بعد ذلك؟ قال ابن كثير: (لما سُلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف، فأطبقه وقال: هذا فراق بيني وبينك)!

• المصلحة العامة أولاً:

إن تجارب الماضي وخبرات الحاضر تُحمّلنا مسؤولية حسن اختيار المرشح الذي نريد له أن يمثّل المواطنين - كلّ المواطنين - في مجلس الأمة، فقد خذل الناس وغرّ بهم أكثر من مرة، وساهم الناخبون أحياناً بقراءتهم السطحية للأفراد أو الجماعات، أو من خلال تعجّلهم في اتخاذ القرار، فأوصلوا مَنْ لم يُمثّلهم خير تمثيل.

ولربما قضى أحداً وقتاً طويلاً وبحثاً معمّقاً ومضى في استشارات كثيرة وهو يريد أن يختار لنفسه سلعة استهلاكية، بينما لا يستغرق اختياره للمرشح سوى لحظات.

هذا إن فكّر أصلاً ولم يكن مُبرمجاً وموجّهاً في الاختيار. فليكن الناخب حريصاً دقيقاً في اختياره، ولا يجعل أفقه ضيقاً محدوداً بمصلحته الشخصية، أو منقاداً للعناوين القبلية والعائلية والطائفية وأمثالها، بل يجعل من المصلحة العامة منطلقاً في اختيار الأصلح.

عشقاً لخلق النصال

٣٩

تحدثت في المقال السابق عن عامل من العوامل التي تؤدي إلى إفساد المرشح/النائب بعد أن يكون صالحاً في ظاهره على الأقل . وأتحدث اليوم عن عامل آخر.

من بين هذه العوامل دور الحواشي والمهللين والمدّاحين الذين يُقدّمون على ذلك حياً لهذا المرشح/النائب، وعن صدق وإخلاص .. أو الذين يُقدّمون على ذلك نفاقاً وتزلفاً من منطلق المصلحية والرغبة في الانتفاع . وما أكثر هذا النموذج في كل مكان وزمان !

ثناء وشعر ومديح وانحناءات .. هذا يقبل رأسه، وآخر يهرول لحمل حقيبته، وثالثٌ يهتف بالصلوات، ومجموعةٌ تكتب فيه المقالات تعظيماً وتبجيلاً، وآخرون يُطلقون عليه الألقاب، وأمثال ذلك من تصرفات تُخضع لها أكبر رأس .

عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : (خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال :



لكم حاجة؟ فقالوا: لا، يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا، فإنَّ مشيَ الماشي مع الراكب مفسدة للراكب) حيث يدخل في قلبه العُجب (ومذلةً للماشي) والله لم يخول للمؤمن أن يذل نفسه بهذه الطريقة، بل بالتواضع المعقول (قال: وركب مرة أخرى فمشوا خلفه، فقال: انصرفوا، فإنَّ خفقَ النعالِ خلفَ أعقابِ الرجالِ مفسدةٌ لقلوبِ النَّوَكى) أي الحمقى ويعني بهم مَنْ لديهم القابلية للسقوط نتيجة هذه المؤثرات التي يستسلمون لها ويتنازلون عن تقواهم وأخلاقهم بسببها.

• الشيخ المقتول:

يقال أن أحد طلاب العلوم الدينية في إحدى قرى البحرين وقبل أكثر من مائتي عام كان يحضر درساً لأحد الفقهاء الكبار في قرية أخرى، ومن

طبيعة الطلاب المحبين المعجبين بأستاذهم أن يخضعوا لأرائه فلا تنقذ في أذهانهم الأسئلة والإشكالات، وكأن لسان حالهم: وهل يمكن لأحدنا أن يفهم أكثر من هذا الفقيه العظيم؟ ولكن هذا الشيخ الوافد على الدرس كان - على خلاف بقية الطلاب - كثير السؤال والاستشكال.

بالطبع كان الأستاذ مأنوساً به لأن الإشكالات تفتح آفاقاً له وللطلاب، ولربما تؤكد صحة نظريته من خلال الأدلة والتوضيحات، كما أنها دليل حضور ذهن الطالب واستفادته، إلا أن سائر الطلاب لم يفهموا الأمر بهذه الصورة، وأبدوا انزعاجهم وتبرّمهم مما اعتبروه إهانة لفقيههم، وصاروا يتحدثون عن ذلك في أوساط الناس، فما كان من بعض أهل هذه القرية إلا أن كمنوا له في بعض الأزقة، وأوسعوه ضرباً حتى مات! ولما افتقده الأستاذ قالوا له: لا تُزعج نفسك بعد اليوم، فقد أرحناك منه إلى الأبد!

• ضرار بن ضمرة يصف علياً:

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية، فطلب منه أن يصف علياً عليه السلام، فكان في جملة قوله في وصفه: (كان والله شديد القوى، بعيد المدى، يتفجر العلم من أنحائه، والحكمة من أرجائه) ويستمر في وصفه لعظمة علي إلى أن يقول: (ونحن مع تقريبه لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته)... ولكن كيف كان علي معهم؟ قال: (وكان فينا كأحدنا).

كل هذه الصفات والعظمة في شخصية علي عليه السلام، إلا أنها لم تُصنم شخصيته، ولم تنفخ فيه روح التكبر والتعالي على الناس... ولكن كم من الناس يمكن لهم أن يحافظوا على توازنهم في مثل هذه الحالة؟ من الذي يَسلم من خفق النعال خلف أعقابهم؟

السلامة في هذه المواضع تحتاج إلى وقاية من الإنسان نفسه... جاء في وصف رسول الله ﷺ: (لا يُوطَّن الأماكن) لا يرضى بأن يُقال هذا المكان البارز له، وذاك لفلان، وذاك لعلان كما نفعل نحن في مجالسنا (وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى) أي النبي بنفسه وبعظمته وجلالة شأنه (إلى قوم، جلس حيث ينتهي به المجلس. ويأمر بذلك).

• وصايا النبي بهذا الشأن:

وبين لنا ﷺ بعض المؤشرات التي تدل على أن الخلل بدأ يدب في الإنسان من باب التعظيم حيث قال: (مَنْ سرَّه أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار).

وأراد لنا أن نتخذ إجراءات في هذا السبيل، ففي صحيح مسلم عن المقداد: (أن رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: إذا رأيتم المدّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب).

الأمر مدمر.. ولذا كان الإمام زين العابدين عليه السلام يقول في دعائه: (ولا

ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تُحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلةً باطنةً عند نفسي بقدرها). من أراد أن يحفظ نفسه من هذه المهلكة عليه أن يكون صادقاً في مثل هذا الدعاء.

والأدهى أن البعض لا يكتفي بتعظيم هذا المرشح/النائب وتضخيم صورته، بل ويجرّ ذلك إلى أبنائه وأفراد أسرته... ويصلّ البعض - وهو ذو الشبهة - أن يتذلّل لأحدهم وهو طفل لم يخط شاربته!

• نعم للإنجازات:

إن علينا ونحن نتفاعل إيجابياً مع أي مرشح أو نائب، أن نسائل أنفسنا: هل المطلوب منا أن نستغرق في شخصه، أم في إنجازاته، وفي تقواه وأخلاقه، وفي مدى التزامه بالقيم والمبادئ والوعود؟

فبأيدينا - متى ما جعلنا دورنا التهليل والتصفيق والمديح - أن نصنع من أحدهم طاغوتاً صغيراً، يرى نفسه فوق أن يُخطيء، وفوق أن يُنتقد! فلنعوّدْهم على الصراحة والشفافية والرقابة والنقد، كي لا يرى أحدهم أن طريق الفساد بالنسبة إليه معبّدة.. ولنجعل من النقد ثقافة مقبولة، لا نريد بها تجريحاً وتسقيطاً، بل إصلاحاً وتقويماً.

بل ولنرتقِ بموقفنا من النقد إلى المقاطعة والبحث عن البديل متى ما وجدنا من أحدهم تعالياً وإصراراً على الفساد أو الانحراف أو خلفاً للعهود والمواثيق.

٤٠

مرشجون وخطوات الشيطان

تحدث في المقالين السابقين عن عاملين من العوامل التي تؤدي إلى إفساد المرشح/النائب، وأختم اليوم حديثي حول هذا الموضوع بالإشارة إلى عاملين آخرين، أولهما: الاستدراج إلى المال الحرام.

فالشيطان يتدرّج في إغواء الإنسان الصالح، ولا ينقله فجأة إلى الموبقات وكبائر الذنوب. ولربما كان هذا الأسلوب الشيطاني في الاستدراج هو ما عبّرت عنه الآية بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ («النور: ٢١»).

• إغواء بالتدريج:

هذا الأمر بالفحشاء والمنكر لا يأتي بشكل مباشر، بل بالتدريج.. بالخطوات.. خطوة خطوة.. فيبدأ معه بتزيين التوسع في المباحات.

ولربما يُزيّن له الأمر بقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ («الأعراف: ٣٢»).

فما المانع أن يزداد رصيدك في البنك؟ وأن تمتلك العقارات؟ وأن تُفَتِّحَ لك العلاقات التجارية من أوسع باب؟ وأن تتمتع بملذات الدنيا؟ ألم يسأل النبي سليمان عليه السلام ربه أن يُعْطِيَهُ مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأحد من بعده؟ إلخ التسويات والإغراءات الشيطانية...

نعم لا مانع من ذلك في نفسه... ولكن الكلام من أين سيكون لك هذا؟ ومن أي باب؟ وعلى حساب ماذا؟ ولماذا أُعْطِيتَ لك هذه الأموال؟ هل لسواد عينيك؟!

أخبرونا... هل سيكون هذا المرشح/النائب بعد ذلك حراً في قراراته وهو يمثّل المواطنين الذين تأمّلوا فيه أن يصدق بالحق ممثلاً عنهم في البرلمان؟ أم سيعمل وفق قاعدة: (الناسُ عبيدُ الإحسان).. عبوديةً للتجار الفاسدين الذين قدّموا له «الهدايا»، وخضوعٌ للسياسيين الفاسدين الذين اشتروا ضميره واستقلاليته.

نعم تبدأ المسألة بالتوسع في المباحات، ثم التساهل في المتشابهات، فغشيان محقرات الذنوب، إلى أن يصل الأمر إلى الحرام المحض... كيف؟ نفس الآية تكمل الفكرة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ «النور: ٢١».

أي أن الإغراء الشيطاني من الشدة، والقابلية في النفس البشرية من القوة، بحيث لا ينجو من ذلك إلا من رحم الله تعالى.

• هبلتك الهبول:

في الخطبة ٢٢٣ من نهج البلاغة يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ) نوع من الحلواء (فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنَّتْهَا) كرهتها وأحسست أن بها عيباً وخللاً وغرضاً غير نبيل (كَأَنَّمَا عَجَنْتُ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَّةٌ) الصلة: العطية التي يراد بها التقرب إلى شخص ما من باب المصلحة لا الأجر (أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبْلَتَكَ الْهَبُولُ!) أي ثكلتك أمك، فالهبول هي التي لها عادة بموت أبنائها (أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمْخَبْتُ) أمختل التفكير (أَنْتَ؟ أَمْ ذُو جَنَّةٍ؟ أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ) قشرة (شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا. مَا لِعَلِيَّ وَلِنَعِيمِ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ).

ولذا فإنَّ مَنْ يضع نفسه في هذا الموقع المتقدم، عليه أن يكون حذراً جداً، وإلا استدريج كما أرادوا استدراج والي الإمام علي عليه السلام على البصرة وهو الصحابي الجليل عثمان بن حنيف، من خلال مأدبة طعام.. فأسرع الإمام بإرسال كتابٍ شديد اللهجة تحذيراً من السقوط، وتنبيهاً من الغفلة.

• ضغط تخليص المعاملات:

العامل الأخير الذي سأحدث عنه في هذا الإطار هو عامل الضغط من قبل الناخبين على المرشح/النائب ليتحوّل إلى مخلص معاملات. لا شك أن هناك ظلامات يتعرض لها بعض المواطنين، وأن هناك قضايا عامة تخص هذه الظلامات تستوجب أن تُطرح تحت قبة البرلمان، وأنا لا أتحدث عن هذه الحالات. ما أعنيه هو الضغط على المرشح/النائب لتلبية الطلبات الشخصية التي تخرج عن نطاق الدفاع عن المظلوم، ليصل الأمر - أحياناً - إلى التهديد الصريح أو الضمني بعدم التصويت له مستقبلاً.

وهكذا يجد هذا المرشح/النائب نفسه مضطراً - على الدوام - للاستجابة لهذه الطلبات، فيدخل في عالم المساومات السياسية على المواقف والمصالح العامة.. فالفساد في نهاية المطاف.

وبالتالي يفقد هذا النائب قدرته على أداء دوره النيابي المتمثل في التشريع والمراقبة، ويتحول إلى مجرد مخلص معاملات، يحمل أوراق الناخبين ويدور بها في أروقة الجهات الحكومية.

بالطبع هذا لا يعفي النائب من المسؤولية، فحريٌّ به أن يفقد كرسي النيابة، ويخرج نزيهاً نظيف اليد، طيب السمعة، على أن يستمر نائباً خاضعاً لابتزاز الناخبين وألاعيب الفاسدين.

• أنت أمام خيارين:

في يوم التصويت أنت أمام خيارين، أن تتحمل مسؤوليتك كمواطنٍ غير على وطنه وأمنه وثرواته.

مواطنٍ ينظر إلى المستقبل، ويفكر بمصير أبنائه والأجيال القادمة، فلا يرضى بالفساد ولا يتنازل عن المكتسبات الدستورية.

مواطنٍ يتجاوز الأنا والمصالح الشخصية والفئوية والحزبية والطائفية، ويدرك حقيقة أن مَنْ يضيفُ إلى محفظة نقوده اليوم ديناراً رشوةً لتوجيه صوته، أو يرفع من رصيده البنكي من خلال تشريع قانونٍ متخبطٍ أو مصلحي يستنزف موارد البلاد واقتصادياته، أو يعمل على تحييره لمصلحة فئةٍ أو حزبٍ أو طائفة، فإنما يعمل على تدمير وطنٍ جميل، وضياع أملٍ كبير!

هذا خيار، ولك خيار آخر أن تعيش ضيق الأفق، وإحساس اللذة الآنية، وتبيع المستقبل الممتد باللحظة العابثة، حتى إذا زالت حُجب الرغبات، وارتفع غبار الصراعات، تجلّت الصورة المؤلمة حين تغدو الأوطان خاويةً على عرشوها، والنفوس متشاحنة متباغضة، والعيون حائرة في متاهات الطرق المظلمة... ولات حين مندم!

٤١ إشكالية نصيب المرأة من الإرث



من الإشكالات التي تُثار اليوم من قبل الملحدّين واللادينّين، على الإسلام وتشريعاته وموقفه من قضايا الحقوق والمرأة: مسألة نصيب المرأة من الإرث، إذ يدّعون أن الإسلام ميّز بين الرجل والمرأة من حيث التفضيل في القيمة، وأنّ فقّه الموارث في الإسلام فقّه ذكوري. وهذه أمثلة يستدلون بها:

عند توزيع الإرث بين الأبناء يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك قوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١١).

وعندما يموت الزوج: تأخذ الزوجة الربع إن لم يكن له ولد، والثلث مع وجود الولد... بينما إذا ماتت الزوجة: أخذ زوجها النصف إن لم يكن لها ولد، والربع مع وجود الولد.

وهكذا إذا مات الرجل وكان إخوانه وأخواته هم الورثة، كان للذكر مثل حظ الأنثيين، حيث قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١٧٦).

وعند وجود الأب مع الأم ولا يوجد للمتوفى أولاد ولا زوجة، فهنا يكون للأم الثلث ويتبقى للأب الثلثان. وفي الواقع هذه هي موارد زيادة حصة الذكر على الأنثى.

• تهمة ناتجة عن جهل:

والحقيقة أن تهمة ذكورية فقه الموارث في الإسلام، وتمييزه بين الذكر والأنثى من منطلق التفاضل في القيمة كلام باطل من أساسه، ولا يصدر إلا عن جاهل.

فعندما نعود إلى الجذور التاريخية لصدور هذه التشريعات فسنجد أنها

جاءت ضمن الواقع التالي الذي ذكره د. جواد علي في الجزء العاشر من موسوعته «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» قال: (والقاعدة العامة في الميراث عند الجاهليين هو أن يكون الإرث خاصاً بالذكور الكبار دون الإناث، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف، أي: المحارب... وقد جاء في الأخبار ما يجعل المرأة في ضمن تركة المتوفى ونوّه إلى وجود بعض الاستثناءات في بعض المجتمعات.

فهل يكون التشريع الذي يؤسس لتوريث الأنثى، فيقضي على هذا التمييز الجاهلي بين الجنسين من حيث القيمة تشريعاً ذكورياً؟ ومن هنا نفهم مدلول وقيمة الآية الشريفة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ «النساء: ٧»، فقد كانت الآية وهذا التشريع نقلة نوعية في حقوق المرأة والانتصار لها.

• تفاوت الحصص:

نعم تتفاوت الحصص بين الذكر والأنثى في بعض الحالات، ولكن لا بلحاظ التمايز في القيمة، وهذا ما سيتضح ضمن البيان التالي:

أولاً: هناك حالات ترث فيها الأنثى ولا يرث فيها الرجل. ومثاله: لو توفي أحدهم وترك بنتاً واحدة، وله أخ. فإن البنت ترث نصف التركة بحسب الفرض، ويُردُّ عليها النصف الآخر، وبالتالي ترث كل التركة ولا

يصل للأخ شيء منها. لماذا؟ لأن المسألة تدور مدار الأقربية في الرحم، ولا مدخلية لجنس الوارث في هذا الأمر، والأقربية في الرحم مقدّمة على أي لحاظ آخر.

• حصة أكبر للأنثى:

ثانياً: هناك حالات ترث فيها الأنثى نصيباً بمقدار مساوٍ أو أكثر من الذكر. ومثاله: لو مات أحدهم وترك أبوين وبنتين، فإن للأب السدس، وللأم السدس - هنا تساوى الذكر والأنثى - ولكل بنت الثلث، أي أكثر من نصيب الأب وهو ذكر. فالتشريع الإسلامي يراعي أيضاً أيهما أكثر احتمالية في امتداد العمر به في هذه الحياة.

• إشكال قديم:

ثالثاً: الإشكال ليس بجديد، فقد طرحه ابن أبي العوجاء - وكان من رؤساء الزنادقة أي الملاحدة في وقته - وردّ عليه الإمام الصادق عليه السلام بما فسّر به سبب زيادة حصة الذكر أحياناً.

فقد روى الكليني في الكافي عن الأحول قال: (قال ابن أبي العوجاء: ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً واحداً وتأخذ الرجل سهمين؟ قال: فذكر ذلك بعض أصحابنا لأبي عبد الله عليه السلام فقال: إن المرأة ليس عليها جهاد) أي غير ملزمة شرعاً بتحمل نفقات الجهاد بنفسها ولا الجهاد بالها (ولا نفقة ولا معقلة) فإذا وقع قتل خطأ من قبل شخص فإن عاقلته أي

أقرباءه مثل إخوانه وأعمامه يشاركون في دفع دية المقتول والمرأة غير ملزمة بذلك (وإنما ذلك على الرجال، فلذلك جعل للمرأة سهماً واحداً، وللرجل سهمين). فقد ألزم الرجل شرعاً بأن يتحمل من المسؤوليات المادية ما لم تُلزم به المرأة.

فالمرأة المتزوجة مثلاً غير ملزمة بالإنفاق، لا على نفسها ولا على زوجها ولا على أولادهما، كما أنها عند الزواج لا تتحمل أية مسؤولية مادية، بل هي تنال مهرأً في هذه الحالة على نحو الإلزام، وهذا ما بيّنه الإمام الصادق عليه السلام أيضاً جواباً عن سؤال: (لأيّ علة صار الميراث للذكر مثل حظّ الأنثيين؟ قال: لما جعل الله لها من الصّدق).

وهذا يعني أن الرجل - عادةً - بحاجة أكثر منها للمال لما عليه من التزامات، لا تجاه نفسه فقط، بل تجاه أكثر من شخص، فهو ملزم بالإنفاق على زوجته وأولاده ولربما على والديه أيضاً في حال فقرهما، كما أنه ملزم بإعطاء زوجته أجر الرضاع لو طالبت به ولم تزد على ما تأخذه المرضعات، وأجر العمل المنزلي إذا لم يكن هناك شرط في العقد يفرض عليها العمل المنزلي، ولم تكن متبرّعة بذلك العمل.

كما أن عليه التزامات أخرى كما جاء في الحديث الأول، من قبيل الإنفاق في الجهاد، والمشاركة في دفع دية قتل الخطأ الصادرة عن أحد الأقرباء. وفي المقابل فإن المرأة غير ملزمة بأن تنفق من أموالها، لا على نفسها ولا على زوجها وأولادها.

فالمسألة إذاً ليست امتيازاً أو تفضيلاً للرجل على المرأة، بل هو سعي لمراعاة التوازن بلحاظ الدخل من جهة، والإنفاق والالتزامات المالية من جهة أخرى.

ومن باب الطرفة، قال بعض الفقهاء أن على الرجال أن يطالبوا بالمساواة مع النساء لا العكس.

• واقع معاصر مختلف:

قد يقال أن المرأة اليوم تشارك الرجل في الالتزامات المالية على الأسرة، فلماذا لا يتغير الحكم؟

والجواب: أولاً، أن المشاركة منها طوعية، ويجب أن يكون برضاها، ومتى ما أرادت الامتناع عن ذلك لم تُجبر عليه.

بالطبع هذا ليس تحريضاً للزوجات على أزواجهن، فالحياة الزوجية الأجمل هي التي تتحقق فيها المشاركة والتعاون والعطاء المتبادل بكل محبة ومودة.

ثانياً، إن القوانين العامة لا تتغير من خلال الحالات الفردية، ولا من خلال التغيرات الطارئة. ولو نظرنا إلى الصورة الإجمالية للمجتمعات المسلمة، فسنجد أن الرجل هو الذي يوفر للأسرة مدخلها، وهو الملتزم بالإنفاق عليها لا المرأة.

• لا للمزايدة:

لقد كَرَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المرأةَ في التشريعات الإسلامية كما كَرَّمَهَا في نظرتِهِ إلى الإنسان كإنسان، حيث لم يُنْقِصْ من إنسانيتها شيئاً، تكريماً لا حاجة معه إلى المزايدة من قبل الذين يَصْرُّونَ على إلقاء التهم والتشويش وإثارة الأجواء بالعبارات الصارخة والأساليب الصاخبة من أجل التأثير سلبياً على شبابنا في نظرتهم إلى الإسلام.

وعلى هؤلاء أن يتذكروا أن الإسلام خصص للأنثى نصيباً مفروضاً من الإرث في زمنٍ كانت المرأة فيه جزءاً من الإرث فضلاً عن أن يحق لها أن ترث! وأن نصيبها منه يتفاوت من حالة إلى أخرى، فلها أحياناً كل التركة مع وجود الذكور من الأقرباء، ويزيد نصيبها عن أنصبتهم في حالات أخرى، كما وتتساوى معهم في موارد، وتنقص عنهم في موارد أخرى، ضمن قواعد وآليات وفلسفة لم تقم أبداً على تفضيل الذكر على الأنثى من حيث القيمة، بل من خلال السعي لمراعاة التوازن بلحاظ الإلتزامات المالية المفروضة على الذكر دون الأنثى.

٤٢

النبي ﷺ .. وفاة طبيعية أم جريمة اغتيال؟

مرت علينا قبل أيام ذكرى وفاة النبي الأكرم ﷺ، وسنستقبل خلال الأيام القليلة القادمة ذكرى مولده الشريف.

وبين هاتين المناسبتين أود أن أتحدث عن مشهد غريب تعاملتُ معه في البداية بشيء من اللامبالاة إذ لم يُثر لدي توجساً... إلا أن تراكم المعطيات المتتالية بمرور الأيام، جعلني أشعر بشيء من القلق حول ما يمكن أن يكون وراء هذا المشهد.

فقد شهدنا خلال ذكرى وفاته ﷺ خطباء في مجالس الإخوة والأخوات، ومقالات ومقاطع فيديو وتغريدات تصب في مجملها حول كيفية وفاة النبي.. وهل كانت موة طبيعية أم جريمة اغتيال؟

وامتلأت وسائل التواصل الاجتماعي بهذه المواد الملوّمة بالاتهامات الموجهة لأشخاص معينين مع التصريح بأسمائهم، وتدعيماً ببعض الأحاديث المغلوطة، والاستنتاجات المشوهة، والإثارات الطائفية الموجهة.

وسأعلق على هذا الأمر من خلال النقاط التالية:

• استغلال للعواطف:

أولاً: جاءت هذه الحملة المنظمة والواسعة مستغلةً عواطفَ الناس وحبَّهم لنبيهم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والأجواء المشحونة في شهري محرم وصفر بالكثير من الحديث عن التاريخ ومفرداته وصراعاته والشحن النفسي التلقائي في هذا الاتجاه، لتجعل الأمر مقبولاً وسريع الانتشار.

• محاولة تعويض:

ثانياً: وبتحليلي الشخصي، فقد جاءت هذه الحملة سعيًا للتعويض عما اعتبره هذا الفريق القابع وراء هذه الحملة خسارةً مُني بها في المواجهة الخاصة بالشعائر الحسينية وبالخطاب الحسيني.

فقد شهدنا هذا العام مواقف بعض المرجعيات الدينية وكثير من العلماء والخطباء والجماهير العريضة التي ساندت المشروع التصحيحي لإحياء الذكرى الحسينية، وإبعاده عن الإثارات الطائفية، والخرافات، والممارسات اللامسؤولة التي تؤدي إلى التشهير بالتشيع وتوهينه، وتضييع الرسالة الحقيقية لهذه المناسبة العظيمة.

لذا قام هذا الفريق بإطلاق هذه الحملة أملاً في استعادة بعض من جماهيره، وإبقاءً لجذوة التطرف الطائفي التي يعتاش عليها مشتعلةً في النفوس، وتماشياً - من حيث يدري أو لا يدري - مع المشروع المخابراتي الكبير الذي يستهدف مدَّ الفتنة الطائفية، وإعمال التمزيق في الأمة.



• مشروع فتنوي:

ثالثاً: التمهيد لمشروع فتنة طائفية كبيرة وجديدة لربما نشهدها في مناسبة قادمة تُشحن من خلالها النفوس ويكون محورها عنوان الوحدة بين المسلمين بعد التوحيد، وهو النبي الأكرم ﷺ.

وهدفهم من ذلك - بالإضافة إلى ما سبق - أن لا يُبقوا بعد هذه الفتنة عنواناً يمكن أن يمثل الإطار المشترك الذي تلتقي حوله المذاهب الإسلامية المختلفة، ويقضوا على كل أمل لتوحيد كلمة المسلمين والتقريب فيما بينهم. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

• القرآن لا يخبر عن قتل النبي:

رابعاً: قد يقال: أليس الله عز وجل قد قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴿١٤٤﴾ «آل عمران: ١٤٤»؟ أليس في هذا تصريح أو تلميح بقتله؟ والجواب: أن الآية جاءت في أجواء غزوة أحد في السنة الهجرية الثالثة، وقد أشيع حينها أن النبي قد قُتل في ساحة المعركة، فهرب كثير من المقاتلين المسلمين، وحدث البعض نفسه بالردة.

قال تَبَارَكَ في الآية ١٥٤ من السورة: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال الطبري: (يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله، وتكذيبًا لنبيه ﷺ وَمَحَسَبَةً مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ خَاذِلُ نَبِيِّهِ وَمُعَلٍّ عَلَيْهِ أَهْلَ الْكُفْرِ بِهِ). وهي ليست بمعرض الإخبار عن قتله في نهاية حياته الشريفة كما يحاول البعض أن يوهم بذلك، ولو افترضنا خلاف ذلك، فإن أقصى ما تدل عليه هو الاحتمال.

• لماذا لم يقتص الإمام علي؟

ثم بالله أخبرونا... أكان علي عليه السلام على علم بالجريمة المزعومة؟ إن كان الجواب بنعم، فكيف له أن يسكت عنها؟ أية مصلحة إسلامية أو تقية شرعية تسمح له بالسكوت عن قتل سيد الأنبياء؟ ولماذا لم يُطالب بالقصاص من القتلة وهو الشديد في مواطن إجراء الحدود والقصاص، كما دلت على ذلك عدة شواهد ونصوص من سيرته المباركة عليه السلام زمن

الخلفاء الذين سبقوه؟ وإن كان الجواب منفيًا، فمن أين عَلم الأئمة المروي عنهم هذا الخبر الملقق؟ أخصّهم الله بهذا العلم وأخفاه عن جدهم أمير المؤمنين عليه السلام؟ ما هذه الترهات؟

• النبي عنوان الوحدة:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عنوانُ وحدةِ المسلمين بعدَ توحيدِ الله عزّ وجلّ، وإن إثارةَ الأحاديثِ الملفّقةِ والمغلوطَةِ حولِ اغتياله من قِبَلِ بعضِ المقربين منه، ومن خلالِ الضربِ على الوترِ العاطفي بإضافةِ عنوانِ الشهادةِ إلى مقامه الشريف - وكأن هذا المقام سيزيده قيمةً عند الله وفقدانه سيُنقص من شأنه - أقول إن هذه الإثارة لا تخدم أحداً أبداً سوى أعداءِ الإسلام، ولا سيما الجهاتِ المخبراتية التي تقف خلفها.

والتعاملُ معها بسذاجةٍ وسطحيةٍ بالنشر والتأييد وأمثال ذلك، تحدُّ لمسؤوليةٍ ستوقفنا طويلاً بين يدي الله عزّ وجلّ ليسألنا غداً كيف حملناها وهو القائل: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «آل عمران: ١٠٣-١٠٥».

اغتيال النبي ﷺ .. مجدداً

تحدثت في المقال السابق عن الاحتمال المطروح حول اغتيال النبي الأكرم محمد ﷺ بالسّم من قبل بعض المقربين منه.

ووصلتني بعض الأسئلة والإشكالات من بعض الأعضاء حول مضمون ذلك المقال، وأنا متمنٍّ لهم لشفافيتهم وتواصلهم. ودارت تلك الأسئلة والإشكالات حول ما يلي:

(١) لم نعتد منك هذا التحامل على أصحاب الرأي الذي يخالفك، وبالمستوى الذي تتهمهم فيه بالعمالة للأجهزة المخبرانية!

(٢) لماذا نرفع اليد عن الحقائق وننكرها في سبيل الحفاظ على الوحدة الإسلامية؟ ولماذا لم تختار الحفاظ على وحدتنا الشيعية بالسكوت عن معارضة هذا الطرح الذي انتشر؟

(٣) الحديث المروي عن الإمام المجتبي عليه السلام عن النبي ﷺ حيث قال: (ما منا إلا مقتول أو مسموم) حديث مشهور، وهو يؤكد قول أصحاب الرأي المخالف.

٤) موت النبي ﷺ شهيداً بالسم قول مشهور عند أهل السنة أيضاً، فلماذا الحساسية من الأمر؟

والإجابة على الأسئلة والإشكالات التي طُرحت تأتي في نقاط:

• خلفية طرح الموضوع:

أولاً، لم يكن حديثي هجوماً على القول باستشهاد النبي ﷺ مسموماً بشكل مطلق، إذ ليس مهماً لدي مسألة إثبات أو نفي القتل مسموماً، فهي مسألة بحث تاريخي، ولكلُّ رأيه.

ولكنني كنت أتحدث عن اتهام بعض المقربين من النبي ﷺ بدس السم له، وخلفيات إثارة هذا الموضوع في هذا الظرف الحساس من واقع الأمة، وخطورة نشر هذا الاتهام بهذه الصورة الواسعة من خلال وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، وتبعات ذلك، وما قد تؤدي إليه من فتن لا تقف عند حد القيل والقال، بل تتعدى ذلك إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وإطالة أمد الفتنة الطائفية التي تعيشها الأمة اليوم، وتوسعة رقعتها.

والذي زاد من قلقي هو الطرح الواسع إعلامياً، والممتد جغرافياً، والذي بدا لي أنه كان منخططاً له، ولم يأت عفويّاً.

ولا شك عندي أن توحيد صفوف المسلمين ورعاية مصالح الأمة الإسلامية أهم من إثارة مثل هذه الموضوعات، بل وأنا مطالبون بالسكوت

والتنازل عن بعض الأمور - على فرض صحتها - تجنباً للفتنة، واقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام القائل: (لقد علمتم أنني أحقُّ الناس بها من غيري، ووالله لأُسَلِّمَنَّ ما سلمتُ أمورُ المسلمين).

• سم اليهودية:

ثانياً، مسألة استشهاد النبي ﷺ بالسم قد قال به جمع من علماء ومؤرخي أهل السنة، وأن ذلك تم على يد امرأة يهودية من خير واسمها زينب بنت الحارث، أرادت بذلك الانتقام، فذبحت شاة وسممت كتفها، وأطعمت النبي منها. وقال به أيضاً جمع من علماء الشيعة ومؤرخيهم.

ولكن هذه قصة مختلفة تماماً عما طُرح مؤخراً، وإثارة استشهاد النبي ﷺ بهذا المضمون لا علاقة له بما كنت قلقاً بشأنه، ومن أراد أن يتبنى هذا القول اعتماداً على المرويات عند الفريقين فهذا شأنه، ولا أملك أنا ولا غيري أن يمنعه عن ذلك.

نعم شخصياً لا أصحح هذا القول، ولدي عدة ملاحظات بهذا الشأن:
أ- تقول بعض الروايات أن النبي ﷺ نهش نهشة من اللحم المسموم، ثم أدرك سمّيته قبل أن يبتلع اللقمة، حيث أنطق الله الكتف المطبوخة فأخبرته بالمؤامرة! وأن صحابياً بجانبه أكل من اللحم وأدرك أنه مسموم ولكنه لم يحب أن ينغص على النبي طعامه فلم يتكلم أملاً في أن يتدخل العامل الغيبي وينقذه من السم! وأن النبي أمر بالمرأة اليهودية فقتلت



ثم صُلبت! وفي رواية أنه عفا عنها، وفي ثالثة أنها أسلمت! وأن النبي أمر بالحجامة لإخراج السم من جسد من أكل من أصحابه من ذلك الطعام، ومع هذا توفي النبي متأثراً بذلك السم بعد ثلاث سنوات!

ب - من الغريب أن يقبل النبي أن يأكل من طعام أعدته يهودية هُزم أهلها وتُكلت في أقرب الناس إليها، أي زوجها سلام بن مُشكم من أحبار بني النضير وسيدهم، والقائد العام لمقاتلي حصن النطاة بخيبر، والذي قُتل في الغزوة أو مات بمرض خلالها، وكذلك قُتل أبوها وعمها الزبير.

ج - هناك تضارب كبير في الروايات من حيث التفاصيل والأسماء وتأثير السم وغير ذلك.

د - كيف لسم أن يؤثر بعد ٣ سنوات؟ وهل يمكن قبول ذلك علمياً؟

هـ - كيف نطقت الكتف المطبوخة؟ وكيف سمعها النبي ﷺ ولم يسمعها الجالسون إلى جنبه؟

كل هذه الملاحظات وسواها مما لا يسع المجال ل طرحها تدفعني إلى التشكيك في هذه الرواية.

• حديث ضعيف:

ثالثاً، الحديث النبوي: (ما منا إلا مقتول أو مسموم) ضعيف سنداً، وقد ردّه عدد من العلماء كالشيخ المفيد، وبالتالي فهو لا يمثل حجة ثابتة... ولكن مَنْ كان مقتنعاً به فلا حزازة، ولا اعتراض إلا في حدود البحث العلمي لا أكثر.

• مشروع مخبراتي:

رابعاً، أنا لم أقل أن من يتبنى الرأي القائل باستشهاد النبي ﷺ عميل أو غير ذلك، بل استقربت وجود مشروع فتنوي محتمل.. وأن هذا الطرح لمسألة الاغتيال سيخدم ويصب في صالح المشروع المخبراتي من حيث يدري هؤلاء أو من حيث لا يدرون. والفرق بين الأمرين واضح.

• الوحدة الإسلامية أولوية:

خامساً، هل كان الأولى والأجدر بي أن أسكت عن الموضوع حفاظاً على وحدتنا الداخلية؟

لو كانت المسألة مسألة رأي علمي ورأي علمي مخالف، فسيكون السكوت والتجاهل أولى من إثارة الموضوع إن كان يستتبع فتنة داخلية. أما هنا، فنحن بصدد قضية عامة لها مردود سلبي محتمل جداً، وقد يصل إلى حد الفتنة، كما عشنا ذلك من قبل، وكما عانى منها المسلمون بحسب ما يشهد به التاريخ.. وبالتالي فإن وأد هذه الفتنة أولى من تجاهل سببها، بل هي مسؤولية شرعية.

لقد أكدت في أكثر من مناسبة أن من مسؤوليتنا أن نراقب أوضاعنا، وأن نحاسب أنفسنا، لا على المستوى الشخصي فحسب، بل وعلى المستوى الجمعي، وأن نعمل على تحمّل مسؤولياتنا تجاه ما تعيشه الأمة من أوضاع غير محمودة... ولنتذكر أن درهم وقاية خير من قنطار علاج، وأن وأد الفتن وهي في مهدها أولى من السماح لها بأن تكبر وتضخم حتى تقيء قبحها، ثم نلعن حظنا ونتحسّر على السلام والأمن والطمأنينة.

وما أشدّ الآلام والحسرات على المآسي والجرائم التي تقع اليوم في سورية واليمن والعراق ومصر وليبيا وغيرها، وحيث يُبحث عن نهاية لها بين ركام الأبنية المدمّرة، والأجساد المقطّعة، ورشقات الصواريخ، وأزيز الرصاص، وأنين الشكالي، وبكاء الأطفال.... وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.... ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «الجاثية: ٢٨».

هل حَرَّمَ الإسلامُ الخمرَ؟

هل حَرَّمَ الإسلامُ الخمرَ؟ لعل الإجابة بالإيجاب تبدو بديهية لدى الإنسان المسلم... إلا أنه أثّرت مؤخراً عبر بعض وسائل التواصل الاجتماعي شبهةٌ حلية الخمر في استعادة لما طُرِحَ قبل أقل من سنة عبر وسائل الإعلام، لِيُعاد تسخين الموضوع مجدداً، ولتثار حوله بعض الأسئلة غير البريئة أحياناً، وليقفز دعاة الإلحاد واللا دينية إلى المشهد من جديد في محاولة لاستغلال ثغرة هنا وهناك.

• مضمون الشبهة وأدلتها:

قالوا بأن القرآن استحسن اجتناب الخمر، ولكنه لم يحرمه بشكل صريح في آية آية، ودليلهم:

(١) وَصَفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْمُسْكَرَ بِالرِّزْقِ الْحَسَنِ: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
«النحل: ٦٧».

(٢) أَمَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِعَدَمِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ السُّكْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ



أَمْنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿النساء: ٤٣﴾، وهذا يعني أن المصلي قد يشرب الخمر ويسكر.

(٣) أقرَّ القرآن بأن للخمر منافع: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ «البقرة: ٢١٩».

(٤) أوصى القرآن بالاجتناب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «المائدة: ٩٠»، ولم يحرم الخمر، ولو أراد تحريمها لاستعمل فعل «حرَّم» كما استعمله في الآيات التي تخص الميتة، والدم، ولحم الخنزير: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ «البقرة: ١٧٣».

وكونها من عمل الشيطان فذلك ليس في ذاتها، وإنما في الآثار السيئة المترتبة على شربها على الصحة وعلى المستوى الاجتماعي... فالأفضل إذاً الإمساك عنها، وتجنب الإدمان.

هذه خلاصة ما استُدلّ به على عدم تحريم الخمر، والشبهة قديمة وأثيرت بحسب رواية علي بن يقطين في الكافي من قبل الخليفة العباسي الملقب بالمهدي، قال: (سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام) أي الإمام موسى الكاظم (عن الخمر هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل؟ فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها، ولا يعرفون التحريم لها....). والرد على الشبهة في نقاط:

• مقابلة لا توافق:

أولاً، في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ الرزق الحسن ليس وصفاً للمسكرات، بل للثمرات، أي هناك مقابلة بين السكر والرزق الحسن، وكأن الآية تقول: لقد أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب، فأحياناً تُحسنون التصرف بها حيث تتحول إلى مصدر للرزق بالتجارة بها، وأحياناً تسيئون التصرف بها حين تصنعون منها المسكرات.

• معالجة تدريجية:

ثانياً، الأمر بعدم إقامة الصلاة في حالة السكر جاء ضمن خطة معالجة المشكلة بالتدريج.

فنحن نتكلم عن مجتمع كان مدمناً على الخمر، يعشق هذا المسكر إلى درجة أن الإغراءات القرآنية لهم بالجنة تَصَمَّنَتْ هذا العنوان، وإن نُزَعَتْ عن هذا الشراب الصفات القبيحة، قال عَزَّمَك: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ «الصفات: ٤٥-٤٧» أي ليس فيها مضار الخمر ولا إسكارها، وقال عَزَّمَك: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ «الواقعة: ١٩» أي لا يصيبهم بسببها صداع ولا سكر. فكان لابد من التدرج في التشريع والتدريب على الامتناع عنها، وذلك بلحاظ تكرار الصلاة التي التزموا بها خمس مرات يومياً وفي أوقات متعددة، مما يجعل من إقامتها مقدمة لترك السكر.

• إثم كبير:

ثالثاً، إقرار القرآن بأن في الخمر منافع حيث قال عَزَّمَك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ لا يدل على إباحة شربها، لعدة أسباب:

أ- لعل لكل مباح وواجب سلبية أو ضرر، ولكل حرام إيجابية أو منفعة.. فللصيام - مثلاً - سلبية الإحساس بالجوع.. وللربا إيجابية زيادة رأس مال المرابي.. فلماذا أوجب الله الصيام وحرّم الربا؟ لأن المنافع والإيجابيات في الصيام أكثر من مضاره وسلبياته، ولأن المضار والسلبيات في الربا أكثر من منفعه وإيجابياته. وبالتالي فمعيار الإباحة والوجوب والتحريم ليس إطلاق المنفعة أو الضرر، بل بحسب نسبة كل منهما في ذلك الأمر.

ب - ذكرت الآية أن في الخمر إثم كبير، وليس مجرد إثم، أي أن الإثم هو العنصر الغالب في الخمر، فهل في هذا التعبير إباحة لشربها؟

ج - هذا التعبير الوارد في الآية بصدد تثقيف الناس بالعناصر السلبية الكامنة في الخمر والتي دفعت إلى تحريمه، ليكون امتناعهم عنها ناشيء عن قناعة وفهم، وبالتالي أكثر رسوخاً في النفس.

• معالجة الإمام الكاظم للآيات:

رابعاً، مَنْ قال أن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة «حرّم» بخصوص الخمر؟ ففي الخبر السابق الذي رواه الكليني عن علي بن يقطين قال: (فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أمير المؤمنين. فقال له: في أي موضع هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أبا الحسن؟ فقال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.... وأما الإثم فإنها الخمرة بعينها وقد قال الله عزّ وجلّ في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمرة والميسر، وإثمهما أكبر كما قال الله تعالى. قال: فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه والله فتوى هاشمية) افتخاراً بها وبصاحبها لأن المهدي العباسي هاشمي أيضاً (قال: قلت له: صدقت والله يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي لم يُخرج هذا العلم منكم أهل البيت) وابن يقطين يقصد الإمام فأدرك المهدي ذلك (قال: فوالله ما صبر المهدي أن قال

لي: صدقت يا رافضي). أما لماذا اعتمد القرآن هذا الأسلوب، فلما ذكرناه في النقطة «ج» من أن طبيعة العلاج لهذه المشكلة كانت تستدعي مثل هذا التدرج في الأسلوب، وفي التوجيه والتشريع.

ثم إن القرآن قال ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ولو راجعنا لسان العرب لابن منظور وجدناه يقول: (جَنَّبَ الشَّيْءَ وَتَجَنَّبَهُ وَجَانَبَهُ وَتَجَانَبَهُ وَاجْتَنَبَهُ: بَعُدَ عَنْهُ) فليس المراد مجرد عدم الشرب بل الابتعاد عن الخمر.

• استهداف للإسلام:

إن الإسلام اليوم مستهدف في أسسه الإيمانية، وفي تشريعاته، وفي كتابه السماوي، وفي حضارته، وفي شخصياته، وفي وجوده وامتداده، ومن مسؤوليتنا أن نرصد كل ذلك.. وإن كانت مقالتي هذه عن التشكيك في تحريم الخمر، والرد على ذلك، فإن المسألة لا تقف عند حد مفردة تشريعية هنا وإشكالية تاريخية هناك، وليست هي إثارات فكرية بريئة كجزء من حق الإنسان في أن يسعى لعقلنة الأمور، بل المطلوب هو رأس الإسلام.

نحن مع العقلنة، ومع السؤال والبحث والحوار، ومع الإيمان والعمل عن قناعة وبصيرة، إلا أن هذا شيء، وما يُثار اليوم من شبهات وحركة محمومة لدفع الشباب للتمرد على كل ما له ارتباط بالإسلام، شيء آخر تماماً، وهو ما يستدعي منا الحذر والرسد والعمل الجاد والدؤوب لحماية الرسالة من سهام المغرضين.

أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل الحياة الزوجية مبنية على المودة والرحمة والمعاشرة بالمعروف. وقد وردت التوصيات والأوامر الإلهية في القرآن الكريم بالمعاشرة بالمعروف باستعمال كلمة المعروف باشتقاقاتها ١٤ مرة، من بينها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ «النساء: ١٩»، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ «البقرة: ٢٣١».

والمعاشرة بالمعروف تعني أن تتم المعاشرة بينهما بأسلوب لائق، منسجم مع تعاليم الشرع، وأعراف المجتمع، وذلك من خلال:

(١) أن يؤدي كل منهما للآخر حقوقه، لا ضمن الحد الأدنى من الحقوق، والذي يُذكر عادة في الكتب الفقهية، كأن يعطيها مثلاً ثوباً للشتاء وثوباً للصيف، وبالمقابل هي تطالبه بثمن الرضاع.. هذه ليست معاشرة بالمعروف.. هذا قمة النكد الزوجي.. بل المراد أن يكون ذلك ضمن المستوى المتعارف وضمن الإمكانيات المادية المتاحة.

٢) أن يكون هناك احترام متبادل، فإذا كان الزوج مثلاً يجرح مشاعر زوجته بالحديث السلبي عن أهلها، أو عن صفاتها الجسدية، أو كان يهينها ويذلها، أو كانت الزوجة سليطة اللسان تُعيب على زوجها حالته المادية مثلاً، أو مستواه التعليمي، فهذا كله ليس من المعاشرة بالمعروف.

• مفهوم القوامة:

وأما تحديد القوامة للرجل في إطار العلاقة الزوجية من خلال قوله عز وجل: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ «النساء: ٣٤» فلا يعني السماح للزوج بظلم زوجته وقهرها وإيذاؤها والتعدي على حقها.

قوامة الزوج على زوجته ليست رفعاً لقيمة الذكر على الأنثى، ولا الزوج على الزوجة، بل هو إجراء تنظيمي، لأن بيت الزوجية يمثل مؤسسة إنسانية، فيها المسؤوليات المادية والعاطفية والحياتية، فلا بد أن يكون هناك نوع من تنظيم هذه الحياة. وبالتالي فالقوامة تكليف، لا تشريف.

فمن خلال القوامة يتم تكليف الزوج ببعض الواجبات تجاه النواة الاجتماعية التي تأسست مشاركةً مع زوجته، وأعطيت له في المقابل بعض الصلاحيات كحق الطلاق.

علماً بأن للزوجة أن تشاركه في ذلك لو اشترطت عليه في العقد أن تكون وكيلةً عنه في ذلك. وبالتالي فإن القوامة لا تتنافى مع المعاشرة بالمعروف،



لأنها لا تعني أبداً التسلط والقهر والإيذاء والاستضعاف والإساءة، ولو أصر على مخالفة ذلك، فإن لها رده - لو أرادت - وبحكم الشرع.

إن الله عزَّ وجلَّ لا يرضى بالظلم، فكيف لو كان منشأ الظلم هو سوء الاستغلال للصلاحيات المعطاة من قبل الله؟ ولذا قال عزَّ وجلَّ بعد بيان بعض أحكام العلاقة الزوجية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «البقرة: ٢٢٩»، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْكُوهُمْ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ «البقرة: ٢٣١»، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ «البقرة: ٢٣٥».

• إجراءات الحاكم الشرعي :

ومن صور الردع هنا لجوء الزوجة إلى الحاكم الشرعي لاتخاذ الإجراءات اللازمة، ومن بينها ما يُعرف بعنوان «طلاق الضرر» أو «الطلاق للضرر»، ومن موارده ما لو كان يؤذيها بالضرب مثلاً.

تقول المسألة الشرعية: (إذا كان الزوج يؤذي زوجته ويشاكسها بغير وجه شرعي، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي) وحينذاك على الحاكم الشرعي أن يقوم بالإجراءات وفق الترتيب التالي :

١- يلزمه بالمعاشرة معها بالمعروف.

٢- فإن لم ينفع، عزّره، بالسجن - مثلاً - لمدة من الزمن.

٣- فإن لم ينفع، كان لها المطالبة بالطلاق.

٤- فإن امتنع من الطلاق، أُجبر عليه.

٥- فإن لم ينفع، طلقها الحاكم الشرعي.

قد يقال: ولم كل هذه الإجراءات؟ لماذا لا يقوم الحاكم الشرعي بتطليقها فوراً؟ والجواب:

أولاً، آخر الدواء الكي.. وهو الطلاق.. والطلاق ليس غاية، فلربما جاء الإلزام أو التعزير بنتيجة. وثانياً، الطلاق من صلاحيات الزوج وقوامته بحكم الشرع، وليس من حق أي أحد أن يتجاوز ذلك ويتخطاه، وعندما يتدخل

الحاكم الشرعي ويجبره على الطلاق، أو يقوم هو بهذا الدور، فهو عمل على خلاف الأصل، ولذا لا بد أن يتم وفق آليات معينة وحدود خاصة.

• موارد الضرر:

ما موارد الضرر اللاحق بالزوجة بما يسمح للحاكم الشرعي بأن يطلقها في نهاية المطاف؟

(١) الامتناع من الإنفاق عليها، أو عدم القدرة على الإنفاق.

(٢) الإيذاء والظلم وعدم المعاشرة بالمعروف كما أمر الله عز وجل به.

(٣) الهجر التام بلا عذر كما هو المشهور، أو الهجر الجزئي بحيث لا يلبي الحاجة الغريزية لمثلها كما هي فتوى السيد فضل الله، حيث اعتبر أن المسألة ليست محددة بالمرة كل أربعة أشهر.

ومن هنا أيضاً خالف السيد فضل الله فقهاء آخرين، حيث يفتون بأنه في حالة غياب الزوج وفقدانه واختفائه، لن يكون لها حق طلاق الحاكم، فيما لو توفرت لها النفقة، فحاجتها لا تتعلق بالجانب المالي فقط، وبالتالي يصح طلاق الحاكم حينئذ وإن أنفق ولي الزوج الغائب.

• المحكمة الجعفرية:

بالطبع كل ما سبق هو الجانب النظري من القضية.. ولكن المشكلة الكبيرة تكمن في الجانب العملي من المسألة، فنحن نعرف أن المراد من

الحاكم الشرعي الذي يمتلك مثل هذه الصلاحية هو الفقيه المجتهد الجامع للشرائط، ويمكن لوكيله المجاز في الأمور الحسبية القيام بهذا الدور، وما يجري في قسم الأحوال الشخصية الجعفري عندنا في الكويت في أغلب الأحوال لا يحقق هذا الشرط، لعدم توفر الفقيه الجامع للشرائط فيها، ولا الوكيل المجاز.

نعم، بلغني أن بعض القضاة يراجعون - أحياناً - مَنْ لهم الصلاحية الشرعية، ولكنها حالات قليلة، بالإضافة إلى عدم وجود محكمة تمييز مختصة بالأحوال الجعفرية، بما يعني أننا لو افترضنا صدور الحكم بما يوافق المعيار الشرعي في الاستئناف، فبإمكان قاضي التمييز «النقض» إبطاله. ومن هنا قد تمضي الزوجة المتضررة في الإجراءات القانونية ويطلقها القاضي للضرر، دون أن تستوفي الشرط الشرعي، مما يُبقيها زوجة شرعاً ومطلقة قانوناً. وبذا تكون الزوجة هي الخاسر في القضية، حيث ستفقد امتيازات الزوجية قانوناً، وإمكانية الزواج من رجل آخر شرعاً، ولو خالفت ذلك أو جهلته وتزوجت كان زواجاً باطلاً شرعاً.. ولو تحقق الدخول بينهما، حرم الزوج الثاني عليها حرمة مؤبدة.. وهنا الكارثة.

في بعض الدول العربية والإسلامية هناك محاكم شرعية للأحوال الشخصية معترف بها من قبل الدولة، أما عندنا في الكويت فلا وجود لها. بل حتى قسم الأحوال الشخصية الجعفري في المحكمة غير مكتمل الهوية

والتكوين، وغير مستوفٍ للشروط المفترضة، وكاد مجلس الأمة السابق أن يصل إلى نتيجة إيجابية بهذا الخصوص، ولكنه حُل، ولا بد الآن من البدء من الصفر مع مجلس أصبحت تركيبته أشد تعقيداً من سابقه.

• عليكم بالتفقه والتقوى:

إن عدم توفر المحاكم الشرعية المختصة بالأحوال الشخصية الجعفرية والمُعترف بها من قبل الدولة، وعدم تكامل قسم الأحوال الشخصية الجعفري في الكويت يستدعي من الأخوات المؤمنات التفقه وإعمال التقوى، والسعي لحل المشكلات الزوجية القائمة بالتصالح، أو التوافق بين الطرفين، أو فض الخصومة والحصول على الطلاق بالتراضي عبر الوساطات ما أمكن، تجنباً للوقوع في المحاذير الشرعية.. كما وعلى الأزواج في مثل هذه الحالات أن يتقوا الله عزّ وجل وأن يتحلوا بكرم الأخلاق، ومحاسن صفات الرجولة والغيرة، بعدم تحويل هذه الموارد إلى وسيلة للابتزاز والمزيد من الإضرار، وإيقاع الزوجة في المحاذير الشرعية الخطيرة جهلاً، أو تحت الضغط النفسي.. وليتذكروا قوله عزّ وجل: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ «البقرة: ٢٢٩» وقوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ «البقرة: ٢٣٧»، ليكون ذلك سبباً في نيل رحمة الله ومغفرته، وجلباً للراحة النفسية التي لا تتحقق بالانتقام والدخول في دوامة المحاكم والمخافر، بل بالعفو والتسامح والتسامي على الجراح.

مقولة التطور الطبيعي للعقيدة ٤٦

ودّع العالم العام ٢٠١٦ بكثير من التفاؤل تجاه ما يتعلق بالإرهاب التكفيري وكياناته، بناءً على تقلص مساحات سيطرتها على الأرض في سوريا والعراق وليبيا وغيرها، ولظهور بعض التفاهات الإقليمية والدولية بخصوص الوضع القائم في سوريا، وما إلى ذلك من عوامل.

إلا أنه سرعان ما أطل الإرهاب التكفيري بوجهه القبيح في تركيا والعراق ومصر وليبيا، لتعود معها الارتدادات الفكرية المطالبة بمحاكمة الإسلام - أو مراجعته - على المستويين الفكري والتشريعي، ومن بينها مقال نشر مؤخراً في إحدى الصحف المحلية، وخلاصة أفكاره أن:

١- تغيير الأديان - كل الأديان - أمر طبيعي ومحمود، وناتج عن تبدل ظروف الحياة.

٢- هذا التغيير لا يتحقق عادةً إلا بهجر النصوص الدينية وعدم العمل بها.

٣- التغيير وإن كان بطيئاً، وقد يستغرق مئات أو ألوف السنين، ولكنه أمر حتمي، ويمكن أن يتسارع تحت وطأة بعض الظروف.

٤- فالكنيسة الكاثوليكية - بعد ألفي عام - باتت تناقش بجدية قضايا

من قبيل إباحة الإجهاض، واستعمال وسائل منع الحمل في حين كان مجرد التطرق إليها من المحرمات، فضلاً عن شرعيتها.

٥- ومؤخراً قامت الكنيسة - في العالم المسيحي الغربي - بشرعة زواج الشواذ، واعترفت حكومات الولايات المتحدة وأوروبا بكل تبعات ذلك الزواج.

٦- كما كان للمسلمين تجربة تغييرية بعد وفاة النبي ﷺ، حيث تم تجميد بعض الحدود وتغيير بعض الأحكام، كما نجد أن كل العالم الإسلامي تقريباً قد هجر عقوبة قطع يد السارق، بعد أن ثبت أنها غير عملية ولا عادلة، حين تساوي بين سرقة مبلغ تافه، وسرقة شيء لا يُقدَّر بثمن!

٧- الإسلام مقبل على هذا التغير لا محالة، والسبب الرئيس هو ما انكشف من خلال السلوك الإجرامي الرهيب لداعش وأخواتها.

• الدين فكر وشرعة:

والجواب الإجمالي عما سبق يأتي في نقاط:

(١) هناك خلط متعمد أو ناشيء عن جهل - يقع فيه أصحاب هذه الأطروحات - بين الأسس الفكرية للدين «العقيدة» وبين تشريعاته.. وخلط آخر بين الرسائل السماوية والأديان الوضعية «الأرضية».

ومن الخطأ أن تُقاس الديانات الأرضية بالسماوية.. فلكل شأنه الخاص،



وكلامنا عن السماوية منها. فالأسس الفكرية للرسالات السماوية منزلة ومحددة من قبل الله عز وجل، وهي واحدة لا تتغير عبر الزمان والمكان، قال الله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.. فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ (الشورى: ١٣-١٥).

وليس لأحد الحق - بمن فيهم النبي ﷺ - أن يبدل فيما أنزل الله أو يغير منه شيئاً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦).

أما التشريعات المنزلة، فقد تتغير قليلاً وبشكل محدود، من رسالة إلى أخرى، كما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ «آل عمران: ٥٠».

كما قد تتغير في مسيرة الرسالة الواحدة من ظرف إلى آخر، وذلك برفع بعضها، أو بإبدالها بغيرها، وهو ما يُعرف بنسخ الأحكام.. ومردّ هذا إلى تطور البشرية وتبدّل الظروف.

ولأن الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع، فقد جعل الله عزّ وجلّ فيها من المرونة وقابلية التكيف مع الظروف المتبدلة ما يكفل لها الصلاحية عبر الزمان والمكان، وذلك من خلال:

أ- السماح بالعمل بالأحكام الثانوية وفقاً للظروف الاستثنائية.. فللموضوعات أحكام أولية تمثّل موقف المشرّع تجاهها في الحالات العادية والمستمرة، ولها أحكام ثانوية تمثّل موقفه في الحالات الاستثنائية؛ من قبيل: «الاضطرار، الحرج، العجز، الجهل، الإكراه، النسيان، الضرر، التقية».

ومن أمثلة ذلك المنصوص عليها: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «البقرة: ١٧٣».

ب - وجود منطقة خالية من أيّ حكم إلزاميّ، لا وجوب ولا حرمة،

يستطيع فيها الحاكم الشرعي أن يتحرك بمرونة لوضع التشريعات المؤقتة وفقاً للظروف المتبدلة.

إذاً، هناك أحكام إلزامية وهي ثوابت تشريعية، كحرمة الربا والغش وقانون الإرث، وهناك أيضاً أحكام متغيرة، من قبيل تلك المرتبطة بإحياء الأرض الموت، واستخراج المعادن والنفط وغير ذلك.

• الدين وفهم الدين:

(٢) هناك خلط آخر بين الدين - فكراً وشرعةً - من جهة، وبين الفهم البشري لهما.. فالأول سماوي ومعصوم عن الخطأ، بينما الثاني هو نتاج اجتهاد العلماء والمفكرين، وبالتالي فهو قابل للخطأ.

حرمة العلاقة الغريزية بين الجنس الواحد من الدين، وحد السرقة منصوص عليه في القرآن الكريم، وبالتالي فهو من الدين أيضاً، ولا يمكن أن يتغير... وأما إعدام المرتد فلم يرد فيه نص قرآني، أي أنه من الفهم والاجتهاد البشري، وبالتالي فهو قابل للاجتهاد الخاطيء وتبدل الحكم.

• شروط حد السرقة:

وللتوضيح، فإن حد السرقة لا يُقام إلا بعد تحقق ٩ شروط، وأوصلها بعض الفقهاء إلى ١٣ شرطاً! فمن قال أن يد السارق للمبلغ الزهيد تُقَطَّع كما تُقَطَّع يد السارق لما لا يُقَدَّر بثمن؟

ومن قال أن السارق بسبب الجوع والفقر، أو في الظروف الاستثنائية كالمجاعات، تُقطع يده؟

والسارق لما ترك بلا حفظ لا يُقطع، فعن علي عليه السلام: (لا يُقطع إلا مَنْ نَقَبَ بيتاً أو كسر قفلاً).

ومن لم تكتمل جريمته لا يُقطع، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (أنه أتني بلصّ نَقَبَ حفر حفرة في الحائط لدخول المكان (فعاجلوه فأخذوه) أي لقطع يده (فقال: عجلتم عليه. فضربه) أي جُلد ٢٠ جلدة كما في رواية أخرى (وقال: لا يُقطع مَنْ نَقَبَ بيتاً، ولا من كسر قفلاً، ولا من دخل البيت فأخذ المتاع حتى يُخرجه من الحِرز، ولكن يُضرب ضرباً وجيعاً، ويُغرم ما أفسد).

ثم إن هذا كله يجب أن يتم بعد إعمال العدالة في المجتمع الإسلامي، واستحكام القانون ومساواة الناس أمامه بما فيهم الحاكم ذاته، وتطبيق نظام التكافل الاجتماعي الذي يخفف من وطأة الفقر والحاجة، مع العناية بشؤون التربية الصحيحة والتوعية الإعلامية المتعلقة بهذا العنوان.

• مغالطات:

(٣) في المقالة عدة مغالطات، من قبيل أن الكنيسة في الغرب اعترفت بزواج الشواذ، فالواقع أن الغالبية العظمى ترفض ذلك، والتي قبلت بها تمثل حالات شاذة.. وهكذا فإن الدول الغربية التي سمحت به محدودة..

كما أن هجر غالبية الدول الإسلامية لحد السرقة لم يكن بناء على ثبوت عدم عدالة هذا التشريع، بل لهجران عموم الحدود الشرعية انطلاقاً من علمنة الحكومات.

• ادعاء باطل:

وأخيراً أقول: نعم، التغير سنة الحياة، إلا أنه يجب عدم الخلط بين الدين وبين فهم الدين... بين القواعد الفكرية للإسلام، وبين الأحكام والمفاهيم الظنية المستنبطة... بين ثوابت الإسلام في المحرمات والواجبات، وبين دائرة المباحات. فما نزل من السماء من أسس فكرية ومن تشريعات ملزمة تُعتبر ثابتة لا تتغير بتغير الظروف. وإن توقف العمل ببعض تلك التشريعات بعنوان ثانوي كالاضطراب والهرج، إلا أن هذا لا يلغي الحكم الأولي الأصيل... وأما ما بذل فيه الإنسان جهداً للفهم فقابل لأن يتغير، لأنه في نهاية المطاف جهد بشري قابل للخطأ والصواب.

والادعاء بأن الجرائم المرعبة للجماعات الإرهابية التكفيرية تكشف عن الوجه الحقيقي للإسلام، مما سيحفز للإسراع في تغيير الإسلام فكراً وشرعيةً، وهجر نصوصه، فمحض أوهام وهراء، لأن الإسلام العزيز بقرآنه وسنة نبيه ﷺ وتعاليم أهل بيته عليهم السلام براء من تصورات تلك الجماعات وسلوكياتها ومشاريعها التي لا تخدم سوى الاستكبار العالمي المتربص سوءاً بالإسلام وأهله.

جريمة الرشوة

٤٧

عرفت البشرية الرشوة - في مفهومها الواسع لا بمفهومها الفقهي الخاص برشوة القضاة فقط - كسلوك منحرف في عهود مبكرة من تاريخها، وحفظت لنا المدونات القديمة صوراً من تلك الرشى.

• صور من التاريخ:

فقد أورد «صمويل كيرمر» في كتابه «من ألواح سومر» نصاً مكتوباً بالخط المسماري على ألواح طينية يعود تاريخها إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد كتبه معلم يذكر فيه حال تلميذ كسول، يتلقى العقوبة من المعلم في كل يوم، فيطلب من أبيه أن يدعو المعلم إلى بيته، ليرشيه.. وفعلاً لما تم الأمر انقلب موقف المعلم من التلميذ فوق قائلًا: (أيها الشاب، لأنك لم تهمل قولتي، ولم تنبذ إرشادي، عساك أن تبلغ القمة في فن الكتابة، وعسى أن تتقنه غاية الإتقان، ولعلك تكون القائد بين إخوتك، وأن تصبح رئيساً على جميع أصدقائك، وليتك تبلغ أعلى الرتب بين طلاب المدرسة. حقاً لقد أحسنت في إنجاز أعمال المدرسة كل الإحسان وأصبحت رجل علم!).

وهكذا حفظ لنا المصريون القدماء وثيقةً في ورقة من البردي وتدور حول رشوة قدمها شخص للمسئولين عن بناء المقبرة الملكية مقابل تعيين أحد الصبية في وظيفة عامل المقبرة، وتسرد البردية أسماء المرتشين والأشياء التي حصلوا عليها، ومن بينها كرسي وصندوق خشب وصندل.

• الرشوة في القرآن والسيرة:

ولعل في قصة النبي سليمان ومملكة سبأ نموذجاً من نماذج الرشوة التاريخية، حيث قالت الملكة: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ، فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ «النمل: ٣٥-٣٦».. أسمتها هدية، ولكنها في واقعها محاولة شراء ذمة.. وبمعنى آخر رشوة، ولكن على مستوى كبير.

في القرآن الكريم أيضاً حديث عن نوع محدد من الرشوة.. قال عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة: ١٨٨».

هذه الآية وإن خصّت الرشوة في مجال القضاء، إلا أنها قدّمت قاعدة عامة متمثلة في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ استفاد منها الفقهاء في موارد عديدة، ومن بينها الرشوة بالمفهوم العام.

وقد روي أن النبي ﷺ استعمل على الصدقة رجلاً يُعرف - بابن اللّبيّة - فجاء بالمال فقال: (هذا لكم وهذا لي، أهدي لي). قال فقام رسول



الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بالُ عاملٍ أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي؟! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟!....) ومن الواضح أن هذا النوع من الإهداء لا يأتي من فراغ، بل جاء بمقابلٍ أنيٍّ قد تحقق أو مستقبلي متوقع.

وهكذا نجد في نهج البلاغة أنه لما استُخلف علي عليه السلام كتب كتاباً إلى أمراء الأجناد جاء فيه: (أما بعد، فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه)، وفي نص «فاقتدوه».

• الرشوة في القانون المدني:

واليوم تعد الرشوة - من الناحية القانونية - من أخطر الجرائم المخلة بحسن سير الوظيفة العامة:

١. لأنها تدفع الموظف العام إلى تغليب المصالح الشخصية على العامة.

٢. تؤدي لإثراء الموظف المرتشي دون سبب مشروع.

٣. تخل بالمساواة بين المراجعين أمام المرافق العام، وتضيع حق البعض.

٤. تفتح الباب لصور أخرى من الفساد وانتشارها في مرافق الدولة.

٥. تفقد المواطن الثقة بالدولة وبنزاهة مؤسساتها القانونية.

ولخطورة الأمر فقد عمد القانون لتجريم مجرد عرض الرشوة، والتوسط فيها، والإخلال بواجبات الوظيفة نتيجة رجاء الحصول عليها!

ففي قانون الجزاء الكويتي قد تصل عقوبة المرتشي إلى ١٠ سنوات حبس، وعقوبة الراشي والوسيط إلى خمس سنوات، وقد تضاف إليهما عقوبة مالية أيضاً، وفي حكم الموظف العام أعضاء المجالس النيابية، والخبراء، ووكلاء النيابة، وغيرهم.

• إجراءات إضافية:

ونتيجة لاستفحال هذا الداء والمدى التخريبي الواسع له، وعدم كفاية تشريع القوانين، لأن الفساد قد يصل إلى مؤسسة القضاء بذاتها، فقد عمدت بعض الدول إلى اتخاذ إجراءات إضافية. فالمغرب - على سبيل المثال - جعلت من السادس من يناير يوماً وطنياً لمحاربة الرشوة، وأسست الحكومة هناك: الهيئة المركزية للوقاية من الرشوة.

• تقرير مابلكرافت:

في سنة ٢٠١٥ أعدت شركة فيريسك مابلكرافت Verisk Maplecroft المتخصصة في قياس المخاطر دراسة حول مدى احتمالية انتشار مخاطر الرشوة والفساد في أكبر ١٠ دول منتجة للنفط على مستوى العالم، وقسمت النتائج إلى فئات «قصوى، وعالية، ومتوسطة، ومنخفضة».

في هذا التحليل جاءت الكويت ضمن فئة «عالية»، وتبين من خلاله أن ٧ دول - من بينها الكويت - تعتبر في منطقة «الخطر الجدي»، وأن تقديرات البنك الدولي تشير إلى أن الفساد يضيف عبئاً تبلغ نسبته ١٠٪ إلى تكاليف إنجاز الأعمال على مستوى العالم سنوياً، وهي النسبة التي تقدر قيمتها بنحو تريليون دولار يتم دفعها كرشاوى.

• أين تكمن المشكلة؟

وما عاد الأمر خافٍ على أحد، وصار هذا الداء يضرب كل مرافق الدولة ومؤسساتها. وإذا كان الموظف الحكومي على اختلاف مراتبه - في يوم ما - يتحرّج ويستحي من طلب الرشوة جهاراً، فقد أصبح الأمر اليوم مألوفاً وبعناوين مختلفة.

هل هناك قصور في القانون؟ لا أعتقد ذلك.

هل المشكلة في عدم الوعي؟ لا يبدو الأمر كذلك..

بل لو سألت أحدهم عن الحكم الشرعي للرشوة، لجاءك بالنصوص المختلفة التي تدل على تبعات أكل المال الحرام والسحت. وقد نجد نموذجاً من المرتشين لا يمانع في أن يجعل قسماً من هذا السحت عطاءً في سبيل الله، أو أن يدفع خمسه أو زكاته، وكأنه يريد بذلك أن يخدع الله ويسترضيه برشوة أخرى!

• الباطل لا يبني الحياة:

إن مشكلة استفحال الرشوة بمفهومها العام لها علاقة بفقدان الإرادة الجدية لمكافحة الفساد، وللتراخي في تطبيق القانون، ولتشابك المصالح، دون أن نخلي الراشي والوسيط من مسؤولية انتشار هذا النوع من الفساد.

ولنتذكر أن المجتمعات إنما تحيا وتكبر وتعظم وتتطور إذا انطلق أبناؤها ليأخذوا حقوقهم غير منقوصة، من دون أن يُقدّموا أي تنازل في مقابل هذه الحقوق.. وأن منع الحقوق يضطرّ الناس إلى شرائها، ولربما جعلهم يُخضعون كل حياتهم لهذا الواقع الفاسد الذي سيؤثر تأثيراً سلبياً في كل واقع الحياة.

إن الباطل لا يمكن أن يبني الحياة، بل من خلال الحق يجد الناس الطمأنينة والأمن والعدالة.

شِيخُوخَةُ الدُول

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ «الروم: ٥٤».

في الآية الشريفة وصف عام لمراحل ودورة حياة الفرد الإنساني، البداية الضعيفة، ثم بلوغ مرحلة القوة، ثم الضعف المجدد والشيخوخة.

• ابن خلدون وحياة الدول:

وقد اعتبر العلامة ابن خلدون أن هذا الوصف العام الوارد في الآية ينطبق على الدول أيضاً.. حيث تكون ضعيفة في بداية تكونها، ثم تقوى، ثم تضعف وتعيش الشيخوخة. ومن هنا قال أن مثل الدولة ك: (مثل كائن حي، ذي طبيعة خاصة، محكومة بقانون السببية).

ومما يؤيد تصوّر أن الأمم والدول كائن حي، قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ «يونس: ٤٩». تماماً كما أن للفرد الإنساني أيضاً أجل.

التصور الذي قدّمه ابن خلدون حول دورة حياة الدول والحضارات والمجتمعات الإنسانية يتلخص في الانتقال من طور البداوة والتوحش، إلى حياة البذخ والترف ورقة العيش، لتصل في نهاية المطاف إلى سن الشيخوخة والهرم، ثم الفناء.

• سمات المراحل الثلاث:

الصفة الغالبة على الجيل الأول: شطف العيش، والبسالة، والاشتراك في المجد... وبذا نجد أن: (حسّهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون).

وفي الجيل الثاني يتحول حالهم من الشطف إلى الترف، ومن الاشتراك في المجد إلى بروز الأنا وقوتها، والكسل عن السعي نحو المجد إلا من البعض وبشكل فردي، فيفقدون عزّهم تدريجياً، ويشعرون بذلك، لأنهم أدركوا الجيل الأول، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت. ثم تأتي مرحلة الجيل الثالث حيث تُنسى خصال الشجاعة، والبأس، مع الاستكانة إلى رغد العيش والتخلي عن واجباتهم في الدفاع عن كيانهم، فيصيرون عيالاً على الدولة، ويخدعون أنفسهم والناس ببعض المظاهر السطحية التي يحاولون من خلالها إثبات استمرار عز دولتهم. هذه هي مرحلة الشيخوخة التي تستسلم فيها الدول لآثار الشيخوخة والضعف، حيث لا يعود أبنائها أصحاب بأس، وتتم الاستعانة بالموالي - على حد

تعبيره - أي من غير أبناء ذلك المجتمع، وهل سيكون لهؤلاء الولاء؟ وهل سيثبتون أمام الخطر الجدّي؟ من الواضح أن الأمر ليس كذلك.

• نقد نظرية ابن خلدون:

ويبدو أن هذه النظرية لا تصمد أمام نموذج الدولة التي تقوم على أساس مؤسساتي.. فالنموذج الذي قدّمه هو نموذج الدولة القائمة على العصبية.. على الانتماء المشترك لمكوّن ذلك المجتمع، وأما الدولة القائمة على أساس مؤسساتي وضمن دستور يلتزم به الجميع، فالأمر قد يكون مختلفاً. أي أن الدولة قد تدخل في المرحلة الثالثة وهي مرحلة الشيخوخة والضعف نتيجة ظروف معينة، ولكن بإمكانها أن تتشيب.. أن تستعيد نضارتها وحيويتها.. ولكن هذا يحتاج إلى توفر الأسباب. تماماً كما أن بإمكان الإنسان الفرد أن يؤخر ويقلل من آثار الشيخوخة وتبعاتها، وذلك من خلال إجراء العمليات الجراحية، والاهتمام بالتغذية، وممارسة الرياضة، وغير ذلك من الوسائل.

• الأزمة الاقتصادية في أمريكا:

في عام ٢٠٠٨ شهدت الولايات المتحدة أزمة اقتصادية ضخمة استطاعت أن تتعامل معها بحيث تتجنب حالة الانهيار، ثم تنحو نحو التعافي تدريجياً.. هذا لم يأتِ من فراغ.. بل من خلال المؤسسات البحثية، ومراكز الدراسات المتخصصة.

• المؤسسات البحثية:

هناك على سبيل المثال ما يُعرف باسم Think tanks وترجم بعنوان خلايا التفكير. هذه المراكز تنتج كمًّا كبيرًا من الأبحاث والدراسات، لتشكيل قاعدة معلوماتية واستراتيجية للأحزاب والحكومات، ولها التأثير الأكبر على سياسة أمريكا تجاه القضايا الداخلية والخارجية.

وعلى سبيل المثال هناك «معهد بروكينغز» الذي تأسس سنة ١٩١٦، والذي يُعد أحد أكثر مراكز الفكر تأثيرًا في السياسات الأمريكية العامة، ومؤسسة «كارنيغي للسلام الدولي» والتي تأسس عام ١٩١٠، ولها خمسة فروع في واشنطن، وموسكو، وبيروت، وبكين، وبروكسل، لتشكيل قاعدة ضخمة من المعلومات والتقارير والأفكار التي تؤثر على السياسة الخارجية الأمريكية بشكل كبير، و«مركز بيو للأبحاث»، وهو مركز حديث تأسس عام ٢٠٠٤، ويقدم تقارير الرأي العام، والاتجاهات السكانية، والقضايا المجتمعية والإعلامية في الولايات المتحدة وحول العالم.

هذه المراكز تقدّم ما هو بمثابة حقن البوتكس، والبرنامج الرياضي والغذائي الذي تستطيع الدولة من خلاله أن تتشعب وتعود إلى حيويتها، بل ربما تعود من المرحلة الثالثة إلى الثانية من جديد.

• شيخوخة السكان في ألمانيا:

وفق المعايير العالمية، فإن أي مجتمع تجاوزت فيه نسبة أعمار الستين



عاماً أو يزيد أكثر من ١٠٪ من تعداد السكان، فهو مجتمع يعاني من الشيخوخة، وهذا سيؤدي إلى تدمير اقتصادها.

في ألمانيا - مثلاً - تبلغ نسبة من بلغوا ٦٥ عاماً ٢٠٪ من مجموع السكان.. ويتوقع لهم أن يبلغوا ثلث السكان عام ٢٠٦٠، وهذا يحدث انقلاباً في اقتصادها إذ يستنزف مواردها بشكل كبير.

ولذا أعلنت ألمانيا أنها بحاجة إلى ٤٠٠ ألف مهاجر سنوياً من ذوي الكفاءات كي يتم إصلاح هذا الخلل، بل عمدت بعض الدول الأوروبية إلى تصدير كبار السن فيها بتشجيعهم على الهجرة إلى دول البحر الأبيض المتوسط وأمريكا اللاتينية وأفريقيا!

• مؤسسات حقيقية:

المهم أن كل هذا يتم وفق دراسات ومن خلال عمل مؤسساتي حقيقي.. المسألة ليست مسألة إيجاد للمؤسسات.. بل كيف تعمل هذه المؤسسات.. وماهية العقول التي تديرها.. وهل تشتمل على كفاءات حقيقية أم المسألة مسألة تنفيـع وتباهي وتحزب.. وأخيراً هل يؤخذ بهذه الدراسات والتصورات والمقترحات المقدمة أم توضع في الأدراج لتُـنسى؟ إن شيخوخة الدول والمجتمعات وآثارها من الضعف، والوهن، وانتظارِ الأجل، ليست قدراً محتوماً غير قابل للتغيير أو التجاوز.. فالدولة متى ما قامت على العمل المؤسساتي الحقيقي، وسارت وفق دستور واضح ومناسب، واعتمدت في سياساتها الدولية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتنمية المختلفة على البحوث والدراسات التي تقدمها العقول المفكرة والمخلصة والجادة التي تعمل ضمن مراكز التفكير وبأسلوب علمي رصين، فبإمكانها أن تكسر القاعدة التي بناها ابن خلدون في نظريته حول دورة حياة الدول والحضارات، فتحتفظ بشبابها إلى أمد بعيد، أو تعيد إلى نفسها الحيوية والنضارة والقوة.. فهل سنبقى نبكي أمجاد الكويت لأولؤة الخليج، أم سنعمل في الاتجاه الصحيح الذي يعيد إليها حيويتها ونضارتها؟ أظن أن القراءة الأولية لمعطيات العمل الحكومي والبرلماني الحالي لا يبعث على التفاؤل بحال.